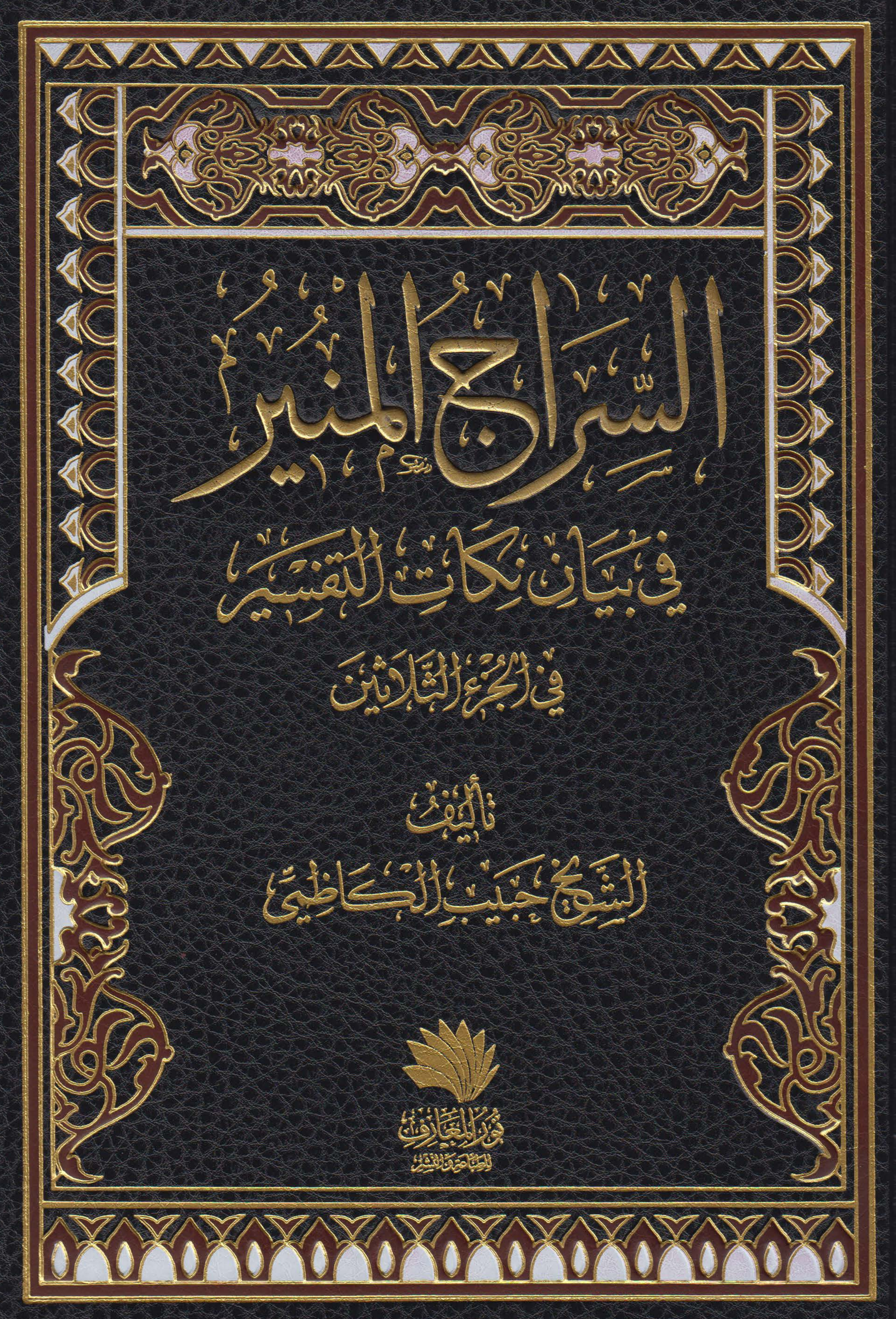
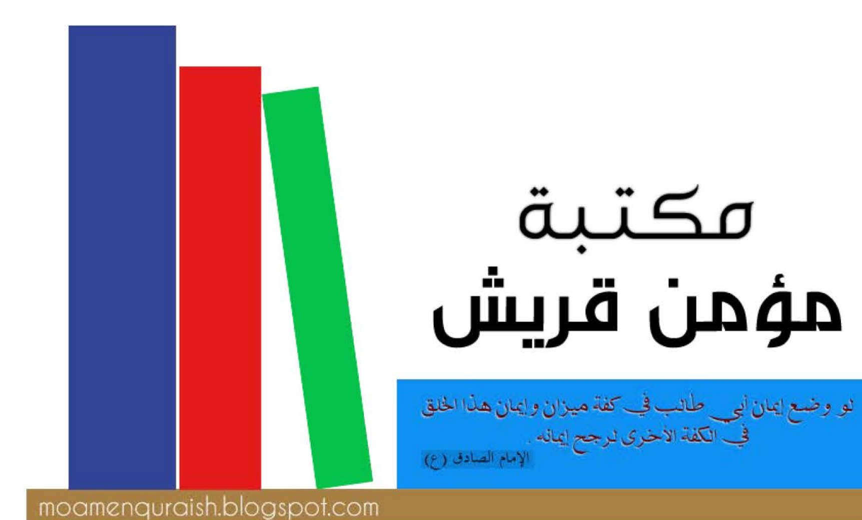

السراج المنير
في بيان نكات التفسير
في الجزء الثلاثين
تأليف
الشيخ حبيب الكاظمي
نور المعارف



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


السراج المنير
في بيان نكات التفسير
في الجزء الثلاثين



مراكز النشر والتوزيع والاستفسار :

- لبنان : نور المعارف للنشر والتوزيع - هاتف 009613404587
- لبنان: دار الولاء - هاتف 009613689496 *Daralwalaa@yahoo.com*
- ايران : قم - مجتمع ناشران - نور المعارف للنشر والتوزيع - الغرفة 508 - هاتف 00989151104538
- العراق : نور المعارف للنشر والتوزيع - هاتف 009647817627067

ISBN 978-614-420-156-5

إسم الكتاب: السراج المنير

في بيان نكات التفسير في الجزء الثلاثين

المؤلف: سماحة الشيخ حبيب الكاظمي

الناشر: نور المعارف للطباعة والنشر

دار الولاء للطباعة والنشر

الطبعة: الأولى / بيروت 1436هـ - 2015م

السراج المنير

في بيان نكات التفسير

في الجزء الثلاثين

تأليف

الشيخ حبيب الكاظمي




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على مَن أُنزل عليه الكتاب المبين ، سيدنا محمد المصطفى ﷺ وعلى آله الكرام الميامين ، الذين جعلهم الله تعالى عِدلا لكتابه ، ومناراً لعباده.

أخي القارئ الكريم..

اختلفت أنماط التفسير ـ من خلال ملاحظة ما في مجموع المكتبة القرآنية ـ بين ما:

- يحوم حول الإشارات اللفظية واللغوية .
- يعتمد الجانب الروائي في التفسير .
- يؤكد على الجهات الروحية والأخلاقية فيها .
- يتوجه إلى جهة التحليل العلمي والتعمّل العقلي .
- يجمع تلك السِمات جميعا.

ولكن الجامع بينها جميعاً طابع السرد والاسترسال في بيان ما ذُكر ، مما يتطلب من القارئ أن يستخلص بنفسه النكات التفسيرية المبثوثة في تضاعيف هذه التفاسير ، والتي هي بحق في قمة التراث الإنساني المدون .

ولكن في مقابل هذه المدرسة على اختلاف مشاربها ، ارتأتينا ــ بفضل الله تعالى ـ أن نقوم بعمل آخر ، يتلخص في : تقطيع السورة إلى مجموعة من الآيات المتجانسة من جهة الموضوع والسياق ، واستخراج النكات التفسيرية على شكل نقاط محدّدة ، تركيزاً لمضمون التفسير في نفس القارئ ، وتسهيلا له للتأمل في كل نقطة ـ حتى لو تسنّى له وقت يسير في سفر أو حضر ـ ليصدق عليه أخيراً أنه المتدبر في القران الكريم ، والمستفيد من آياته في حركته إلى الله تعالى .

وهذا الذي ذكرناه من الهدف في تأليف هذا التفسير ، هو الذي طلبه المولى المتعال من عامة المكلفين بقوله تعالى : ﴿أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ و ﴿هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ و ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ و ﴿تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ و ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْث﴾ و ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِه﴾ و ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِه﴾ و ﴿وَجاءَكَ في هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنين﴾ و ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾ و ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾.

فكان هذا التفسير بمثابة المعين له في هذا المجال ، ليكون كتاب ربه له : (ذكرى ، وبلاغاً ، وهدى ، وموعظةً ، وتبياناً ، وبياناً ، وفرقاناً ، ومبيّناً) وهو

الرحيق المستخلص من الآيات السابقة .

وممّا ينبغي التأكيد عليه هنا : إن هذا التفسير له صبغته التربوية والأخلاقية ، إذ إننا حاولنا أن نسوق المتأمل فيه إلى عالم التزكية والتهذيب الذي من أجله أُنزل الكتاب الكريم.

ومن هنا كانت النكات التفسيرية في بعض الموارد ، أشبه إلى الاستفادة من الآية ، بدلاً من استنطاق مفهومها المطابقي ، لئلّا يكون تفسيراً جامداً للآيات ، وبذلك اقتربنا من أصل الهدف من هذا العمل : ألا وهو تحويل (المعلوم) المستفاد من الآية الى (المعمول) به في ساحة الحياة ، وهذا المعنى ممكن بمجرد الانتهاء من التأمل ، من الفقرة التفسيرية في ذيل كل آية في هذا الكتاب .

لقد بدأنا العمل ـ بفضل الله تعالى ـ مبتدئين بالجزء الأخير من القران الكريم ، نظراً إلى أنس مجمل التالين لكتاب الله تعالى منذ صغرهم بسور هذا الجزء ، أضف إلى كثرة التوفيق في تلاوتها ضمن الصلاة وغيرها ، ممّا يتطلب من تالي القرآن أن يكون ملمّا إجمالا بمعانيها.

ومن هنا قدّمنا العمل فيها تعجيلاً للخير ، على أمل أن نكمل التفسير ـ بمنه وكرمه ـ فيما بقي من الأيام والليالي المتاحة في باقي العمر .

وختاماً ، أريد أن أتوجه بالشكر للمولى القدير الذي مَنّ علينا بهذا

التوفيق ، لعلمي بأن الساعات التي تُصرف في تلاوة كتابه والتدبر فيه ، من أحلى ساعات العمر ، لأنه تدبّر في كلام مَن نتودد إليه ، ومن أحبّ حبيباً أحب الحديث معه ، وفهم ما يقوله ، واستيعاب ما يريده .

ولا ريب أن خير كتاب يمكن أن (يصنّف ، أو يُؤلّف ، أو يُقرأ ، أو يُدرس ، أو يُتأمل فيه) هو ما كان حول أفضل كتابٍ في الوجود ، ألا وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي المصطفى محمد ﷺ وآله الطاهرين.

حرره حبيب الكاظمي
في شهر ذي القعدة الحرام
من سنة ١٤٣٥ هجرية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ (٥)﴾.

١ ـ إن وصف النبأ بالعظمة والمُفسَّر ـ على رأي ـ بيوم القيامة، يدل على مكانة الاعتقاد بالقيامة في المسيرة التكاملية للعبد، فإنه من موجبات مراقبة العبد لسلوكه، إذ إن الخوف من مقام الربوبية لا يتسنّى لكل أحد. وقد ورد وصف العظمة ليوم القيامة في آية أُخرى ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] كوصف نبأ القيامة أيضا بالعظمة في قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾[2].

٢ ـ إن الكفار ـ رغم اجتماعهم على الكفر ـ إلا أنهم مختلفون فيما بينهم حتى في عقائدهم الباطلة، وهذا هو المستفاد من كلمة ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ لأن منكري المعاد بمعناه القرآني الصحيح على طوائف:

- فبين منكر للمعاد الجسمي ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيم﴾

(١) سورة المطففين: الآية ٤-٥.

(٢) سورة ص: الآية ٦٧.

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[١].

- وبين مستبعد له ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[٢].

- وبين مشكك فيه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾[٣].

والتعبير بـ﴿يَتَساءَلُونَ﴾ يدل على أن الأمر كان متداولا فيما بينهم، ولو على نحو الاستهزاء بالبعث.

٣ ـ إن السؤال إذا كان ببراءة واستفهام حقيقيين، فهناك مجال للإجابة الجادة، كالسؤال عن حقيقة الروح[٤] والأنفال[٥] والخمر والميسر[٦]، بخلاف ما لو كان السؤال بتعنّت واستهزاء؛ فعندئذ يكون الجواب مقترنا بنوع من التهديد المستفاد من قوله تعالى ﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ أضف إلى ما يُشعره تساؤل الحق عزَّ وجلَّ عن سؤال الكافرين من التحقير لهم ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴾ لأنه ما كان ينبغي أن يصدر منهم سؤال عما هو معلوم الجواب.

٤ ـ لا بُد من مواجهة التحديات العقائدية بقوة وثبات من دون مجاملة، فالآية تكرر عبارة ﴿كَلاَّ﴾ للنفي الصريح لدعوى القوم الكافرين،

---

(١) سورة يس: الآية ٧٩.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٣٦.

(٣) سورة النمل: الآية ٦٦.

(٤) ﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٥) ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ...﴾ سورة الأنفال: الآية ١.

(٦) ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ سورة البقرة: الآية ٢١٩.

فوقع الردع في الآية الكريمة عن أصل سؤالهم، وكأنه دون مستوى الخوض فيه ليجاب عليه، إذ إن الذي يرى آثار القدرة الإلهية في هذه النشأة، كيف يُنكر قدرته تعالى على النشأة الأُخرى؟! ومن يرى حكمة الصانع في دار الفناء، كيف ينكر حكمته المستلزمة للحساب والجزاء في دار البقاء؟!.

٥ ـ إن الفرق بين مآل المؤمنين بالمعاد وبين المشككين فيه، هو أن الطائفة الأولى تعيش حقيقة العلم بما سيتحقق خارجا من المعاد، بما يصفهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**فهم والجنة كمن قد رآها**»(١) بخلاف الكفار الذين ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ ولكن بعد فوات الأوان حيث يُكشف عنهم الغطاء، فيرون حقائق الأمور من دون أن تنفعهم هذه المكاشفة شيئا.

٦ ـ إن التعبير بـ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ المُشعِر بالمستقبل القريب، يدل على أننا متوهمون لرؤيتنا للقيامة وكأنها حدث مستقبلي بعيد، في حال أنها قريبة منا ولكن لا نشعر بها؛ إذ لا يفصلنا عنها إلا الموت، فبمجرد موت ابن آدم تقوم قيامته، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**مَن مات فقد قامت قيامته**»(٢) وقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة في آية أُخرى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾(٣) بناء على أن المراد بالقرب هنا هو القرب

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص٧.

(٣) سورة المعارج: الآية ٦.٧.

الزماني ـ لتحقق الوقوع ـ لا القرب الإمكاني .

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ .

٧ ـ إن الإنسان المؤمن يرى الأشياء من خلال انتسابها إلى مسبب الأسباب ، ولهذا يلتفت إلى الجاعل مباشرة عند النظر إلى ما جعله ، متذكرا قول ربه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ عند نظره إلى الأرض ﴿مِهاداً﴾ والجبال ﴿أَوْتاداً﴾ فعين البصير ليست على الفعل ، ولا على ما يتم به الفعل فحسب ، وإنما على الفاعل الذي يُعدّ مبدأ للفيض، لا على ما يراه من الآثار ، إذ إن «**التردد في الآثار يوجب بعد المزار**»[1] كما في دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام .

٨ ـ إن ذكر الآيات الكونية بعد ذكر المعاد ، قد يكون إشعارا بأن من أدلة القيامة هو ما نراه من قدرة الخالق المتجلية في النشأة الأولى ، فمن له هذه القدرة في البدء ، كيف لا تكون له القدرة في الختم؟!

ولذلك ، فإن الآيات تستعمل ضمير الفاعل المتكلم متعددا ﴿بَنَيْنا﴾ و﴿جَعَلْنا﴾ و﴿أَنْزَلْنا﴾ و﴿لِنُخْرِجَ﴾ للتذكير المستمر بالقوة الفاعلة وراء

---

(١) بحار الأنوار : ج ٩٥ ص٢٢٥.

كل مظاهر الحركة في هذا الوجود ، والتي يسندها المتكلم إلى نفسه في هذه الآيات الجامعة لشقّي النفي والإثبات .

٩ ـ بعد أن نفت الآيات الأولى تلك الأفكار الباطلة ، لزم إثبات العقائد الحقة بالاستدلال والبرهان ؛ لتجتمع قوة النفي والإثبات معا ، فكما أن قانون التخلية ثم التجلية سارٍ في عالم التزكية الروحية ، فهو سارٍ أيضا في عالم التزكية الفكرية ، فمن دون تفريغ ذهن المخاطب من الأفكار الباطلة ، فإنه لا يتيسّر إقناعه بالأفكار الحقة ، وهذا المعنى متحقق في شهادة التوحيد أيضا .

١٠ ـ إذا انتفت اللجاجة والعناد عند المرء ، فإن النظر إلى ما حوله من العوالم المادية الثابتة كالأرض والجبال ، والطوارئ الحاليّة المتغيرة كسباتية النوم ومعاشية النهار ، ستكون من موجبات الارتباط بالمبدأ والمعاد ، إذ إن الحكمة المتجلية في جزئيات هذا الوجود لا تنقدح من داخلها كمادة صماء ، فلزم وجود قدرة حكيمة قاهرة خارجها ، هي المتصرفة في كل هذا الخلق البديع .

١١ ـ إن التعبير بمهادية الأرض ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً﴾ يذكّرنا بمهد الوليد بعد ساعة ولادته ، فهذا المهد موطن مؤقت له، لأنه سينتقل بعدها في هذه الحياة ، إلى ما هو أرحب وأرقى كالقصور الفارهة!
وعندئذ نقول : بأن هذه الأرض بكل ما عليها ـ قياسا إلى الآخرة ـ تُعد كالمهد الصغير إلى بالنسبة إلى تلك القصور ، بل إن النسبة أبعد بونا من هذا

المثال، فالذي يأنس بهذه الأرض، يكون بمثابة الوليد الذي يأنس بمهده الصغير تاركا القصر الكبير.

١٢ ـ إن الله تعالى الذي خلق الجبال وجعلها أوتادا، هو الذي سوف يُحيل هذه الجبال يوما ما إلى: كثيب مهيل[١]، وإلى عهن منفوش[٢]، وإلى هباء متناثر[٣]، وإلى قاع صفصف[٤]، كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهذا بدوره يدل على أن كل مظاهر الجمال والقوة في هذا الوجود، ستؤول يوما ما إلى الضعف والفناء، وأن الذي يبقى إنما هو وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

١٣ ـ إن سلامة الجسد مرتبطة بالترتّبيّة والتوالي بين الحركة والسكون بنحو من أنحاء الترابط، فالله تعالى هو الذي جعل النهار معاشاً بعد سباتية النوم ولباسية الليل.
وعليه، فإن الذي لا يجعل بعد حركته المعاشية في النهار سكونا متمثّلا بسبات الليل؛ فإنه بذلك يعاند قانون الخلقة، وسيصاب بالتالي بآفات هذا العناد.

١٤ ـ إن عملية النوم ثم اليقظة بعدها، شبيهة إلى حد كبير بحركة

---

(١) ﴿وَكانَتِ الجِبالُ كَثيباً مَهيلا﴾ سورة المزمل: الآية ١٤.
(٢) ﴿وَتَكُونُ الجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوش﴾ سورة القارعة: الآية ٥.
(٣) ﴿ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ سورة الفرقان: الآية ٢٣.
(٤) ﴿فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفا﴾ سورة طه: الآية ١٠٦.

الإماتة والنشور، فيتذكر العبد المراقب لنفسه حقيقة القيامة بعد كل يقظة، وهذا بدوره يوجب له التذكر لكي يتزود لذلك اليوم العصيب.

ومن هنا يربط الدعاء الوارد بعد الاستيقاظ من النوم بين اليقظة والنشر، إذ نقول فيه: «**الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور، والحمد لله الذي رد علي روحي لأحمده وأعبده**»[١].

١٥ ـ إن القدير الحكيم جعل كل شيء في هذا الوجود مسخرا لهدف بعينه وهو ما ذكرته الآيات من هذه السورة:

- فالنوم مقدمة للسبات والراحة ﴿وجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً﴾.
- والنشاط في النهار مقدمة لكسب المعاش فيه ﴿وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً﴾.
- والزوجية مقدمة للتناسل والتكاثر ﴿وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً﴾.
- والتجاذب الكوني بما فيه من أفلاك ومجرات مقدمة لاستقرار الأرض بما يصلح لسكنى النوع البشري ﴿وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً﴾.
- وإنزال المطر مقدمة لعمارة الأرض بالزراعة، والابتهاج بمظاهر زينتها ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا ونَباتاً﴾.

ومن المعلوم أنه تعالى يريد من وراء أصل الوجود هدفا آخرا، كي لا ينتهي هذا الوجود بالموت، وهو المتمثل بإيصال العباد إلى الكمال الذي خُلقوا من

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ٢٠٤.

أجله، وهذا من أدلة المعاد أيضا؛ لأن ما يجري فيه من الأحداث يُمثّل غاية الخلقة والإيجاد.

١٦ ـ إن هذه السورة بعد ذكر المعاد، تُكثر من ذكر الآيات الآفاقية، ومنها إحياء الأرض وإنبات النبات، وفي جميعها إشعار بقدرة واحدة في النشأتين، وهي القادرة على الإحياء بكل صوره، ومن هنا عبّر عن الإحياء بالإخراج ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا ونَباتاً﴾ وهو تعبير مشترك عند ذكر إخراج النبات والأموات من الأرض ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[١].

١٧ ـ إن القرآن الكريم ينسب عملية العصر إلى السُحب الماطرة ﴿مِنَ الْمُعْصِراتِ﴾ فهي تعصر نفسها لتخرج ماء ثجّاجا، ومن جهة أُخرى ينسب تعالى الأمر إلى نفسه ﴿وَأَنْزَلْنا﴾ فهو تعالى المنزل لهذا الماء كعلّة لعلل، وهكذا الأمر في كل موارد تحقق الوساطة في هذا الوجود، ومنها الإماتة:

- حيث ينسبها الله تعالى إلى نفسه تارة ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٢].
- وينسبها إلى ملك الموت تارة أُخرى ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٣].

---

(١) سورة الزلزلة: الآية ٢.

(٢) ﴿وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُم﴾ سورة النحل: الآية ٧٠.

(٣) ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ سورة السجدة: الآية ١١.

١٨ ـ لا بُد أن نتخلّق بأخلاق الله تعالى، إذ إن كل فعل من أفعاله ملحوق بحكمة بالغة، فإنزال الماء يليه إخراج الحب والنبات، حيث جاء لام التعليل لإفهام هذا المعنى ؛ كما في قوله تعالى ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ . وكذلك العبد الحكيم، حيث لا يصدر منه فعل جزافي ؛ بعد أن جعل أصل سعيه في الدنيا مقدمة للسعادة الأبدية، وشعاره في ذلك ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] .

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ .

١٩ ـ إن التعبير بـ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يُشعر بتقطّع الروابط الاجتماعية، ومنها الأبوة والبنوة، وهذا بدوره يقوي من أواصر تعلّق العبد بمولاه، الذي لا فصل بينه وبين عبده في كل النشآت، بخلاف تعلّق العبد بعبدٍ مثله

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٦٢.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾[١] وهذا من دوافع الانقطاع الاختياري إلى المولى، قبل الانقطاع القهري الذي يشترك فيه الجميع.

ومن المعلوم، أن ما ذُكر لا ينافي التواصل مع الخلق تحقيقا لمرضاة الخالق، كما هو الأمر كذلك في صلة الأرحام والمؤمنين، إذ إن هذه الصلة من شؤون المولى الذي عطف الأرحام على تقوى الله تعالى قائلاً ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[٢] .

٢٠ ـ إن المظلوم الذي يعلم بميقاتيّة القيامة، لايتبرّم كثيرا من تأخير الانتقام الإلهي له؛ لعلمه بيوم المواجهة.. كما أن الإحساس بضعف المظلوم عند من يهمّ بالظلم، لا يشجّعه على الظلم؛ لعلمه بيوم توضع فيه الموازين القسط[٣] وتفضّ فيه المنازعات، وهذا كله من بركات الالتفات إلى فصلية وميقاتية ذلك اليوم ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ ميقاتا﴾ .

٢١ ـ إننا عندما نعبّر عن موعد بأنه (ميقات) فإن هذا التعبير مُشعر بأن ثمرة كل الجهود تتجلى في ذلك الموعد الذي تتم فيه المساءلة، والعاقل الذي له يقين بتحقق ذلك الميقات، يُعدّ نفسه لموعد لقاء يخلو من عقاب وعتاب .

---

(١) سورة الممتحنة : الآية ٣.

(٢)سورة النساء: الآية ١ .

(٣) ﴿وَنَضَعُ الْمَوازينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

٢٢ ـ إن المعتقد بحقيقة الميقاتيّة، تهون عنده اللذائذ المحللة التي لا فائدة منها فضلا عن المحرمة، وذلك عندما يعلم بموعد اللقاء مع جبار السماوات والأرض.. ومن المعلوم أن العتاب على فضول النظر والقول، فيه نوع من العقاب عند مَن تتبيّن له عظمة مقام الربوبية، في تلك المواقف العظام.

٢٣ ـ إن ميقاتيّة القيامة كانت مُنذ الأزل يوم خلق الله السماوات والأرض، ولهذا كان التعبير بـ﴿كانَ﴾ فالحكيم عند البدء كان ملتفتا للخواتيم؛ لأنه من دون هذه الخاتمة تنتفي فلسفة الوجود والإيجاد، ويتساوى المطيع والعاصي في الجزاء.

٢٤ ـ لا منافاة بين التعبير بـ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ وبين التعبير بـ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[1] فمن الممكن القول:

- إنها تعابير لمواقيت مختلفة في عرصات القيامة، فيتحقق الخروج على نحو الفوجيّة، وأما الحساب فهو على نحو الفرديّة.
- إن ظاهر الخروج وإن كان على نحو الجماعة ـ المفهومة من الفوجيّة ـ إلا أن باطن الخروج يكون على نحو الفردية؛ لأن كل فرد مشغول بنفسه ذاهل عن غيره، حتى المرضعة تذهل عن وليدها.

---

(١) سورة مريم: الآية ٩٥.

وليُعلم أن ذلك كله ـ أي الفوجية والفردية ـ محكومان بحشر أهلِهما تحت لواء واحد، بحسب ما كانوا عليه في دار الدنيا، وهو ما يُفهم من قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[١] .

٢٥ ـ إن طبيعة السماء قائمة على أنها مغلقة محكمة الجوانب لا فتق فيها، وطبيعة الجبال قائمة على أنها ثابتة لكونها أوتادا للأرض.. ولكن في القيامة هناك تغيير في جوهر الأشياء: فالباب المغلق يُفتح ﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ﴾ والثابت يسير ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ﴾ وكذلك الأمر في موازين الأعمال فإنها تنقلب أيضا: فما كان يبدو أنه الحق يصير باطلا وكذا العكس، ومن هنا سميت ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَة﴾[٢].

٢٦ ـ إن كل صور المتاع في الحياة الدنيا بمثابة السراب العابر، فظاهره المغري ليست وراءه حقيقة ثابتة، ولكن هذا المعنى المجازي في الدنيا سوف يتجلّى يوم القيامة على شكل حقيقة واضحة: فالجبال التي هي أشد ظهوراً وأعلى المخلوقات على وجه الأرض شموخا، تتحول إلى ما يقول عنه القرآن الكريم ﴿فَكانَتْ سَراباً﴾ كناية عن الزوال حقيقة، لا بحسب ما يتراءى بالنظر.

٢٧ ـ إن التعبير بالمرصاد في قوله تعالى ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً﴾

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧١.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٣.

يوحي بأن هناك مَن يترصد بالسائر ، وإن لم يكن يشعر به ، كما هي عادة المتربصين.

وعليه ، فإن مَن يعيش في هذه الدنيا وهو يعلم بوجود جهنم وكأنها متربصة به ، أو أنها محل لـِمن يَتربص به ـ على الوجهين في تفسير المرصاد ـ فإنه سيعيش خوفا يردعه عن الحرام .

٢٨ ـ إن جهنم بمثابة الطريق الذي لا بُد من اجتيازه كالمرور على الطريق الذي فيه رصد من أهله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[١] .. لكن الكلام فيمن يجتازها بسلام وهم المؤمنون ، أو مَن يسقط بأيدي مَن ترصدوا له وهم الطاغون.

٢٩ ـ إن من صفات أهل النار هو الطغيان ، وهو الخروج عن حد الاعتدال.. وعليه ، فإن كل طغيان مخرج للعبد عن حد الاعتدال في كل شيء ـ وإن كان قليلا ـ سيكون مقدمة لتراكم الخطايا إلى درجة تحوّل أحدهم إلى طاغوت ، فيكون مظهرا للفساد والإفساد .

٣٠ ـ إن جهنم مآب للطاغين ﴿لِلطَّاغِينَ مَآباً﴾ وكأنها هي المرجع الطبيعي لهم ، إذ كانوا على أنس بها ـ وإن لم يشعروا بذلك ـ في دار الدنيا ، لأنهم آبوا ورجعوا إليها في الآخرة ، فطبيعتهم الطاغية لا تنسجم إلا مع المكوث في دار الأوبة هذه.

---

(١) سورة مريم : الآية ٧١.

ومن هنا أيضا يُحل إشكال خلودهم في النار، لأن طبيعتهم الثابتة مستلزمة لمثل هذا العذاب الثابت، فالجزاء في القيامة مطابق لفعل العبد ﴿جَزاءً وِفاقاً﴾ فلا معنى لتوهم أن العذاب مبالغ فيه، بعدما علِمنا السنخية الأبدية بين النار وأهلها؛ فالمُجازي هو العدل المطلق وأحكم الحكماء!

٣١ ـ إن البعض في النار لا يُحكم عليه بالخلود، كالفسقة من غير الكافرين بل ﴿لابِثِينَ فيها أَحْقاباً﴾ ولكن اللبث في النار أحقابا من الزمن أيضا من موجبات إيجاد الهلع في النفس، وذلك عندما يتصور صاحبها المكث في النار فترة قد تكون طويلة غير معينة، كما تفيده كلمة (الأحقاب) وهو جزاء لم يكن ليتوقعه العبد في دار الدنيا.

٣٢ ـ إن جهنم مظهر للعذاب المطبق، إذ ليس فيها شراب ولا ما في حكم الشراب، أو ظل يُستظل به ليريحهم ولو قليلا، فمن يطلب شيئا من الاستبراد فإن جزاءه مستفاد من قوله تعالى ﴿لا يَذُوقُونَ فيها بَرْداً وَلا شَراباً﴾ بل إنه ليس هناك ما يروّح عن أهل جهنم ولو على نحو التذوق أو التّماس العابر؛ لمجيء البرد والشراب نكرة في سياق النفي.

والأعظم من ذلك أنهم يُسقون ـ بدلا منها ـ ذلك الحميم، والذي يصب عليهم أيضاً ﴿فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾[1].

٣٣ ـ إن التكذيب بالبعث من موجبات الطغيان لإنكار الجزاء،

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٥٤.

الموجب لكبح جماح العبد، وفي حكم التكذيب ما ذكرته الآية من أنهم ﴿لا يَرْجُونَ حِساباً﴾.. فالذي لا يتوقع الجزاء فهو كالمنكر له في مقام العمل، وإن كان معتقدا في مقام النظر.

٣٤ ـ إن من موجبات استقامة العبد في الحياة هي المراقبة المتصلة، وهذه المراقبة لها رافدان:

الأول: هو تذكر يوم الجزاء ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

والثاني: هو اليقين بإحصاء الله تعالى لكل صغيرة وكبيرة، وذلك في كتاب يُحصي ذلك كله ﴿كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً﴾.

وبكلمة واحدة نقول: إن منشأ المراقبة هو تذكّر المبدأ والمعاد، تذكّرا متغلغلا في شغاف النفس.

٣٥ ـ إن العتاب إذا صدر من صاحب الحق مباشرة، كان أدعى للتألم الباطني عند المواجهة في المحاكمة، وخاصة اذا اجتمعت القدرة مع الحق، فالآية فيها التفات من الغَيبة إلى الخطاب ﴿فَذُوقُواْ﴾ وبذلك يكون أبلغ في التقريع والتوبيخ؛ لأنه صادر من خالق جهنم ومسجّرها.

٣٦ ـ إن الطغاة في دار الدنيا كانوا يزدادون نفورا من دعاتهم عند تكرر الدعوة ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾[1] فصار الجزاء في جهنم مطابقا لحالتهم هذه، فهم بعد الاستغاثة لا يزدادون إلا عذابا ﴿فَذُوقُوا فَلَن

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤١.

نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ فكما أنه لا أثر لدعوة الأنبياء لهم إلا زيادة النفور، فكذلك لا أثر لدعائهم في النار إلا زيادة العذاب!

وقد ورد أن هذه الآية من أشدّ الآيات التي تصف حالة أهل النار، فقد روي عن النّبي ﷺ أنه قال: «**هذه الآية أشدّ ما في القرآن على أهل النّار**»[1] .

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ .

٣٧ ـ إن طريقة القرآن الكريم قائمة على التنويع بين الترغيب والترهيب، فبعد ذِكر أنواع العذاب الأليم تنتقل الآية لذكر أنواع النعيم المقيم.. وهذا درس عملي للدعاة ـ دائما ـ في أنه لا بُد من الجمع بين الطريقتين لإثارة الحوافز الباطنية، فغلبة الترهيب قد توجب اليأس، كما أن غلبة الترغيب قد توجب التقاعس والأمن من مكر الله تعالى.

٣٨ ـ كما أن الحدائق تُمثل النعيم المادي في الجنة، فكذلك السمو عن اللغو والكذب فيها يمثل النعيم المعنوي.. وعليه، فإن الحياة الدنيوية

---

(١) تفسير الكشاف: ج٤ ص٦٩٠.

الخالية من اللغو والكذب ، واجدة لنوع من أنواع نعيم أهل الجنة ، وهذا لا يكون إلا في حياة الصالحين والصالحات ضمن أُسرة إيمانية .

٣٩ ـ إن طبيعة التنعم في الدنيا توجب الاسترسال في الحديث بين أهلها المترفين بما يجرّهم إلى اللغو ، ولكن أهل الجنة ـ وهم في أعلى درجات النعيم ـ ملتزمون بمراقبة المولى المانعة لهم من الاسترسال في اللغو فهم ﴿لا يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً﴾ ومن تكذيب بعضهم بعضا ﴿وَلا كِذَّاباً﴾ إذ لا تنازع بينهم ، حيث يقول تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[1] .
ومن المعلوم أن كل صور اللغو والتكذيب مرتفعة في الجنة ، لمجيء اللغو نكرة في سياق النفي المفيد للعموم .

٤٠ ـ إن اختيار عدم التكذيب كنعيم من نِعم الجنة ﴿وَلا كِذَّاباً﴾ قد يكون من باب التعويض للمؤمنين الذين ابتلوا في دار الدنيا بتكذيب الكافرين ، ومن المعلوم أن هذا الأذى إنما أصابهم في سبيل الله تعالى ، فكأنّ الآية تشير إلى أن هذا الأذى البليغ مرتفع عنهم في جنة الخلد، بعدما تعرضوا له في دار الدنيا ، فكان هذا التعويض نوعاً من الثواب المطابق للعمل ، حيث تقتضيه حكمة المُثيب .

٤١ ـ إن الجزاء يوم القيامة جامع بين كونه بحساب أولا ، وكونه بعطاء ثانيا ، ولهذا جمعتها الآية بقوله ﴿عَطاءً حِساباً﴾ فليس الأمر خارج

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٤٣.

دائرة الحساب الدقيق الذي هو سِمة الوجود، وليس خارج دائرة العطاء التفضلي الذي هو سِمة الجود، وإلا فأين سنوات الطاعة المحدودة وأين الجزاء الخالد؟!

٤٢ ـ إن حسابية الجزاء المستندة إلى الرب القدير، تستلزم من العبد الدأب في طاعته، للتلازم بين زيادة الطاعة وزيادة الأجر، إلى ما لا حد له ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد﴾[1].

وعليه، فلا ينبغي التواني والركون إلى مستوى من الطاعة اتكالا على كرم المولى؛ لأن كرمه أيضا إنما هو بحساب، ومتناسب طردا مع عمل العبد.

٤٣ ـ إننا لو تأملنا في جزاء المؤمنين والكافرين لرأينا تقابلا بين طرفي نقيض، وهو يعكس مآل كل طائفة في ذلك اليوم:

- فما يشربه المؤمنون كان ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾[2] وللكافرين كان ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾.
- وعاقبة المؤمنين كانت ﴿مَفَازًا﴾ بينما مآب الكافرين كان ﴿مِرْصَادًا﴾
- وجزاء المؤمنين كان ﴿عَطَاء﴾ دالا على الفضل والتكرم، وجزاء الكافرين كان ﴿وِفَاقًا﴾ مطابقا لجريرتهم في حياتهم الدنيا.

---

(١) سورة ق: الآية ٣٥.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٢١.

٤٤ ـ إن الله تعالى نسب النبي ﷺ إلى نفسه في مقام الجزاء قائلا ﴿جَزاءً مِنْ رَبِّكَ﴾ ثم عطف على ذلك السماوات والأرض قائلا ﴿رَبِّ السَّماواتِ والْأَرْضِ﴾ وكأن الوجود كله في كفة وحبيبه المصطفى ﷺ في كفة أُخرى، وهذا لازمة كون الكون مخلوق لأجله ﷺ والملحقين به من آله الكرام عليهم السلام.

٤٥ ـ إن الاصطفاف عادة سِمة المنضبطين في الأمور، فالملائكة الذين لا يسبقونه بالقول منتظمون في أمورهم، حيث يقومون يوم القيامة على نحو الاصطفاف، ولا يتكلمون إلا عن إذن ﴿صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ﴾ والأصل في جميع الخلائق يوم الحشر هو السكوت، بينما الكلام يحتاج إلى مَن يَأذن به.

٤٦ ـ إن محضر الربوبية هو محضر الأدب والالتفات، فمن لا يقول الصواب لا يؤذن له بالكلام، لأنه ساقط من عين مولاه!.. وهذا المعنى وإن كان ظرف تحققه هو الآخرة ـ كما في الآية ـ ولكن المؤمن ملتفت لهذه القاعدة في الحياة الدنيا، فإذا تكلم بغير الصواب سقط من عين مولاه، وهو أصعب ما يكون على العبد المراقب لربه.

٤٧ ـ إن هذه الآية دالة على أن الشفاعة يوم القيامة إنما تتحقق بإذن الله تعالى، فهو نوع من الخطاب الصواب الذي يؤذن في صدوره من الشفيع، فالأمر يعود إلى الحكمة الإلهية القاضية بأن لا يتحقق في جانب القدس إلا ما كان حقا وصوابا.. فقد روي أنّه حينما سُئل الإمام

الصادق عليه السلام عن هذه الآية، قال: «**نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صواباً**»[١].

٤٨ ـ إن غاية فخر العبد أن يؤذن له بالكلام مع مولاه في الدنيا والآخرة، وهذا متاح لكل من صار أهلا لذلك، والطريق إلى ذلك:

- أن يكون على صواب أولا ﴿وَقالَ صَواباً﴾ ومن المعلوم أن من يريد أن يكون على صواب لا بُد له من معرفة الصواب أولا، ومن هنا نطلب الهداية منه ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيم﴾[٢].
- أن يهيئ نفسه للدخول في دائرة الجذب الإلهي، ليكون مأذونا له في الخطاب ثانيا ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ﴾ ولا يخفى ما في اختيار كلمة (الرحمن) من لطف، فكأنها تشير إلى أن من موجبات هذه العناية، امتلاك العبد لهذه الصفة الإلهية أيضا.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾﴾.

٤٩ ـ إن سلوك الطريق إلى الله تعالى لا يكون بالقهر والجبر على طيّه، وإلا انتفت المجاهدة المطلوبة في القرب إليه، فقد جعل الله تعالى هداية

---

(١) الكافي: ج ١ ص ٤٣٥.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٦.

السبيل منوطة بالمجاهدة فيه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[(١)] .

وعليه، فإن من شاء العودة والمآب إلى الله تعالى، فلا بُد أن يكون مريدا ومشيئا لذلك أولا ﴿فَمَن شَاء﴾ وعازما على اتخاذ سبيل ثابت إليه ثانيا ﴿اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً﴾ .

٥٠ ـ إن المنذر بالأصالة هو رب العالمين ﴿إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيبا﴾ ويليه الرسل ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[(٢)] ويليهم العلماء ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾[(٣)].. ومن هنا يُعلم كمال الفخر للعلماء وعلو درجتهم، إذ إنهم صاروا امتدادا للإرادة الإلهية من جهة، ومتأسين بفعل الأنبياء من جهة أُخرى .

٥١ ـ إن الإنذار أقرب إلى تحريك النفوس الغافلة من البشارة، ومن هنا ذكرت الآية الإنذار فحسب ﴿إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً﴾ ولم تذكر البشارة عند ذكر ﴿الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ فإن السورة مختومة بذكر الكافرين .

٥٢ ـ إن الآخرة يراها القوم وكأنها مستقبل بعيد، والحال أنه لا يفصلنا عن ذلك سوى الموت الذي نحن معرّضون له في كل آن.. ومن هنا عبّرت الآية عن العذاب بأنه إنذار قريب ﴿إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً﴾ ففيها بيان للقرب بحسب الواقع، بينما في آية أُخرى ذكرت القرب بحسب ما

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٩.

(٢) سورة الإنسان : الآية ١٦٥.

(٣) سورة التوبة : الآية ١٢٢.

يراه المولى الحكيم ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ وهذا الإنذار السابق إنما هو حجة أيضا على الكفار يوم القيامة .

٥٣ ـ إن الأعمال تتجسم يوم القيامة ، وقد عبّرت الآيات عن رؤية العمل في عدّة موارد ، ومنها هذه الآية ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ والحال ، أنه ينبغي للعبد أن ينظر إلى عمله في الدنيا بطريق أولى ، وذلك لقرب عهده بالعمل من جهة ، وإمكان التدارك من جهة أُخرى ، ولكن المشكلة في انعدام البصيرة الباطنية التي تتكشف بعد فوات الأوان .

٥٤ ـ إن تمني مَن كان مرشحا للخلافة الإلهية أن يكون ترابا ؛ كاشف عن شدة الندامة التي يعيشها الكافر يوم القيامة ﴿وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَني كُنْتُ تُراباً﴾ وهنا يمكن القول بأن التراب خير منه ؛ لأنه يستلم البذرة في باطنه ليحولها إلى شجرة باسقة ، وهؤلاء قد أودع المولى في بواطنهم بذور الخير ، إلا أنهم لم يستنبتوها في أعماق نفوسهم ، بل جعلوها مغطاة ببواطنهم الممسوخة ، فخابوا بهذا الإخفاء الذي أشار إليه قوله تعالى ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1] وهذا من وجوه التناسب بين لفظة الكفر المأخوذة من التغطية[2] ، وبين مبدأ اشتقاقه .

---

(١) سورة الشمس : الآية ١٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة : ج٥ ص١٩١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾ .

١ ـ إن هذه السورة مفتتحة بالعديد من الأقسام بالملائكة ، فمنها :

- ﴿النَّازِعاتِ﴾ وهي التي تنزع أرواح الكفار ؛ شديدة في نزعها من أبدانها .

- ﴿النَّاشِطاتِ﴾ التي تنزع أرواح المؤمنين ؛ رفيقة بهم عند استلالها من أجسادهم .

- ﴿السَّابِحاتِ﴾ المسرعة في تنفيذ الأوامر الإلهية ؛ كقبض أرواح المؤمنين ، وإيصالها إلى مقرها في مقعد الصدق عند المليك المقتدر بسرعة .

- ﴿فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً﴾ المتقدمة في سيرها ، سواء لقبض

الأرواح، أو لتبليغ خطاب الوحي للأنبياء.

- ﴿الْمُدَبِّرَاتِ﴾ التي تدبّر شؤون الوجود، فهي الواسطة بين الأوامر الإلهية الصادرة ومقدرات الكائنات المنجزة.

وهذه الأقسام بدورها تدل على تنوع عمل الملائكة تبعا لتعدد مراتب عبوديتها، ولا يخفى أن ما تدبّره الملائكة هو من الأمور المهمة، حيث جاء الأمر بصيغة النكرة ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ لإفهام هذه الأهمية.

٢ ـ إن ساعة النزع والموت لمن الساعات المهمة في حياة البشر، ومن هنا استحق أن ينوّع الله تعالى بيان عمل الملائكة، بحسب حالات نزع الكافر وغيره، وطريقة إيصال الأرواح إلى مكانها اللائق بها.

هذا كله إذا كانت الآيات ناظرة إلى تصرفات الملائكة.. وهناك ما يدل على أن الآيات ناظرة إلى حالات النجوم بحسب حركتها في السماء[1].. وهناك ما يدل على أنها ناظرة إلى حالات المجاهدين في ميادين القتال؛ وهذا يؤيد ما قيل عن القرآن الكريم بأنه حمّال ذو وجوه.

٣ ـ إن نزع الأرواح من الأجساد متناسب مع شدة ترسخها في عالم الشهوات، فكما يصعب نزع السهم من الجسد لحيلولة نصالها الصغيرة من الخروج، فكذلك الأمر في أرواح الكافرين، فإن الملائكة تبالغ في نزع تلك الأرواح كالقسي تنزع بالسهم؛ أي تُمد بجذب وترها إغراقا في المد، وهذا

---

(١) التبيان: ج١٠ ص٢٥١، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج١٠ص٦٥١.

معنىً قيل في تفسير ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ .

٤ ـ إن عظمة الملائكة تتجلى في أنها مدبرة للأمر ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ أضف إلى القَسَم بها في سور عديدة، مثل: سورة الصافات وسورة المرسلات؛ فهي وسائط التبليغ، والحال بأن الله تعالى ينسب هذا الأمر الخطير إلى نفسه قائلا ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾[(١)] بفارق أن الملائكة وكيلة في التدبير، والله تعالى هو الأصيل في كل شؤونه.

فهل من الغريب بعدها أن ننسب ذلك إلى كبار أوليائه الذين هم وسائطٌ في الفيض، وفي رتبة مخدومي الملائكة؟!

٥ ـ إن انشغال الملائكة بتدبير أمور الوجود الكبرى بأمر من الله تعالى، لا ينافي استغراقها في تسبيح الله عز وجل بمقتضى قوله تعالى ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[(٢)] فالمطلوب من الإنسان كخليفة لله تعالى في الأرض ـ الذي يضاهي الملائكة في رتبتهم ـ أن يصل إلى هذه الدرجة من الجمع بين الانشغال بالخلق، والاستغراق بالخالق!

والطريق إلى ذلك قد تشير إليه الآية؛ وهو إحساس الإنسان بمقام العندية المستفاد من كلمة ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾[(٣)] وكأن هذا هو مفتاح الوصول إلى الذكر

---

(١) سورة يونس: الآية ٣.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٠-١٩.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٩.

المستغرق.

٦ ـ إن انتساب حوادث الوجود كالإماتة والرازقية وغيرها إلى أسباب متعددة ـ بعد انتسابها إلى الله تعالى ـ إنما هي كانتساب الكتابة إلى القلم واليد في طول الانتساب إلى الإنسان لا في عرضه، وحينئذٍ لا غرابة في انتساب أمور الوجود إلى أسباب متعددة، كانتساب الموت إلى ملك الموت[1] أيضا بعد الانتساب إلى الله تعالى.

وبذلك تبقى عظمة الربوبية بحالها، بملاحظة الطولية هذه في كل مواردها.

٧ ـ إن من خصوصيات القيامة أن فيها صيحتين عظيمتين توجبان الاضطراب، فعُبّر عنهما بـ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ التي توجب الاضطراب العظيم و﴿الرَّادِفَةُ﴾ وهي التالية لها.. وقد استعمل القرآن نفس مادة الاشتقاق بالنسبة للمنافقين في المدينة قائلا ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾[2] فكان حديث هؤلاء في نشر الأراجيف، بمثابة الزلزال المُدمر لاطمئنان المجتمع.

٨ ـ إن حالات الكفار المنكرين للبعث في عرصات القيامة، تشبه حالات قلوب المؤمنين في الدنيا في أنها:

- ﴿واجِفَةٌ﴾ أي مضطربة من خوف الله تعالى، كوجل قلوب

(١) ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ سورة السجدة: الآية ١١.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٠.

المؤمنين .

- ﴿أَبْصارُها خاشِعَةٌ﴾ لخشوع قلوبهم، وهي من أجلِّ صفات المؤمنين في الدنيا!

والحال أنه بجانب هذه الصفات المشتركة في الآخرة، هناك صفة تخص المؤمنين في الدنيا وهي أنهم ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] فالكمال كل الكمال أن تكون صفات القلوب في الآخرة، متحققة في الحياة الدنيا وهي دار التكامل والقرب .

٩ ـ إن أرض القيامة بعد النفخة الثانية تتحول إلى ما يصفه القرآن الكريم ﴿فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي مستوية خالية من النبات، لذا ينبغي للإنسان ـ عندما ينظر إلى مباهج الحياة الدنيا ـ أن يتذكر ذلك اليوم الذي تزول فيه جميع معالم الأرض، ويبقى معلم واحد يتمثل في كل شيء كان منتسبا إلى الله تعالى، إذ إن الباقي هو وجهه الكريم، ويلحق به كل ما انتسب إليه .

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ١٣ .

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٣﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾﴾.

١٠ ـ إن من كان موردا للعناية الإلهية ـ التي بها صار منادىً لمولاه ـ هو الأقدر على مواجهة طغاة الفراعنة، فالأمر يحتاج إلى قوة في التسلط على باطن المقبلين تارة، وعلى ظاهر المعرضين أي قوة عددهم وعدتهم تارة أُخرى؛ وكلاهما لا يتسنى إلا بمدد من عالم الغيب.. وقد أمدّ الله تعالى موسى ﷺ بالقوّتين على ما بينه من قصصه في القرآن الكريم.

١١ ـ إن الحديث مع جانب القدس الإلهي لا يكون إلا في أجواء القدس والطهارة، ولهذا اختار الله تعالى الوادي المقدس للحديث مع كليمه المقدس ﷺ وأمر خليله ﷺ أن يطهّر بيته للطائفين ﴿طَهِّرَا﴾[1] ومنع المشركين أن يعمروا مساجد الله تعالى ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا﴾[2] وأمرنا بأخذ الزينة عند كل مسجد ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[3].
ومن هنا أمكن أن يقال: إن مَن يريد أن يكون بيته محلا لمناجاة المولى، فلا بُد أن يكون طاهرا (ظاهراً) من الخبث، وطاهرا (باطناً) من حدث المعاصي والذنوب.

١٢ ـ إن مَن يريد القضاء على الفساد الاجتماعي، لا بُد وأن يعالجه

---

(١) ﴿أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ سورة البقرة: الآية ١٢٥.
(٢) ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ﴾ سورة التوبة: الآية ١٧.
(٣) ﴿يا بَني آدَمَ خُذُوا زينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ سورة الأعراف: الآية ٣١.

بالقضاء على مناشئه وعلى رأس تلك المناشيء هو سلوك حكام الجور؛ فالناس على دين ملوكهم[1] ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾[2].

ومن هنا، فإن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بمقارعة فرعون في أول خطوة من خطواته الإصلاحية ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

١٣ ـ إن طغيان المخاطب لا يمنع أبدا من القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك:

- لإمكان تحقق التأثير عليه ولو بعد حين، كانقلاب كبار العصاة عما كانوا عليه كسحرة فرعون.
- من أجل إتمام الحجة عليه فتكون العقوبة أشد، والانتقام أوجه!

١٤ ـ إن في الآيات الدالة على هلاك فرعون إشعارا بالقدرة الإلهية القابضة على مُلك الجبابرة، وهذا بدوره يُعد سلوة للمؤمنين عندما يبتلون بطواغيت عصورهم ممّن هم أقل سطوة من الفراعنة!.. وفيها أيضا إثارة للرعب في قلوب الظالمين عندما يعلمون دقة مكر الله تعالى، إذا أراد المكر بقوم كافرين.

١٥ ـ إن القرآن يعلّمنا الرفق والموعظة الحسنة في دعوة العباد إلى الله

---

(١) علل الشرائع: ج١ ص١٤.
(٢) سورة النمل: الآية ٣٤.

تعالى:

- فهذا فرعون وهو من أقسى خلَق الله تعالى، مدعو إلى التزكية بنحو التلطف في السؤال ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾.
- وبالقول اللين ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا﴾[1] مع مَن كان يدّعي الربوبية العليا، ومَن كان يذبح الرضع من الأبناء.
- وهذا موسى عليه السلام نسب الرب إلى فرعون قائلا ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ رغم أنه لم يعترف بإله موسى عليه السلام.

١٦ ـ إن المطلوب من العبد إحداث تغيير في نفسه بمجاهدة من عنده، وإلا فإن الله تعالى قادر على إحداث هذا التغيير من دون مجاهدة من عبده، كما يُحدث كل تغيير في عالم الوجود.. ولهذا نرى موسى عليه السلام يطلب من فرعون أن يتزكى بنفسه ﴿هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى﴾ ولم يقل: لأزكيك مثلا!

١٧ ـ إن عبارة التزكية متكررة في دعوات الأنبياء عليهم السلام فهي إن كانت:

- بمعنى النمو؛ دلت على التكامل الإنساني ونموّه المتصل، والذي يكون من خلال اتّباع رسالة الأنبياء.
- بمعنى الطهارة والتنزه؛ دلت على أن التخلص من شوائب

---

(١) سورة طه: الآية ٤٤.

النفس البشرية أيضا يكون من خلال ذلك .

١٨ ـ لا بُد في مواجهة البعيدين عن طريق الهدى ، من ذِكر ما يحببهم إلى الطريق وينسجم مع فطرتهم ؛ بدلا من طلب التعبد بما يثقل عليهم!.. ومن هنا لم يدعُ موسى عليه السلام فرعون للتعبد بأحكام شريعته ، وإنما طلب منه التزكية التي لا يختلف عليها أحد ، ممن له فطرة غير ممسوخة ، وهي مطلوبة حتى لمن لم يتديّن بدين أصلاً .

١٩ ـ إن رسالة الأنبياء متمثلة في هداية مَن يمكن هدايته تارة ، وبمواجهة مَن يستنكف عن قبول الهداية تارة أُخرى ، وهذا ما كان متجليا في حياة إبراهيم وموسى عليهما السلام وهو معنى عدم انفكاك الدين عن سياسة العباد.

وآيات القرآن الكريم مليئة بالشواهد الدالة على هذين الأمرين ، أعني إرسال الرسل لهداية الخلق كافة ﴿وما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشيراً ونَذير﴾[1] ومقاتلة مَن يقف بوجه الهدى الإلهي كافة أيضا ﴿قاتِلُوا الْمُشْرِكينَ كَافَّة كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّة﴾[2] .

٢٠ ـ إن هناك ارتباطاً ـ في منطق القرآن الكريم ـ بين الهداية ﴿أَهْدِيَك﴾ والتزكية ﴿تَزَكَّى﴾ والخشية ﴿فتَخْشى﴾ إذ ليس الإيمان

---

(١) سورة سبأ : الآية ٢٨.

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٦.

منحصرا بالعبادات الجوارحية، التي قد لا تلازم هذه الأمور.

ومن هنا أيضا يُعلم أن مَن يريد هداية الخلق، لا بُد وأن يكون واصلا إلى هذه المقامات و واجدا لها، وإلا فإن فاقد الخشية والتزكية لا يؤثر في غيره!

٢١ ـ إن الله تعالى طلب من موسى (عليه السلام) أن يرفع من سقف الطلب لفرعون الذي ادّعى الربوبية، فجعل المطلوب منه بعض الأمور التي قد لا يرى البعض أنه مكلف بها، من قبيل التزكية والخشية.. فلِمَ نرَ البعض يُعفي نفسه من هذه المقامات، وهو على درجة مقبولة من الإيمان؟

٢٢ ـ إنه من الممكن القول بأن مراحل التأثر بمواعظ الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام) تتمثل بالتعلم أولا ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١] ثم الخشية ثانيا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢] وثمرتها الخوف من الله تعالى والانزجار عن نواهيه ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾[٣] إذ إن التفاعل الباطني مترتّب على وجود أرضية الخشية، ولهذا جعلت الآية العِبرة مترتبة على الخشية ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[٤].

٢٣ ـ إن التزكية تتم على مرحلتين:

- فمنها (التزكية الإجمالية) المتمثلة في التخلص من الذنوب، ثم

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

(٢) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٣) سورة فاطر: الآية ١٨.

(٤) سورة النازعات: الآية ٢٦.

تلقي الهداية الإجمالية.

- ثم (التزكية التفصيلية) الملازمة للخشية، ومن بعدها يصبح العبد مؤهلا للهداية الخاصة التفصيلية.

وقد ذكرت الآية التزكية أولا، ثم الهداية، ثم الخشية ﴿تَزَكَّى﴾ و﴿أَهْدِيَكَ﴾ و﴿فَتَخْشَى﴾.

٢٤ ـ إن العمل على البعد الأنفسي مقدم على العمل الآفاقي الخارجي، فموسى عليه السلام:

- عمل على الفتح العاطفي والفكري في عالم الأنفس، مستعينا بلين القول، والدعوة إلى التزكية والخشية على نحو العرض والاقتراح، لا على نحو الزجر والأمر.

- أراه الآيات الكبرى في عالم الآفاق من العصا واليد البيضاء وغيرها، إتماما للحجة أو تأكيدا لها.

ومن المعلوم أن باب المعجزة لا ينفتح إلا نادرا، بخلاف باب التأثير الباطني؛ فهو مفتوح دائما لمن أراد أن يعمل به، مستعينا بسنن الأنبياء.

٢٥ ـ إن وظيفة مَن أقبل الله تعالى عليه ـ وخصّه بالألطاف الخاصة ـ تتمثل في استثمار ذلك لهداية الخلق ومقارعة الطواغيت؛ بدلا من الاستئناس بالحظوظ الأنفسية كما ذهب إليه أهل الرهبانية.. فأول عمل للأنبياء عليهم السلام بعد البعثة، هو إرشاد الضالين ومواجهة المغضوب عليهم، وهو ما نراه جليا أيضا في حياة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

٢٦ ـ إن الله تعالى يمدّ أنبياءه بما يوجب قوة جانبهم متناسبا مع قوة خصومهم، ومن هنا أمدّ موسى عليه السلام بآيات عديدة، منها ما في هذه السورة ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى﴾ وذلك لقوة خصمه الذي ادّعى الربوبية، بل الربوبية العليا بقوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ إضافة إلى بلوغ حضارته الأوج في العمران وغيره بشهادة أهرامات مصر، وفي هذا قوة لقلوب كل الدعاة إلى الله تعالى وفي كل العصور!.. إذ إن قوة ما يأتيهم من المدد متناسبة مع قوة الأعداء، فلا خوف عليهم من هذه الناحية ولا هم يحزنون.

٢٧ ـ إن المنحرفين عن طريق الهدى لا يتورعون عن أي باطل ـ ولو كان واضح البطلان عندهم ـ ومن هنا تشبّث فرعون بتكذيب أصدق الناس في زمانه وهو موسى عليه السلام ﴿ فَكَذَّبَ﴾ رغم الآيات البينات، ومنها إبطال السحر الذي اعترف به السحرة أنفسهم[(١)].

٢٨ ـ إن أهل الباطل جادون في باطلهم بل هم مجتهدون فيه، فهذا فرعون ﴿أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ إذ لا يخلو السعي من جِد واجتهاد، فالمؤمنون أولى بالسعي في طلب حقهم.. ومن هنا حق لأمير المؤمنين عليه السلام أن يشكو قومه قائلا: «**فيا عجبا!.. والله يميت القلب، ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم؛ فقبحا لكم وترحا**»[(٢)]!

---

(١) ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِين * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِين﴾ سورة الأعراف: الآية ١١٩-١٢٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

والقران الكريم يشير في آية أُخرى إلى أن ما يصيب المؤمن من الأذى في سبيله يصيب الكفار أيضا، بفارق البون الشاسع بما لا يقاس في عاقبة الفريقين ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾[1].

٢٩ ـ إن الطغاة يستغلّون في كل العصور أدوات الإعلام الجماعي، وقد كانت لفرعون القدرة على جمع الناس وإعلامهم بما يريد، كما يفيده قوله تعالى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ وقوله ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾[2] ومن هنا يُعرف أيضا أن مقارعة مَن هكذا صفته، إنما تكون بأدوات مشابهة؛ أي قوة الإعلام لجمع الأنصار والأعوان في طريق الهدى.

٣٠ ـ إن لله تعالى نوعين من العقوبة: فهناك عقوبة مؤخرة ليوم تشخص فيه الأبصار[3]، وهناك عقوبة أُخرى معجّلة!.. فالبعض يريه الله تعالى الخزي في الدنيا قبل الآخرة وهذا ما جرى لآل فرعون؛ فأما عذاب الدنيا ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾[4] وفي الآخرة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[5] ويجمعهما قوله تعالى ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٤.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٥٣.

(٣) ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ سورة إبراهيم: الآية ٤٢.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٣٦.

(٥) سورة غافر: الآية ٤٦.

وَالأُولَى﴾.

ومن الممكن القول: إن مَن ينازع الله تعالى في سلطانه يُعجّل في عقوبته، خلافا للعاصي الذي لا يرى في نفسه حالة تحدّ لربه، بل يرى في باطنه ذلة لما اقترفه.

٣١ ـ إن القران الكريم لم يسرد قصص الأنبياء ﷷ من أجل التسلية على نحو استماع الحكايات، أوصبّها في قوالب فنية مجردة، وإنما هي للاعتبار واستلهام الدروس، وذلك لا يكون إلا لـمن له أرضية الخشية من ربه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ فالعقل المستفيد إنما هو مقترن مع القلب المستلهِم الخاشع، لما يراه من الأحداث والأشخاص والأشياء.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

٣٢ ـ إن القرآن الكريم يؤكد في آية ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ﴾ وفي آية أُخرى ﴿لَخَلْقُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[1] على حقيقة أن خلق السماوات أعظم من خلق الإنسان!.. ومن هنا جعل القدرة على

(١) سورة غافر: الآية ٥٧.

خلق الأشد تعقيدا؛ دليلا على القدرة على إعادة خلق الأقل في ذلك، وهذا ما يُفسّر حالة المؤمن عندما يتأمل في خلق السماوات ـ وخاصة عند القيام في جوف الليل ـ فإنه يستحضر حقيقة أن المتأمَّل فيه وهو الكون؛ أعظم من المتأمِّل وهو الإنسان نفسه؛ ممّا يوجب بدوره إحساسا بالتصاغر والتذلل!

٣٣ ـ إن من طرق التأثير على المخاطب هو استثارته بالسؤال ـ حتى لو كان الجواب عنده واضحا ـ وذلك لتحريك فكره في مسار ما يريده المتكلم.. ومن هنا، يسأل الرب المتعال عباده ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ﴾ ليعترفوا بضعفهم في بواطنهم.

٣٤ ـ إن الطريق المتعارف لتذكير العباد بخالقهم هو ذكر الآيات الآفاقية، ولهذا يُكثر القرآن الكريم من ذكر السماوات والأرض ـ ومنها هذه الآيات ـ للانتقال من المحسوس إلى المعقول، ولكن هناك من العباد مَن لا يحتاج إلى هذا الطريق المتعارف، وهم الذين تجلّى لهم الله تعالى في أنفسهم بنوع من أنواع التجلي.

٣٥ ـ ليس من المعيب أبدا أن يستمتع الإنسان بمتاع الدنيا من دون أن يعيقه ذلك عن عبادة ربه، فإن الله تعالى ذَكر نعمة الأرض ـ وما أخرج منها من الماء والمرعى وكذلك الجبال ـ في سياق النعم الإلهية، وحاشا أن يمنّ على العباد بما فيه صدّ عن سبيله، ويؤكد هذه الحقيقة أيضا قوله تعالى

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1] .

٣٦ ـ إن المتاع عندما يُنسب للغير يُفهم منه ضمنا أن صاحب المتاع في رتبة أعلى منه ؛ لاستيلائه عليه وتصرفه فيه ، ولهذا صار صاحبا ومالكا له ؛ ولكن مَن عشق هذا المتاع صار مملوكا له ، والحال أن القرآن الكريم يريد منا أن نكون نحن أصحاب المتاع ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ لا أن يكون المتاع صاحبا لنا.. ولهذا قيل في حقيقة الزهد أنها عدم مالكية الأشياء للإنسان[2] ، لا عدم مملوكيتها له .

٣٧ ـ إن الله تعالى ينسب متاع الدنيا إلى البشر والأنعام على حد سواء ﴿لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ولكن المائز فيما بينهما إنما يكون في أمور أُخرى ألا وهو التعقل والتفكر ؛ ومن هنا صار الإنسان حيوانا ناطقا .

٣٨ ـ إن مصيبة العبد يوم القيامة بلوازم عمله ، أعظم من كل مصيبة مرت عليه ، ومن هنا سميت بـ ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرى﴾ أي الغالبة ، ووصفت بالكبرى للتأكيد على فداحتها.. وعليه ، فإن تصوّر هذا المعنى يوجب تحمل مصائب الدنيا ؛ دفعا لما هو أشد منها!

٣٩ ـ إن الإنسان في عرصات القيامة ـ وخاصة عندما تُبرّز الجحيم لأهلها ـ في ذكر مستمر لسعيه في الحياة الدنيا ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٢.

(٢) التحقيق في كلمات القرآن : ج٤ ص ٣٥٦.

سَعى﴾ وهذا بحد ذاته عذاب لأهله؛ لأنه يقارن بين المقدمات الماضية والنتائج المستمرة؛ فيرى حقيقة أن اللذائذ قد فنت، والتبعات قد لازمت! فكم من المناسب أن يكون هذا التذكر ـ وهو في دار الدنيا ـ تداركا لما يمكن تداركه، وهذا هو لب المحاسبة والمراقبة التي يجعل الإمام الكاظم عليه السلام تاركها خارجا عنهم بقوله: «**ليس منّا مَن لم يحاسب نفسه كل يوم**»[1].

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

٤٠ ـ إن أرضية الطغيان في العبد ﴿طَغى﴾ توجب أن يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة ﴿وَآثَرَ﴾ فقد جعلتهما الآية الكريمة مقترنتين، كما أن أرضية الخوف من مقام الرب ﴿خافَ﴾ توجب نهي النفس عن الهوى ﴿وَنَهَى﴾ كما يستفاد من هذه السورة أيضا.. والقاعدة العامة المستفادة من مجموع القران الكريم هي أن الأرضية الباطنية للإنسان منشأ لكثير من الآثار الظاهرية.

---

(١) بحار الأنوار: ج ١ ص١٥٢.

٤١ ـ إن المشكلة ليست في مفردات الحياة الدنيا والمتمثلة : بالنساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث[١] ، وإنما في إيثارها على رضا الرب المتعال ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وفي تزيّنها في صدور العباد ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[٢] وفي كونها موجبةً لطغيان العبد ﴿ليطغى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[٣].. وبعبارة جامعة : إن المشكلة كامنة في العُلقة ، لا العلاقة .

٤٢ ـ قيل في تفسير ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ الذي يوجب الخوف منه تعالى وجوه ، منها :

- مقامه للحساب يوم القيامة ، فكأن المراد مقام العبد عند ربه عند نصب الموازين .
- علمه بأفعال العبد ومراقبته له من جهة أنه تعالى قائم على كل نفس بما كسبت[٤] .
- أنها جهة الربوبية وما يستلزمها من شؤون الربوبية .

والذي يجمع هذا كله في مقام التأثير ، هو عمل العبد على تنمية ذلك الباطن الذي يدرك هذه المعاني ، ويوجب النهي عن الهوى ، والذي يؤدي بدوره

---

(١) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ سورة آل عمران : الآية ١٤.

(٢) سورة الحجر : الآية ٣٩.

(٣) سورة العلق : الآية ٧.

(٤) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ سورة الرعد : الآية ٣٣.

إلى سلامة الجوارح أخيرا.. وعليه، فإن العمل الجوانحي مقدم على العمل الجوارحي، تقدم العلة على المعلول، وتقدم الفرش على النقش.

٤٣ ـ إن الالتفات إلى مقام الرب، إنما هو بمعنى أن يرى الإنسان أن جميع تقلباته بمرأى من قِبل الله تعالى، فهذا الالتفات لِمن موجبات الاستقامة على الطريقة في السر والعلن، وبذلك تنتفي أو تقل حالات التذبذب بين الإقبال والإدبار، التي يشتكي منها حتى الأولياء.

ومما يؤيد أن المراد من مقام الرب ما ذكرناه آنفا، ما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: **«مَن علم أنّ اللهّ يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم من خير أو شرّ؛ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال؛ فذلك الذي خاف مقام ربّه، ونهى النفس عن الهوى»**[١].

٤٤ ـ إن خوف الإنسان قد يكون:

- لسبب طبيعي خارج ذاته: كخوف الإنسان من حيوان مفترس أو عدو بشري.
- لتقصير مرتبط بذاته: كخوف الجاني من العذاب عند القصاص.
- لإحساسٍ بعظمة مَن يعتقد بعظمته: كخوف التلميذ من أُستاذه خوفا، يشوبه الإحساس بهيبته.

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٧٠.

وعليه، فإن خوف أولياء الله تعالى إنما هو من القِسم الثالث، لعدم وجود مخوف بذاته، ولا لتحقق تقصير من فعله، بل للنظر إلى مقام العظمة المورُث لحالة من حالات الخوف المقدس.

٤٥ ـ لابُد أن يكون تعامل الإنسان مع هواه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى﴾ كتعامل الأب مع الابن الجاهل الذي لا يعرف مصلحته، فيهوي إلى ما فيه رداه فيردعه ردعا، وهذا يختلف عن النهي عند الآمرين بالمعروف بالوعظ المجرد.

وعليه، فلا يكون التعامل مع الهوى في النفس، كتعامل الناصح مع غيره والذي يكون عادة بين النظيرين.

٤٦ ـ إن القانون الإلهي سارٍ على جميع المخلوقات سواء في عالم الآفاق أو الأنفس، ومن هنا فإن الآية تُعطي الضابطة العامة: فـ﴿مَن طَغَى﴾ سقط في طريق الردى إذ الجحيم مأواه و﴿مَنْ خَافَ﴾ وصل إلى ذروة الهدى إذ الجنة مأواه، لوضوح أن مَن اتبع طريق الأسباب وصل إلى المسببات، تماما كما هو الأمر كذلك في عالم الطبيعة.

٤٧ ـ إن البعض يستغرق في الجزئيات التي ليست لها ثمرة عملية، مثلُه في ذلك كمثل المشركين الذين كانوا يسألون عن وقت الساعة، فجابهم القرآن الكريم بقوله ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها﴾ ردعا لهم عن هذا التطفل الذي لا طائل تحته، وكذلك بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾.

ومن الممكن أن نُسرّي مثل هذا التوبيخ، إلى مَن يبحث عن توقيت الفرج ـ مثلا ـ دون أن يُعدّ نفسه لإعانة صاحب الفرج، وإلى مَن يتحرى فلسفة الأحكام معوّلا التزامه عليها.

٤٨ ـ إن الله تعالى رغم أنه فتح باب العلوم الظاهرة لعامة العباد، وباب العلوم الخفية لخصوص الأنبياء والأوصياء ﷺ؛ إلا أنه استأثر ببعض العلوم التي لا يحيط البشر بشيء منها، ومن تلك العلوم ما يتعلق بالساعة، فمنتهى علمها إنما هو عند عالم الغيب والشهادة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾.

وهذا كله لا ينافي أن يطلب العبد من ربه علما واسعا كثيرا بحسب سعة إنائه، بل يطلب منه أن يوسع من إنائه أولا، ثم يغدق عليه من عطائه ثانيا!

٤٩ ـ إن الأنبياء ﷺ بُعثوا مبشرين ومنذرين، ولكن لا يعني ذلك أن نسبة الإنذار والتبشير على حد سواء قياسا إلى الطبقات، إذ إن الإنذار يتأكد للقوم الغافلين المعاندين دون التبشير، ولهذا ذكرت الآية خصوص الإنذار لمنكري القيامة ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾.

وعليه، فإن المؤمن في دعوته إلى الله تعالى، يوازن بين الإنذار والتبشير بحسب حالات من يتعامل معهم.

٥٠ ـ إن الأنبياء ﷺ جاءوا لرفع المستوى التكاملي لكل فرد، ولكن التأثر بدعوتهم يحتاج إلى أرضية إجمالية للقبول، وهو ما يستلزم وجود حالة ـ ولو إجمالية ـ من الخشية بالنسبة إلى المبدأ تارة ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ

وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾[١] وإلى المعاد تارة أُخرى ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾. وعليه ، فإن مَن ليس بناؤه على التأثر والإتباع داخل نفسه ، فإنه لا يمكنه أن يتبع الأنبياء خارجا مصداقا لقوله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٢] .

٥١ ـ إن الالتفات إلى حقيقة فنائية الدنيا وقصرها بالنسبة إلى الآخرة ، لمن موجبات ردع العبد عن التوغل في الشهوات ؛ لأن العاقل بطبيعته يتجاوز عن الربح الأقل لحيازة الربح الأكثر ؛ فكيف إذا لم تكن هناك نسبة بينهما؟!.. إذ ما نسبة الحياة الأبدية إلى لبثٍ في عشية أو ضحى ﴿كَأَنَّهُم يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ بل إلى ساعة كما في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾[٣] .

---

(١) سورة يس : الآية ١١.

(٢) سورة البقرة : الآية ٦.

(٣) سورة الروم : الآية ٥٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾.

١ ـ إن هذه الآيات التي فيها من التقريع ما لا يخفى على المتأمل، لا تناسب أن تكون في حق النبي ﷺ الذي وصفه القرآن بأنه على خلق عظيم[١]، إذ إن العبوس في وجه الكافر لم يكن من شيم النبي الأعظم ﷺ؛ فكيف في وجوه المؤمنين؟!.. وكيف بمَن وصفه القران الكريم بـ﴿الْأَعْمَىٰ﴾ ممّا يستلزم المزيد من الشفقة؟!.. فكيف بمَن جاء ﴿يَسْعَىٰ﴾ بجهد ويريد أن يكون ممّن ﴿يَخْشَىٰ﴾ ؟!

٢ ـ إن المزايا الأخلاقية التي تصدر من المؤمن، إنما هي من منطلق كماله الذاتي، لا طلبا لثناء أو شكر أو مكسب آخر، فالعبوس في وجه الآخرين أمر مذموم ولو كان ذلك في وجه أعمى لا يرى ذلك العبوس!.. والمؤمن يجلّ نفسه عن ذلك؛ لأنها صفة مبغوضة عند ربه وفي نفسه.

---

(١) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ سورة القلم: الآية ٤.

٣ ـ إن القرآن عندما يتكلم عن الهداية، يذكر التزكية كمحور لحركة الأنبياء ﷺ[1]، فالتشريعات كلها جاءت لتخليص الإنسان من عبودية الهوى إلى التسليم للهدى.. ومن المعلوم أن الطريق إلى التزكية هو بالتذكير المُخرج لصاحبه عن دائرة الغفلة، فجمعت الآية بينهما ﴿يَزَّكَّى﴾ و﴿يَذَّكَّر﴾.

٤ ـ إن دعوة الدعاة إلى الله تعالى، ليست دائما للإخراج من الجهل ليكون عملهم تعليما، بل يكون أيضا للإخراج من الغفلة؛ فيكون عملهم تذكيرا، ومن هنا جعلت الآية التذكير نافعا للبعض وإن كان غافلا ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى﴾ ومن المعلوم أن هذا الأمر لا ينطبق على المعاندين، بل يزيدهم عتوّا وكفرا.

٥ ـ إن عادة أهل الدنيا هو الميل لما هو ملاك التقدم عندهم، ألا وهو الاستغناء ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ لأنه كمال محسوس عندهم قريب إلى طبعهم؛ بخلاف من جاء يسعى وهو يخشى، فإن كماله لا يُدرك بحسب طباعهم البشرية ممّا يوجب الالتهاء عن أصحاب هذا الكمال، وهذه الصفة الثابتة لأهل الدنيا لا تنسجم أيضا مع مقام النبي ﷺ ممّا يؤكد مرة أُخرى انصراف هذا العتاب عنه.

---

(١) ﴿كَما أَرْسَلْنا فيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة: الآية ١٥١.

٦ ـ إن الآيات التي توبّخ مَن أعرض عن الأعمى لعدم وجاهته الاجتماعية، تريد منا تحكيم الموازين الشرعية في التفاضل بين العباد، وهي قاعدة الأكرمية عند الله تعالى بالتقوى[1]، والتي لم تكن محكّمة أيام الجاهلية، بل ولا بعد الإسلام في كثير من الأوساط.

ومن آثار عدم تحكيم هذه القاعدة، ما ذكرته الآية صريحة من إعراض العابس عمّن هو واجد لصفتين عظيمتين وهما: السعي للتزكية ﴿جَاءكَ يَسْعَى﴾ والتلبس بالخشية المستمرة المستفادة من قوله تعالى ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ بل أشارت إلى ما هو أسوأ من الإعراض أعني التشاغل بالغير؛ وهو المستفاد من قوله تعالى ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾.

٧ ـ إن من صفات أهل الدنيا وطالبي الاستغناء هو عدم اهتمامهم باهتداء الناس إلى طريق الهدى؛ لأنهم أساسا غير معنيّن بالهداية والتزكية؛ فكيف يحملون همّ تزكية الآخرين؟!

ومن هنا جعلت الآية هذه الحالة من إهمال تزكية الغير من موجبات العتاب ﴿وَما عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ ومن الممكن القول: إن هذه الحالة من عدم الاكتراث، لهو من مصاديق: «**ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[2] إذ إن من أهم أمور المسلمين هو السعي لتزكية الآخرين.

---

(١) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ١٦٤.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

٨ ـ إن الآيات المتعلقة بالقرآن الكريم في هذا المقطع، تدل على عظمة القرآن من جهة أنها:

- مجموعة في ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ وذلك في عالم الغيب، سوى هذه الصحف التي بين أيدينا.
- أنها مرتفعة القدر ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ بارتفاع قدر منزلها.
- هي ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ من كل دنس، ومن أن تنالها يد التحريف.
- هي ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كرام؛ وهم أعوان الملك الأعظم جبرائيل عليه السلام منزل الوحي، ومن هنا كان مطاعا ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[1] فقد جرت العادة على استحفاظ نفائس الأشياء بأيدٍ عديدة، مبالغة في إكرامها أو حفظها.

٩ ـ إن القرآن كما تحمله أيدي الكرام البررة في عالم الإرسال، فكذلك يتحمّله كرام الأمة الخاتمة في عالم التلقّي، وهم المعصومون عليهم السلام الذين يحملون حقائق القرآن في كل عصر، ويليهم الأمثل فالأمثل في الطهارة

---

(١) سورة التكوير: الآية ٢١.

والكرامة؛ لأن الصحف المكرمة المطهرة تحتاج إلى أوعية متناسبة مع ذي الوعاء في الطهارة والقدس، ومن هنا فانه لا يستوعب حقائق القران الكريم -حتى من العلماء- إلا مَن كان طاهرا مطهرا ﴿لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُون﴾[1].

١٠ ـ إن الرب الذي يدعو المسرفين إلى رحمته متحببا إلى العصاة من خلقه[2] فإنه يدعو على فئة من خلقه وهم الذين كفروا بأنعمه بأشد التعبير؛ ألا وهو الموت قتلا ﴿ قُتِلَ الإِنْسانُ﴾ !.. فالتفاوت شاسع بين قوسي الرحمة والغضب، وذلك لأن في الكفر نوع تحدٍّ لمقام الربوبية.
ومن الممكن بعد التأمل أن نقول: إن الغضب أيضا شعبة من شعب رحمته، إذ إن قوام العدل وتربية العباد، يكون أيضاً بنفاذ الغضب في موضعها، لتتبين الرحمة في موضعها أيضا.

١١ ـ إن الكفر الأعظم يتمثل في تغطية المنعِم بحجاب الإنكار ﴿ما أَكْفَرَهُ﴾ والكفر الأصغر يتمثل في تغطية نِعمه، ويطلق على مرتكبِهما عنوان (الكافر) ولكن العتاب الشديد في الآيات يتناسب مع الكفر بالربوبية.
ومع ذلك فإن هذا العتاب قد يشمل الكفر بالنعمة بدرجة من الدرجات، وهذا العتاب لو خففّناه لكان الباقي منه ثقيلا على العبد أيضا، ومن هنا

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٩.
(٢) ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِم...﴾ سورة الزمر: الآية ٥٣.

أُلحق المبذر بالنعمة بـ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[١] لأنه نوع كفران بها .

١٢ ـ إن استعمال صيغة التعجب من خالق الوجود لأمر من الأمور ملفت حقا!.. فالذي لا يرى في الوجود شيئا يُعتد به لعظم سلطانه وترامي ملكه ، فإن إظهار التعجب منه تعالى في كتابه ﴿ما أَكْفَرَهُ ﴾ يدل على فداحة الأمر ، وأي خطب أعظم من إنكار مَن يصف نفسه في موضع آخر قائلا ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢] .

١٣ ـ إن الله تعالى عندما دعا بالقتل على الكافر ـ وهو أبلغ من اللعن في بيان الطرد من ساحة الرحمة ـ فإنه لا يُحقق دعائه في الدنيا دائما ، إذ قد يعيش مَن دعا ربه عليه بالقتل منعّما مترفا في الدنيا ، ولكن الأشد من قتل الأبدان هو موت الأرواح الذي هو بحكم القتل لها ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٣] حيث أن جوارحهم الباطنية ، من سمعٍ وبصرٍ وفؤادٍ معطلة لا تعمل ، وأي حياة بعد هذا كله؟!

١٤ ـ إن القرآن الكريم كثيرا ما يذكّر الإنسان بأصله بتعابير مختلفة ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾[٤] و﴿مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾[٥] كما أن في هذه الآيات أيضا تذكير

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٧.

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١٠.

(٣) سورة النحل : الآية ٢١.

(٤) سورة القيامة : الآية ٣٧.

(٥) سورة السجدة : الآية ٨.

للكافر بأصله، ليذكّره أولاً بحقارة منشئه ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ فهو من ماء دنسٍ ذي رائحة كريهة، ولبيان عظمة خلقه ثانيا، إذ إنه تعالى يخرج من ظلمات الأرحام في شهور ثلاثة ما يبهر الألباب بجماله ودقة صنعه، ومن هنا استحق الدعاء عليه بالقتل عند إنكاره لمبدئه.

وملخص القول: إن مَن كان هذا أصله، فإنه لا يليق به أن يتفوّه بما يوجب الكفر.

١٥ ـ إن التعبير بـ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ يُشعر بأن هناك يدا مُقدِّرة، أرادت التدخل في هذه الفترة القصيرة لتصنع الأعاجيب، وبعدها يترك الخالق أمر العبد إلى نفسه، ليصنع ما يشاء!.. فلو أن العبد طلب من مولاه أن يرعاه بلسان المقال ـ بعد خروجه من عالم الأرحام ـ ما كان يطلبه في ذلك العالم بلسان الحال، أفلا يصل إلى كماله التشريعي كما وصل إلى كماله التكويني، فاليد المقدّرة في الحالتين واحدة؟!

١٦ ـ إن الله تعالى خلق الخلق، وكلٌّ مُيسّر لما خُلق له ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ وهذا المعنى يراه العبد متجليا في أول الطريق ـ وإن كان عاصيا ـ إلا أنه ومع تكرار المعاصي وخاصة الكبائر منها، يصل إلى مرحلة لا يرى السبيل مُيسّرا بل ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[1] فيرى في نفسه ميلا قهريا إلى الباطل، والشياطين المستولية عليه تسوقه إلى موجبات العسر سوقا، وهذا

(١) سورة الليل: الآية ١٠.

معنى ولاية الشيطان على بعض من اتبع غير سبيل الهدى .

١٧ ـ إن الالتفات إلى أول مراحل الدنيا ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ وإلى آخر مراحلها ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ لمن موجبات كسر الغرور الباطني، وخاصة عند مَن يرى في نفسه مقتضيا لذلك، كمَن ذكرته الآية في أول السورة، أي الذي يتصدى لِـمن استغنى، ويتلهى عمّن يخشى.
فذكْر الإماتة والإقبار في سياق العتاب على مَن دعا عليه القرآن بالقتل، قد يدل على نوع من أنواع التحقير أيضا لَـمن يعيش غرور الكفر، فقد ذكّرته تارة بأنه من نطفة قذرة ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾[1] وفي هذه السورة تذكره بأنه سيؤول أخيرا إلى جيفة نتنة[2] لا بُد أن تُقبر دفعا للأذى، فلِمَ الغرور قِبال كبرياء رب العالمين؟!

١٨ ـ إن الإماتة التي مآلها الإقبار، هي هذه الإماتة الظاهرية للأبدان التي تتحلل في التراب، ولولا خاصية الأرض في تحليل الموتى، لكانت الجثث ممّا يوجب التقذر والتنفر من أصحابها!.. ولكن هذا السير النزولي للأبدان ـ عموما ـ يقابله سير صعودي لبعض الأرواح، فإن من الأرواح ما هو مآلها إلى ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[3].

١٩ ـ إن الحكمة الإلهية تقتضي إحياء الموتى لينال المستحق جزاءه من

---

(١) سورة المرسلات: الآية ٢٠.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٤٥١.

(٣) سورة القمر: الآية ٥٥.

الثواب والعقاب، ولكن كل ذلك في دائرة المشيئة الإلهية، ولهذا عبّرت الآية بأنه ﴿إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ﴾ فهو المالك للرقاب: بدءً وختما، تكليفا وجزاء.

٢٠ ـ إن الآيات العديدة تصف طبيعة الإنسان بأنها: ميالة للهلع والجزع[1]، وأنه ظلوم وجهول[2]، وأنه في خسر[3]، وهذه الآية تُبين أن الإنسان الذي هو في قبضة مولاه وفي كل تقلباته، لا يلتفت إلى كل ما ذكرته الآية من الخلق والإقبار، فهل قضى ما أمره به ربّه؟.. والجواب ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢)﴾.

٢١ ـ إن الأمر بالنظر إلى الطعام يعمّ كل وجوه النظر سواء من جهة المنشأ، أو كيفية تحصيله، وتنوّع محصوله، وتضافر الأيادي على تجهيزه.. ومن الممكن الانتقال من الطعام المادي للأبدان إلى الطعام المعنوي للأرواح، وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الطعام في قوله تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ﴾ أنه قال: «علمه الّذي يأخذه عمّن

(١) ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ سورة المعارج: الآية ١٩-٢٠.
(٢) ﴿إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ سورة الأحزاب: الآية ٧٢.
(٣) ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ سورة العصر: الآية ٢.

يأخذه»[١].

٢٢ ـ انتقلت الآيات ـ بعد العتاب الموجّه إلى كل مَن كفر بربه ـ إلى خطاب عموم البشر، لإثارة دواعي التأمّل والتفكّر في أنفسهم، ومنها دعوتهم للنظر إلى آثار رحمة الله تعالى في الأرض، فقد سخّر الله تعالى الماء المصبوب ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ والأرض المُخرجة لأنواع النبات ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ وذلك لإشباع جوعة بني آدم ﴿فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا﴾ بل لتلذذه بالنظر إليها؛ كالأشجار الشامخة ﴿وَحَدائِقَ غُلْباً﴾!

وهذه من أقرب اللذائذ الحسية لعموم البشر، ولعل الآية اختارتها من بين عموم النعم، للمنّة على العباد بما هو واضح لديهم من المأكول والمشروب.

٢٣ ـ إن هذه الآيات صريحة في أنها تنسب إنبات الأرض وإنزال الماء من السماء إلى الله تعالى، والحال أن الغافلين من عباده يرون انتساب الزراعة إلى أصحابها أوضح من انتسابها إليه تعالى، غفلة عن مسببيته للأسباب ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُون﴾[٢].

ومن هنا وعندما يأكل العبد ممّا ذكرته الآية من ﴿عِنَباً وزَيْتُونا ونَخْلاً﴾ و﴿فاكِهَةً﴾ والخضروات ﴿قَضْبًا﴾ فإنه يعيش حالة الامتنان والشكر لخالقه؛ أكثر ممّا يعيشه تجاه مقدّمه.. فأين الخالق لأصل الطعام، وأين مَن يقدّمه لمخلوق مثله؟!

---

(١) الكافي: ج ١ ص٥٠.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٦٤.

٢٤ ـ إن القرآن الكريم عندما يذكر المتاع المأكول يقرن الأنعام ببني آدم ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ومنه ما في هذه السورة فيذكر ما هو مأكول الإنسان ﴿فَاكِهَةً﴾ وما هو مأكول الحيوان ﴿أَبًّا﴾ في سياق واحد؛ ولكن عندما يصل الأمر إلى المتاع المعقول، فانه يجعله في سياق الملائكة العارفين بالله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾[1].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

٢٥ ـ تكرر في القران ذِكر أنواع الصيحة يوم القيامة، فمنها:

- الصيحة المجردة: ﴿صَيْحَةً واحِدَة﴾[2].
- الراجفة: وهي الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب.
- الصاخة: وهي الصيحة الشديدة التي تصم الأسماع من شدتها.
- الناقور: الذي ينبعث منه صوت يخرق الأسماع.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٢) سورة يس: الآية ٥٣.

والجامع بين هذه الأصوات جميعا: هو أن هناك صوتا مفزعا يؤذن بالحساب يوم القيامة، والحال أن الله تعالى في دار الدنيا تلطّف كثيرا في الخطاب، لبعث العباد على محاسبة النفس قبل محاسبة القيامة: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**»(١) وللموت الاختياري قبل الموت الإجباري «**موتوا قبل أن تموتوا**»(٢) ولزنتها في دار الدنيا قبل أن توزن في الآخرة «**وزنوها قبل أن توزنوا**»(٣) حيث لا مجال للتدارك بعدها.

٢٦ ـ إن التعبير بالفرار ممّن ذكرتهم الآية ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ يدل على عظم ما فيه أهل المحشر، فهو:

- إما لانشغال كل فرد بنفسه، بما يشغله من أهوال يوم القيامة.
- وإما للخوف من مطالبة مَن ذُكر، لحقوقهم المضيّعة في الدنيا.
- وإما فرارا من التورّط بهم، إذ قد يطلبون منه شيئا من حسناته، وهو أحوج ما يكون إليها!

٢٧ ـ إن مَن يتذكر هذه الآية ـ وهو في الحياة الدنيا ـ يعيش حالة من الحذر ممّن حوله حتى من أقرب المقربين إليه!.. والطريق الأمثل للخلاص من تبعاتهم، هو تحويلهم إلى أعوان لآخرته، بدلا من أن يكونوا عونا على دنياه فحسب ـ كما هو ديدن أهل الدنيا ـ إذ لا يريدون من الأولاد إلا عزة

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧ ص ٧٣.
(٢) بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٥٩.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٧ ص ٧٣.

وتفاخرا وتكاثرا، بخلاف المؤمن الذي همّه أن يجعل من ذريته صدقة جارية له بعد موته.

وعندئذ فإنه من الطبيعي أن يرحب بهم في عرصات القيامة، بل يبحث عنهم ليُعين بعضهم بعضا، ليكونوا في درجة واحدة في الجنة، ومصداقا لقوله تعالى ﴿وَالَّذينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم﴾[1].

٢٨ ـ إن من الملفت في هذه السورة ذكر آية ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ بعد ذكر فرار الإنسان من أهله الأقربين منه، ممّا يفهم منه أن انشغاله بنفسه هو الذي جعله يلهيه عمّن سواه، وما انشغاله بنفسه إلا لانكشاف الحجب عنده، ووقوفه موقف المساءلة بين يدي الله تعالى.

ومن هنا نقول: لو عاش العبد حقيقة المحضرية في الحياة الدنيا لتحققت الثمرتان معا، أعني عدم تعلّقه المشغل بغير الله تعالى أولا، وانشغاله بنفسه ثانيا.. وهو ما دعت إليه الروايات المتعددة في أن يلتفت الإنسان إلى نفسه أولا قبل الالتفات إلى غيره، والآية الكريمة ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾[2] شاهدة على ذلك أيضا.

٢٩ ـ إن التدرج في الآية بين الأخ والأم والأب والزوجة والابن، قد يكون بلحاظ التدرج الصعودي في التعلق القلبي ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ فأوله الأخوة، وآخره البنوة لأن

---

(١) سورة الطور: الآية ٢١.

(٢) سورة التحريم: الآية ٦.

الولد قطعة من الأبوين وليسا هما قطعة منه.

ولعل من هذه الجهة نفسها، خص القرآن الكريم ذِكر الأولاد في سياق الأموال، من جهة الافتتان بهما ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1] .

٣٠ ـ إن الوجوه الظاهرية مظهر للحالات الروحية التي يمر بها العبد في الدنيا والآخرة:

- أما في الآخرة: فالأمر واضح كما تذكره الآية إلى درجة يكون الأمر فيها حسيا، ففي جانب الخير هناك الإشراقة في الوجه ﴿مسفرة﴾ وفي جانب الشر هنالك الغبار والظلمة ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ بحيث يعلمه ويراه أهل المحشر، لانكشاف الغطاء عنهم جميعا.
- وأما في الدنيا: فإن هناك مسحة من النور تلفُّ وجه المؤمن وهو يستشعرها، بل يراها كل مَن أوتي فراسة إيمانية توجب له الرؤية بنور الله تعالى.

ولا يخفى أن نور الوجه يوم القيامة إنما يُكتسب في هذه الدنيا، وخاصة بقيام الليل وتلاوة القرآن.

٣١ ـ إن الانحراف الموجب لظلمة الوجه ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ يكون من سببين:

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٨.

- الانحراف العقائدي الذي يتمثّل أوجه في الكفر بالله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ .
- الانحراف السلوكي المشار إليه بكلمة ﴿الْفَجَرَةُ﴾.

وعليه ، فلا ينبغي أن يركن مَن هو على عقيدة صحيحة -بل ويرى في قلبه حبا لأولياء الله تعالى- إلى ما هو عليه ، إذا لم يكن مستقيما في مقام العمل ، فالفجور عِدلٌ للكفر كما ذكرته الآية في سياق واحد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ (١٤)﴾.

١ ـ إن ذكر القيامة جاء في موارد عديدة بصيغة الماضي كقوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾[1].. فالمستقبل الذي يُخبر عنه رب العالمين بمثابة الماضي في تحقق الوقوع، ومن المعلوم أن ذِكر المستقبل المحقق أكثر نفعا من ذِكر الماضي؛ لأن هناك مجالاً للتدارك، والاستعداد لتغيير الماضي المظلم إلى حاضر مشرق.

٢ ـ إن الله تعالى عندما يذكر أهوال القيامة، يذكر الظواهر الكونية المتماسكة: كالشمس والنجوم وكذلك الجبال الساكنة المستقرة، كل ذلك من أجل إفهام العبد أنه لا ثابت ولا متماسك في هذا الوجود إلى الأبد،

(١) سورة الواقعة: الآية ١.

فكلها في طريقها إلى الإنكدار ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ والانطفاء ﴿وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾.. فالذي يُعوَّلُ عليه هو ما له من الثبات في الذات والصفات، أوَ ليس هو المجيب الوحيد لنداء ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[1] قائلاً ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2].

٣ ـ إن الناقة العشراء ﴿وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ﴾ هي من النفائس عند العرب ـ وقت التنزيل ـ وهي الناقة الحامل التي أتت عليها عشرة أشهر، وأما تعطيلها فيعني إهمالها في عرصات القيامة، فأهوالها تُشغِل العباد عن النفائس!.. ولو انشغل قلب العبد وهو في الدنيا بأهوال ذلك اليوم ـ كما في خطبة المتقين لعلي عليه السلام ـ فإنه سيلهو أيضا عن نفائس أهل الدنيا؛ لأنه لا يعود نفيسا عنده، لانقلاب موازين التثمين لديه.

٤ ـ اختلفت التفاسير[3] في حشر الوحوش، وكيف تُحشر وهي غير مكلّفة بشيء؟!.. فقيل بأنها تُحشر بمقدار ما تدرك من ظلمها لغيرها من الحيوان، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ولا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُم﴾[4] ومن لوازم المشابهة بين أمة الطير والدواب

---

(١) سورة غافر: الآية ١٦.

(٢) سورة غافر: الآية ١٦.

(٣) التبيان: ج١٠ ص٢٨١، مجمع البيان: ج١٠ ص٦٧٣، الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠ ص٢١٤.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

وبين البشر هو الاشتراك في المهمات، والمتمثلة بالنهايات أعنى الحشر على صعيد واحد.

وعليه، ينبغي للعبد أن يلتفت إلى كل تقصير وقع بعلمه، ما دام هذا العلم بإجماله يوجب حشر الحيوان ومحاسبته حتى قيل أنه: «**يُقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء؛ تنطحها**»[1].

٥ ـ إن البحار تشتمل على مادتين سريعتي الاشتعال والتفجير، ولكن الله تعالى ألّف بينهما فجعلهما بتفاعلهما، بردا وسلاما على العباد!.. فبالماء تُطفأ النيران، وجُزءاه مصدران لكل نار عندما يُفصل بينهما وإذا بـ﴿الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

وعليه، فإن الرب الذي يخلق من طبيعتين ناريتين طبيعة ثالثة هي رمز للبرد والسلام؛ يمكنه أيضا أن يؤلّف بين الأمزجة النارية في الأسرة فيبعث فيها المودة والرحمة، وفي المجتمع فيؤلّف بين أفرادها كما ألّف بين المسلمين الأوائل، الذين ما كانت لتأتلف قلوبهم، لولا أن الله تعالى ألّف بينهم ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[2].

٦ ـ إن النفوس تكتسب قابلية السكنى في الجنة أو اللبث في النار وهي في الحياة الدنيا، فكأنها مخطوبة للحور العين، أو مقرونة بمردة الشياطين، ويبقى التزويج فعلا في ذلك اليوم الموعود الذي يقول عنه تعالى

---

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن: ج٥ ص ٢٠٣.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٣.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

فذلك اليوم هو يوم عرس المؤمنين الطيبين، لذا تليق بهم الطيبات من الحور العين، وغيرهم هم الخبيثون؛ فتليق بهم الخبيثات من الشياطين القرينة!

٧ ـ إن وأد البنت من مصاديق قطع الرحم بل إزهاق الرحم، والحال بأن المقتولة لا تتعدى كونها بحكم الجنين الذي لا يعلم حاله لو عاش في هذه الدنيا، ولكن جريمة الذين قطعوا قربى رسول الله ﷺ وقتلوا ذريته أبشع وأكبر من جريمة وأد البنات!

ومن هنا، فإن من أول محاكمات التاريخ يوم القيامة قبل سؤال الموؤدة عن سبب قتلها ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ﴾ هو السؤال عن سبب قتل الحسين عليه السلام وخيار أصحابه.

٨ ـ إن النفوس عندما تنحرف عن دائرة الهدى فإنها تخرج عن دائرة الفطرة السليمة، فترى الأم والتي هي مظهر الحنان والشفقة تدفن ابنتها وهي حية؛ كما كانت تفعل المرأة في الجاهلية عندما يحين وقت ولادتها، إذ كانت تحفر حفرة وتقعد على رأسها؛ فإن ولدت بنتا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت غلاما حبسته!

وهذه الظاهرة وإن انتفت في الجاهلية الحديثة، إلا أن هناك صورا أُخرى للوأد؛ متمثلة في قتل أرواح الأبناء بالإجهاض تارة، وتعريضهم لصور الفساد والإفساد تارة أُخرى.. وهناك روايات تشير إلى صورة مختلفة من

الوأد وذلك عندما سئل الإمام الباقر عليه السلام عن معنى الآية فقال: «**من قُتل في مودّتنا وولايتنا**»[1] وهم كثيرون طول التاريخ!

٩ ـ إن بعض أهل المعاصي يستترون عند ارتكاب المعاصي؛ خوفا من الفضيحة بين بعض العباد، وقد لا يكون الرقيب ممّن يُعتد به، بل قد يكون الرقيب طفلا لم يبلغ الحلم!.. والحال أن يوم القيامة يُفتضح فيه العصاة على رؤوس الأشهاد، فصحف الأعمال المطوية في دار الدنيا وإذا بها قد ﴿نُشِرَتْ﴾.

ومن أعظم ما يوجب الخجل ـ بعد اطلاع الله تعالى على الأعمال ـ هو اطلاع النبي الخاتم صلى الله عليه وآله على أعمال عصاة أمته في محضر الأنبياء السابقين!

١٠ ـ إن من الخصائص المهمة ليوم القيامة هو ارتفاع الحجب عن أعين العباد، فقد عُبر عن السماء التي كانت تحُول بين أهل الأرض وبين أهل السماء، بأنها ﴿كُشِطَتْ﴾ أي رفع الغطاء عنها بعد التصاقه بها، ومن الواضح أن يرى الناظر بعدها ما كان محجوبا عنه من الجنة والنار بل الملائكة، وقد صرحت الآية بهذا الحدث العظيم وذلك بتعبير آخر، وهو تشقق السماء وما يصاحبه من نزول الملائكة، وذلك في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ ونُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾[2].

وهنا نقول: كم حريّ بأصحاب الهمم العالية في الحياة الدنيا، السعي

---

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٩٥.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٥.

لكشف حجاب الغفلة عن قلوبهم بالمراقبة المستمرة والذكر الغالب، ليروا في هذه النشأة ما سيرونه في النشأة الأُخرى، ما دام الأمر في النشأتين ضمن دائرة الممكنات.

١١ ـ إن الرجل إذا كان ذا مكانة بين الخلق فإن العروس تُزفّ إليه وتتزلّف إليه بنفسها؛ وذلك تعظيما لشأنه، وكذلك العكس!.. فالجنة يومئذ كالعروس التي تُزف إلى الزوج ذي الشأن الكبير، ولهذا قال الباري عز وجل في شأن جنته ﴿وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ فالجنة بحورها وقصورها كأنها هي التي تقترب من أهلها شوقا إليهم؛ إذ إنهم الهدف الغائي من خلقتها.

ويستفاد من الآيات بأن الجنة والنار محيطتان بأهل الدنيا، ولكن حجاب المادة مانع من رؤيتهما، كما يستفاد من الروايات أن الحور الآن في كمال الشوق للقاء أزواجهن من أهل الدنيا.. وكم هو الفرق بين الجنة المُزلفة لأهلها، وبين الجحيم المخلوقة قبل نشأة الآخرة، حيث تُهيج نارها ﴿سُعِّرَتْ﴾ استعدادا لبلع أهلها بعد اشتداد لهبها.

١٢ ـ إن هذه السورة من السور المتميزة بكثرة الشروط فيها؛ حيث بلغت الشروط فيها إثنى عشر شرطا، وكلها تنتهي بجواب واحد ألا وهو ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ﴾ ممّا يدل على عِظم أمر المراقبة في الدنيا حذرا من مفاجأة العبد بما لا يسرّه في العقبى، فلو أن عبدا رأى تجسّم عمله من جهة الآثار في الدنيا ـ خيرا كان أو شرا ـ لانضبط في كثير من سلوكه ولم

يحتج إلى كثير موعظة؛ لأنه بكل عمل صالح أو طالح يحقق زادا في دار الدنيا يحضر معه في ذلك اليوم.

ومن هنا صار (العلم) موصوفا بعلم اليقين ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾[1] وصار (العمل) موصوفا بالوجدان إذ قد ﴿وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً﴾[2].

١٣ ـ إن هذه الحالة من وجدان حضور الأعمال إنما هي للجميع ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾[3] وهي تعمّ جهة الخير والشر، ولا يُستبعد أن يرى العبد أعماله في ذلك اليوم بشكل يغاير صورتها الملكية في الدنيا، بل يراها بصورتها الملكوتية، إذ إن تلك الدار دار انكشاف ومعاينة.. ومن هنا فقد يتجلّى أكل مال اليتيم، بالصورة التي ذكرها القرآن الكريم قائلاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً﴾[4].

بل يمكن أن يقال: إنه لو صفَت الحواس في دار الدنيا، فمن الممكن أن تتجلى هذه الصورة فيها أيضا.. فقد روي عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: «**إذا تخلى المؤمن عن الدنيا سما**»[5] ومن لوازم هذا السمو، أن تتكشف له بعض

---

(١) سورة التكاثر: الآية ٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

(٤) سورة الإنسان: الآية ١٠.

(٥) الكافي: ج٢ ص١٣٠.

الحقائق الغيبية وهو في دار الدنيا.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

١٤ ـ إن الآيات التي فيها نفي للقَسَم ﴿فَلا أُقْسِمُ﴾ فُسِّرت بعِدّة وجوه، والأوجه بينها: هو أن الله تعالى يريد أن يبيّن أن الأمر بمثابة من الوضوح لا يحتاج إلى قَسَم في البين، وإنه إن كان ولا بُد من القَسَم فإنه يقْسِم بهذه المذكورات.

وهذا جارٍ في العرف أيضا، حيث يقول الأب: إني لا أريد القَسَم بولدي فإن الأمر كذا وكذا؛ بمعنى أنه لو أردت قَسَما لأقسمت به، وهذا خير من دعوى الزيادة في أداة القَسَم!

١٥ ـ إن العديد من آيات القرآن الكريم تشير إلى الكواكب والنجوم بشكل ملفت للنظر ـ سواء بصيغة القَسَم أو غيرها ـ ومنها ما في هذه السورة من ﴿الْجَوارِ الْكُنَّسِ﴾ والتي يلفّها شيء من الإبهام والغموض من جهة تبيين خنسها ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ أي اختفاؤها وجريانها إلى موضع استقرارها

﴿الْجَوارِ﴾ كاستقرار الحيوان في (كناسه) وهو بيته الذي يأوي إليه ﴿الْكُنَّسِ﴾ ففي هذه الآية صور تشبيهية لما لا تناله أيدينا من الكواكب المتحركة المُفسَّرة بالأنجم الخمسة.

وبالجملة فإن مثل هذه الآيات تريد من العبد أن يلتفت إلى ملكوت السماوات وما فيها من الآيات، وحيث إنها أكبر من خلق البشر؛ فإن في الالتفات إليها صعودا إلى عالم أوسع في أفق التفكير، بدلا من التثاقل إلى الأرض.

١٦ ـ إن قوله تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ﴾ يُشعر بأن النهار مرحلة جديدة من النشاط بعد سكون الليل، فكأنّ النهار كان في ضيق أثناء الليل، وبمجرد انبلاج عمود الصبح تنفّس الصعداء تخلصا ﴿مِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[1]!.. ولكن هذا المعنى إنما هو لنهار كان له ليل، أما الذين قلَبوا ليلهم نهارا؛ فقد لا يعيشون حقيقة هذا الانفراج ببزوغ الفجر.

١٧ ـ إن الأقسام المتكررة في هذه السورة ـ بناء على القسَميّة الصريحة أو المجازية ـ جاءت لتؤكد على حقيقة الأمانة عند جبرائيل ﷷ ﴿مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ويلازمه صدق القرآن الكريم، بل صدق كل ما نزل به الملك الكريم من الوحي، ولا ريب أن تأسيس هذا الأصل ـ أي أمانة حامل الوحي ـ هو أساس لتصحيح الشريعة برمّتها وإسنادها إلى الله تعالى.. ومن

---

(١) سورة الفلق: الآية ٣.

المعلوم إن التشكيك بهذا الأصل، يوجب عدم حجية ما أُلقي على النبي صلى الله عليه وآله من الوحي لاحتمال تسرّب الخطأ إليه.

١٨ ـ إذا كان الرسول المُتمثل بجبرائيل عليه السلام بهذه المزايا التي ذكرتها الآية من: الكرامة، والقوة، والمكانة، والطاعة، والأمانة؛ **فكيف** بمَن أُرسلوا من الأنبياء والمرسلين؟!.. حيث كان أبوهم آدم كان مسجودا له.

ومن هنا نقول: إن الوصي إذا كان امتداد للرسول، فلا بُد وأن يكون فيه الكثير من مزايا الرسول لتتحقق المسانخة بينهما، وهذه المسانخة فيما بينهما أولى من المسانخة بين الرسول وسفير الوحي!

١٩ ـ لو جعلنا الصفات المذكورة متعلقة بالنبي صلى الله عليه وآله كما ذهب إليه البعض ـ ومنها صفة المطاعية ـ فإن هذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وآله مكرّم عند الله تعالى إلى درجة تكون أوامره مطاعة، ومقتضى إطلاق ذلك أنه يعمّ عالم التكوين والتشريع معا، إذ بلغ الأوج في طاعة الله تعالى، وقد نُقل في بعض الكتب(١): أن عمه أبا طالب عليه السلام قال له: «**ما أطوع ربُّك لك يا محمد**»!.. فقال صلى الله عليه وآله له: «**وأنت يا عم لو أطعته أطاعك**»!(٢)

٢٠ ـ إن قوله تعالى ﴿وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ لتدل على سفاهة كثير من الخلق، حيث وصفوا أعقل مَن في الوجود بالجنون!.. ومع ذلك فإن

---

(١) تفسير روح المعانى: ج٤ ص٥٦.

(٢) تفسير روح المعاني: ج ١٠ ص ٣٥٢.

القرآن جاراهم في ذلك، فنفى هذه الصفة عن رسوله، وإن كان هؤلاء القوم دون مستوى أن يحدّثهم رب العالمين في مثل هذا الافتراء العظيم، ويترقى الأمر إلى درجة يُعبر القرآن الكريم بوصف الصحبة في العلاقة بين النبي ﷺ وبين هؤلاء القوم الظالمين قائلاً ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾.

ومن الممكن أن يقال: إن وصف الصحبة ليس من باب تقريب القوم إلى نبيه ﷺ بل للتنبيه على أن هؤلاء عاشروا النبي معاشرة الصاحب لصاحبه، ورأوا منه كمال العقل؛ فكيف تجرأوا على هذه النسبة؟!

٢١ ـ إن آية ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ تدل على كرامة المتلاقيين:

- فمن جهة شُرِّف جبرائيل عليه السلام بأنه رأى النبي ﷺ وهذه الرؤية لم تكن رؤية مجردة ولقاء عابر، بل كان يغلب عليها الأنس والمحادثة.
- ومن ناحية أُخرى فإن النبي ﷺ رأى جبرائيل بالأفق المبين، والمذكور في آية أُخرى في سورة (النجم) بأنه ﴿وهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾[1].

فالفخر أن يصل بشر إلى ذلك الأفق الذي لا يصل إليه بشر بطبيعته البشرية، بل هو مختص بمَن لا يخضع لتأثيرات عالم المادة كالملائكة المقربين.

---

(١) سورة النجم: الآية ٧.

٢٢ ـ إن النبي ﷺ كريم في عطائه المادي كما هو كريم في عطائه المعنوي ﴿وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.. وعليه فإنه يلزم المتأسين به ـ كما هو المأمور به شرعا ـ أن يكونوا كرماء في البُعدين معا، فمَن فتح الله تعالى له بابا من العلم والحكمة؛ عليه أن يشكر حق هذه النعمة ببثها في أهلها لئلا يظلم الحكمة.. وهذا بخلاف ما صار إليه أهل الرهبانية، حيث حبسوا آثار الرهبانية على أنفسهم، فتصومعوا بعيدين عن مواطن التأثير في الآخرين.

٢٣ ـ إن التائهين في صحراء الحيرة والضلالة ينادَون بـ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟!.. فمَثل الذين انحرفوا عن جادة الهدى كقوم تاهوا في ظلمات الحيرة، ومن المعلوم أن سرعة السير لا تزيدهم إلا بعدا!
أضف إلى أن التائه لا يستقرّ على مسير بعينه، بل يغيّر سبيله مرحلة بعد مرحلة، وهذه هي حالة المنحرفين فكرياً كما هو مشاهد خارجاً.

٢٤ ـ إن القرآن الكريم ـ رغم ما فيه من اللطائف والإشارات التي لا يفهمها إلا أهلها ـ هو ذكر للعالمين أيضا ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ فلا يعتذر أحد بأن كتاب الله تعالى فوق مستوى فهم عامة البشر.
ومن هنا وردت الآيات المختلفة الدالة على أنه: بيان للناس، وأنه أُرسل للتدبر، وأنه كتاب مبين، وأنه آيات بينات.

٢٥ ـ إن القرآن الكريم ذِكرٌ لـمن شاء الاستقامة ﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ فليست آياته بمثابة الماء الذي يُطفئ النار بمجرد الصبّ عليه، بل

يحتاج الأمر إلى : عزم الإنسان لتلقّي معارفه ، والعمل بما تلقّاه ، والاستقامة على ذلك العمل ، ولكن هذه المشيئة أيضا مرتبطة بمشيئة الله تعالى ، فهو الذي إذا أراد الخير لأحدهم شرح الله تعالى صدره أولا ، فأراد العبد الاستقامة ثانياً ، فصار القرآن له مذكِّراً ثالثاً.

وهذه خلاصة الآيات الأخيرة ، إذ إن جوهرها بيان الأمر بين الأمرين ؛ فمن ناحية :

- جُعلت المشيئة للعبد لئلا يحتجّ بعدم الاختيار ، إذ تقبح معاقبة المكرَه .
- ومن ناحية أُخرى لم يجعل لهذه المشيئة استقلالية تامة في قبال مشيئة الله تعالى ، لئلا ينقطع سلطانه عن الوجود ، وهو ما عبر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : «**عرفت الله بنقض العزائم وفسخ الهِمم**»[(١)] .

٢٦ ـ إنه من الممكن القول في جميع موارد ربط مشيئة العبد بمشيئة المولى ﴿وَما تَشاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ الله رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ أن المشيئة الإلهية هي المشيئة القاهرة في الوجود بمقتضى الخالقية ، ولكنها من جهة أُخرى تابعة لمشيئة العبد ؛ بمعنى أن العبد إذا أراد الهداية وأمثالها فإن الله تعالى بناؤه على إمضاء هذه المشيئة وتحقيق آثارها .

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٢٥٠.

ومن هنا زاد الله تعالى ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُم﴾[١] وهو الذي يهدي ﴿لِنُورِهِ مَن يَشَاء﴾[٢] وهو الذي ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء﴾[٣] ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء﴾[٤].

---

(١) سورة محمد : الآية ١٧.

(٢) سورة النور : الآية ٣٥.

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٦٩.

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٠.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ .

١ ـ إن هذه السورة ـ كباقي السور التي تناولت يوم البعث ـ تُذكّر بأهوال القيامة المغيّرة لوجه الأرض والسماء، فمنها آيتان في السماء وهما: الانفطار والانتثار، وآيتان في الأرض وهما: التفجير والبعثرة، ويجمع الأهوال الأرضية والسماوية كلها قوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ والسَّماوات﴾[1].

وكأنّ الله تعالى يريد أن ينقلنا في كل هذه الموارد إلى فنائية ما على الأرض ممّا جعلها زينة لها، وكذلك ما في السماء من زينة الكواكب، وذلك لئلا يتعلق قلب العبد بشيء من هذه الأمور الفانية .

٢ ـ إن الكواكب تنتثر يوم القيامة كما تنتثر حبات العقد ﴿وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ فكأن هذه الحبات المجموعة، إنما اجتمعت ببركة هذا الخيط الجامع لنضدها من الجاذبية أو غيرها، فهذا الوجود يحتاج في كل آن

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٤٨ .

إلى ما يجمع شملها وإلا تناثرت أجزاؤها ، بل تلاشت.

ومن هنا يُعلم أن الوجود مَدين في كل آن لله تعالى ، وعليه وجب شكره كذلك في كل آن ، ولكن مَن الذي يمكنه ذلك؟!

٣ ـ تذكر هذه السورة أن البحار تُفجَّر ﴿وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ﴾ كما ذُكر في السورة التي قبلها أنها تُسجَّر ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَت﴾[1] ومن الممكن أن تكون إحدى المرحلتين مقدمة للأُخرى ، والجامع بين الآيتين هو أن البارد السيّال المُطفئ للنار ، يصبح بمثابة الوقود للنار.

وحينئذ نقول : كما أن خواص المواد تتغير في الآخرة ، فإن الذوات أيضا تتبدل عمّا كانت ، فمثلا يتحول الاستكبار الذي ـ هو سِمة للمترفين ـ إلى إذلال وتحقير .

٤ ـ إن الزارع يُبعثر ما في أرض زراعته ، ليستخرج منها ما هو مطلوب لديه من بركات الأرض ، فقيمة الأرض عنده بقيمة ما فيها ، وكذلك الأبدان البشرية فإنها ـ ولو باعتبار المؤمنين ـ أغلى ما في جوف الأرض ، فلا بُد من بعثرة الأرض لاستخراج هذه الدفائن ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ لا لاستخراج كنوزها المادية ـ كما ذكرها البعض[2] ـ فإنها لا قيمة لها في تلك المواقف العظام .

---

(١) سورة التكوير : الآية ٦.

(٢) مفاتيح الغيب : ج٣١ ص٧٣.

٥ ـ إن الآيات ذكرت الحوادث العظام المشعرة بتحقق القيامة ، وفي مقابل كل ذلك ، فإن هناك حدثاً مهماً يريد المولى التذكير به ـ كجواب للشرط المتكرر ـ ألا وهو حدث الأحداث والذي يتمثل بقوله تعالى ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ والمطلوب أن يتكامل العبد إلى درجة يعيش هذه الحقيقة ، بالتصور الذهني اليقيني لهذه الأحداث قبل التحقق الخارجي لها ، وهذا بدوره يتوقف على الترقّي إلى رتبة معاملة المعقول الغيبي ، معاملة المحسوس الشهودي ، وهو لا يكون إلا لذوي الألباب في هذه النشأة .

٦ ـ لو فسّرنا ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ في الآية بما يصل العبد من الأجر ما بعد الموت ، في قبال ﴿ما قَدَّمَتْ﴾ وهو ما يفعله العبد من الصالحات قبل الموت ؛ فإننا سندرك أهمية ما هو في حكم الصدقة الجارية من العلم النافع والولد الصالح ، فإن ما سيُعطى للعبد من الدرجات بعد الموت قد لا يقلّ عما اكتسبه في الدنيا.. ومن هنا كان لا بُد أن يحرص كلٌّ بحسبه في هذا المضمار ، فعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال : «**ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال : صدقة أجراها في حياته ؛ فهي تجري بعد موته ، وسنّة هدى سنّها ؛ فهي تُعمل بها بعد موته ، وولد صالح يستغفر له**»[1].
كما فُسِّرت ﴿أَخَّرَتْ﴾ بتقصير العبد فيما ينبغي أن يقوم به ، فكأنه تأخّر عن العمل الصالح وهذا في قبال ﴿قَدَّمَتْ﴾ حيث وُفّق في تقديم عمل صالح

(١) بحار الأنوار : ج ٧١ ص ٢٥٧.

ليوم جزائه.. وفُسِّرت أيضا : بما قامت به أول العمر وآخره .

٧ ـ يستفاد من مجموع الآيات أن علم العبد بعاقبة أمره في عرصات القيامة ينكشف تدريجيا ، فيَعلم إجمالا أنه من أهل الجنة أو النار ، ثم تنشر الصحف ليقرأ بنفسه كتابه الذي أُلزم في عنقه ، ليكون هو الشاهد والحسيب على نفسه .

٨ ـ إن هذه السورة ـ شأنها شأن باقي السور المكية ـ يُراد منها هزّ المخاطبين بصور التقريع ، وبيان الأهوال المستقبلية ، وإرجاع الإنسان إلى وجدانه.. وقد يُستلهم من ذلك أن مَن يريد إيقاظ البعيدين عن طريق الهدى ، لا بُد له من تحريك البواطن للمحاسبة الذاتية أولا ، وتزهيدهم فيما هم متعلقون به من المتاع الذي لا يزول بنظرهم ثانيا .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

٩ ـ إن هذه الآية ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ من الآيات التوبيخية الجامعة بين : التخويف والمنّة على العباد ، والتذكير بصفات الرأفة والكرم.. فكأنّ الآية تريد أن تقول : إن مَن كانت هكذا آياته يوم القيامة ،

ومَن كان متصفا بالربوبية والكرم، ومَن خلق الإنسان في أحسن صورة[١]، لا ينبغي لأحدٍ أن يكفر به أو بنعمه، أو يَغترّ بكرمه وإمهاله!.. والآية لم تذكر منشأ لهذا الغرور بالرب الكريم، بل أُوكل تقديره إلى العبد نفسه، فقد يجعله البعض :

- كرم رب العالمين الذي أوجب للبعض أن يأمن عذابه.
- تسويل الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.
- جهله بمقام ربه، فقد ورد عن النبي ﷺ عند تلاوته للآية المباركة أنه قال : «**غرّه جهله**»[٢].

ولا يخفى ما في تغيير لحن الحديث من الغَيبة إلى الخطاب في ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ من التأكيد على توجّه العتاب للإنسان، بعد أن كان الحديث حول النفس بنحو الحديث عن الغائب.

ومن الملفت أن الله تعالى وجّه الخطاب للإنسان، ست مرات في الآيات الثلاث[٣]، ممّا يدل على اهتمام المولى في إيصال العتاب إلى الوجدان.

١٠ ـ إن من أقرب أعاجيب الوجود إلى الإنسان هي خلقته الظاهرة له، والمتمثلة بعجائب بدنه، فذكّره المولى بأصل خلقته وإخراجه من ظلمة العدم ﴿خَلَقَكَ﴾ ثم بالتسوية بجعل كل عضو في وضعه اللائق

---

(١) ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ سورة غافر : الآية ٦٤.

(٢) مجمع البيان : ج ١٠ ص ٤٤٩ .

(٣) سورة الانفطار : الآية ٦ – ٨.

﴿فَسَوَّاكَ﴾ به، ثم بالتعديل وتحقيق التعادل بين الأعضاء ﴿فَعَدَلَكَ﴾ ثم التركيب النهائي الذي به تتم الصورة النهائية للخلق ﴿رَكَّبَكَ﴾ ويجمع ذلك كله قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

ومن المعلوم أن ذِكر مجموع ذلك ـ بعد عتاب الاغترار بالرب الكريم ـ أكثر إيجابا للخجل والاستحياء منه!

١١ ـ قيل في آية ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ إن وصف الرب بالكرم ـ أثناء العتاب البليغ ـ كأن فيه تلقيناً للحجة ليقول العبد بعدها: غرني ربي كرمُك!

ولكن هذا الوجه غير سائغ، فإنه منتقم جبار أيضا، أضف إلى أن هذه الآيات أعقبتها جملة رادعة حيث يقول تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ فكأنه يقول: بل أنت ومن حاله حالك، تكذبون بيوم الدين والجزاء، فربوبيته القاهرة وكرمه الظاهر، موجبان للردع عن الاغترار به.

١٢ ـ إن الأعمال محفوظة:

- أولا عند رب العالمين الذي هو محيط من وراء جميع خلقه.
- ومن بعد ذلك الملائكة الحافظة وهم من الكرام الكاتبين.
- ومن بعدها العبد الذي يرى عمله رأي العين.

فالعاصي عليه أن يستحي أولا من ربه، ومن الملائكة المقربين ثانيا؛ لأنها

---

(١) سورة التين: الآية ٤.

موجودات لطيفة تتقذّر من القبائح، وثالثا من نفسه عندما يرى تنزله من عالم الاستخلاف إلى عالم عبودية الهوى.

فقد سئل الكاظم (عليه السلام) عن الملكين: هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يفعله، أو الحسنة؟!.. فقال (عليه السلام): **«ريح الكنيف، وريح الطيب سواء»؟!..** قال: لا، فقال (عليه السلام): **«إنّ العبد إذا همّ بالحسنة؛ خرج نفسه طيّب الريح، فيقول صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم فإنّه قد همّ بالحسنة، فإذا فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده، فأثبتها له.. وإذا همّ بالسيئة؛ خرج نفسه منتن الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين: قف فإنّه قد همّ بالسيئة، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده، وأثبتها عليه»**[1].

١٣ ـ إن الظاهر من الحفظ في ﴿لَحَافِظِينَ﴾ هو حفظ الأعمال بقرينة ﴿كاتِبِينَ﴾ ولكن يحتمل أيضا الإشارة إلى ذلك اللطف الإلهي الشامل لجميع الخلق، حيث جعل ملائكة حافظة لبني آدم من المهالك، وذلك كما في قوله تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[2] ويؤيد ذلك ما روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال في تفسير الآية: **«هما ملكان يحفظانه بالليل، وملكان بالنهار»**[3].. وروي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): **«أنهم ملائكة يحفظونه من المهالك، حتى ينتهوا به إلى**

---

(١) أصول الكافي: ج ٢ ص ٤٢٩، باب (من يهمّ بالحسنة أو السيئة) الحديث ٣.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

(٣) بحار الأنوار: ج ٥٦ ص ١٧٩.

المقادير، فيخلون بينه وبين المقادير»[١].

١٤ ـ إنه لمن اللائق بنا ـ نحن البشر ـ أن نتأسى بالملائكة الكاتبة، فهي لا تكتب إلا ما علمت من أفعالنا، لئلا تكون شاهدة على غير اليقين ﴿يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ فالعبد المطيع لمولاه لا يتفوّه ولا يشهد إلا ما كان معلوما لديه، فإن الظن لا يغني عن الحق شيئا.

١٥ ـ من الممكن أن يقال أن ظاهر ﴿تَفْعَلُونَ﴾ يفيد أن الملائكة لا تكتب إلا أفعال الجوارح؛ لأن أفعال القلوب غيب لا يعلمه إلا الله تعالى، ولكن من الممكن القول: إن المكتوب بيد الملائكة الكرام يشمل أفعال الجوانح أيضا، بإعلام الله تعالى للملكين الكاتبين.

ومهما يكن من أمرٍ فإن اطلاع الله تعالى على الجوانح ـ سواء كان مع إطلاعه الملائكة أم عدمه ـ كافٍ لأن يراقب الإنسان هواجسه الباطنية أيضا، مصداقا لقوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور﴾[٢].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج ٥٦ ص ١٥١.

(٢) سورة غافر: الآية ١٩.

١٦ ـ إن آية ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ تشير بذِكرها للأبرار إلى جهة (البِر) كمبدأ للوصف عند أهل النعيم ولم تشر إلى جهة العبادة مثلا ، وقد يستفاد من هذا التعبير أن جهة الإحسان في أهل النعيم من الملاكات المهمة لدخول الجنة ، وإن كان قبول هذا الإحسان منوطا بالتقوى.

وليُعلم أن كون الأبرار في نعيم ـ بقول مطلق ـ قد يعم الدارين معا ، فيفيد أنهم في راحة دائمة ؛ وخاصة عند التعبير بأن النعيم ظرف لهم ، وقد نقل الرازي في تفسيره عن الإمام جعفر الصادق ﷺ أنه قال : «**النعيم المعرفة والمشاهدة**»[١] وهذا شاهد على أن هذا القِسم من النعيم للأبرار متحقق في الدنيا قبل الآخرة ، وإن كان في الآخرة بشكل أجلى .

١٧ ـ لا يخفى ما في تعبير النعيم من اللطف ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ إذ ينطبق على كل ما يتنعّم به العبد من صور النعيم ، ويقابلهم الفجار الذين اشتق اسمهم من نفس مبدأ الاشتقاق في البحر المسجور ، فقيل عنهم إنهم : «**هم المنخرقون بالذنوب**»[٢] فكأنه فجّر نفسه وخرَّقها ، فتلاشت هيئته المركّبة فزال جماله ، كما يكون الأمر كذلك عند انخراق بدنه ، ومن هنا سمّي الفجر فجرا لأنه يخرق الأفق بالضياء[٣] .

١٨ ـ إنه من الممكن أن نقول بأن الفجار معذبون في هذه الدنيا فضلا

---

(١) مفاتيح الغيب : ج٣١ ص٨٠.
(٢) الميزان في تفسير القرآن : ج٢٠ ص٢٢٧.
(٣) معجم مقاييس اللغة : ج٤ ص٤٧٥.

عن الآخرة ، كما تفيد عبارة ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ إذ إن هذا التعبير ـ الدال على ظرفية العذاب لأهله ـ لا يستعمل في العذاب المستقبلي ، إلا من باب استعمال الحال فيما هو محقق الوقوع.

ويؤيد هذا المعنى أيضا قوله تعالى ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ فإن نار هذا الجحيم ـ بأقل درجاتها في الدنيا ـ تشتد يوم القيامة أو قل : يكتوي العاصي بنارها في ذلك اليوم ، وإلا فإن جحيم البُعد عن الله تعالى وعيشة الضنك في الدنيا ، صورة من صور الجحيم المعجَّلة ، كما يؤيد فعلية العذاب في الدنيا قوله تعالى ﴿وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ﴾ كما قد يستفاد من قوله تعالى ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1] أن العذاب محيط بالكافرين من كل الجهات ، ومنها جهتا الدنيا والآخرة .

١٩ ـ إن ظاهر الخطاب في ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ يدل على أن المخاطب هو النبي ﷺ ، وفي ذلك بيان عظمة ما في ذلك اليوم من صور العذاب ، إلى درجة أُخفيت عن أعظم الخلق ؛ فكيف عن غيره؟!.. والحال أنه أكثرهم ارتباطا بعالم الغيب ؛ فقد رأى من آيات ربه ما وصفه بالكبرى ، ويتأكد التعظيم في درجة هذا العذاب ، من خلال تكرار هذه الآية نفسها مرة أُخرى بعد العطف بكلمة (ثم) .

٢٠ ـ لا يخفى ما في استعمال كلمة (الدين) من إشارة إلى الجزاء الذي

---

(١) سورة التوبة : الآية ٤٩.

هو أهم مَعلم من معالم يوم الفزع الأكبر ، فمحصّل الآية أن ذلك اليوم يوم عظيم سواء من جهة شدة الأهوال ﴿جَحِيمٍ﴾ أو من جهة دقة الجزاء ﴿الدِّينِ﴾.

وقد جرت عادة القرآن الكريم على استعمال صيغة ﴿مَا أَدْرَاكَ﴾ لبيان عظمة القيامة ؛ كقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾(١) و﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾(٢) و﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾(٣)!

٢١ ـ إن حاكمية الله تعالى ثابتة في كل النشآت ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ولكن التجلي الأعظم لها يكون في عرصات القيامة ، حيث إقرار كل من في الوجود بهذه الحاكمية بل معاينتهم لها ، وهذا لا ينافي الشفاعة لأنها في طول هذه الحاكمية المطلقة.

ومن المعلوم أن المؤمن يعيش هذا المعنى في الدنيا قبل الآخرة ؛ ممّا يعطيه حالة من العزة الإيمانية وإن كان ذليلا ظاهرا ، وقد روي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : **«الأمر يومئذ واليوم كله لله ، يا جابر!.. إذا كان يوم القيامة بادت الحكام ، فلم يبق حاكم إلا الله»**(٤).

---

(١) سورة الحاقة : الآية ٣.

(٢) سورة المدثر : الآية ٢٧.

(٣) سورة المرسلات : الآية ١٤.

(٤) مجمع البيان : ج١٠ ص٤٥٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ .

١ ـ إن الله تعالى يُظهر في كتابه رضاه عمّن يريد أن يُثيبه بقوله ﴿طُوبَى﴾[1] فهي تدل على العيشة الهنيئة التي أعدّها الله تعالى لـِمن آمن وعمل صالحا ، وهي تعمّ الهناءة في الدنيا والآخرة.

وفي المقابل فإن القرآن الكريم يستعمل كلمة ﴿الْوَيْلُ﴾ لـِمن يريد أن يُظهر سخطه عليه مهدّدا إياه به.. وغالبا ما يستعملها القرآن الكريم في تهديد المشركين[2] والكافرين[3] والمكذّبين[4] أي أصحاب الانحرافات العقائدية ، إلا أنه استعمل هذه الكلمة أيضا في موارد الانحراف العملي ومنها

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٩.

(٢) ﴿وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ سورة فصلت : الآية ٦.

(٣) ﴿وَ وَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ سورة إبراهيم : الآية ٢.

(٤) ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ سورة الطور : الآية ١١.

﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾[١] و﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٢] و﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[٣].

٢ ـ قد يَعُد البعض التطفيف في الكيل أمرا هيّنا في قِبال المحرّمات الكبيرة، إذ إن ما يوجب التطفيف قد يكون مقدارا من المال لا يُعتنى به، ولكن الآيات الرادعة عن التطفيف فيها وعيد شديد يبتدئ بالويل، وهذا التعبير عادة ما يُستعمل للعصيان الكبير، كالتكذيب بيوم الدين وهو المذكور بعد آيات لاحقة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[٤].

ومن هنا يُعلم أن الله تعالى يولي اهتماما كبيرا لحقّ الناس، إلى درجة نرى معها أن النهي عن هذه الموبقة كان طلبا أساسيا لنبي الله شعيب عليه السلام حينما قال لقومه ﴿وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الارض مُفْسِدِينَ﴾[٥] وقد صارت مخالفة هذا الأمر من موجبات إهلاك القوم.. وعليه، فإن الإفساد في الأرض جرم عظيم في قِبال الكفر بالله تعالى، ولهذا كان جزاؤهما القتل بحسب تفصيله الفقهي.

٣ ـ إن القوم الذين يأكلون المال الحرام بالتطفيف، ستصيبهم تبعات أكلهم للمال بالباطل، ومنها ما ذكره النبي صلى الله عليه وآله في سياق بيان آثار الحرام في

---

(١) سورة المطففين: الآية ١.

(٢) سورة الهمزة: الآية ١.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٧.

(٤) سورة المرسلات: الآية ١٥.

(٥) سورة هود: الآية ٨٥.

الأمم: **«ولا طففوا الكيل إلا مُنعوا النبات، وأخذوا بالسنين»**[1] ولعل التهديد بالويل من أجل تجنيبهم آثار أكل الحرام الذي يستهين به الكثير من الناس؛ لأن أثره ليس محسوسا كشرب الخمر، فقد يتورع البعض عن شرب المسكر ولا يتورع عن أكل الحرام!

ومن هنا أيضا وبّخ الحسين عليه السلام القوم على أكل الحرام، الذي جرّهم لهذه العاقبة السيئة قائلا: **«قد مُلئت بطونكم من الحرام»**[2].

٤ ـ إن المطففين كما ذكرتهم الآية، يجمعون بين صفة الأنانية والحرص على جلب المنافع لأنفسهم، فتراهم عند الكيل لأنفسهم يستوفون حقوقهم كاملة غير منقوصة ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ وبين صفة الغشّ والإخلال الاقتصادي فيُخسرون غيرهم عند الاكتيال ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ وكلاهما صفتان مذمومتان ـ وإن كان الأول لا يصل إلى درجة الحرمة ـ ولكن الذمّ متوجه إلى مجموع هذه الحالة من حب الذات، وخيانة الغير.

ومن الملفت أن الآية ذكرت الفئة المتضررة بتعبير ﴿النَّاسِ﴾ ولم تذكر خصوص المسلمين مثلا، لإفادة قبح هذا الغش مع أيٍّ كان من عباد الله تعالى.

٥ ـ إن الآية وإن كانت متوجّهة للمطففين في جانب المكيل

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٣٧٤.

(٢) تحف العقول: ص ٢٤٠.

والموزون، إلا أن روح الآية من الممكن أن تشمل كل مَن يتعدّى على الغير في تعامله مضيعا حقاً؛ كمَن يتعهد لأحدهم بأن يقوم بعمل بوصف معيّن وفي مقام العمل لا يأتي بما تعهدّه؛ أو كمَن يعتدي على مال الغير عدوانا.

٦ ـ إن الذي يرتكب المعصية وكأنّه ـ في مقام العمل ـ ليس له حتى ظن بيوم الحساب؛ لأن العاقل يحسب حساب الضرر المحتمل، فيرى دفعه لازما عندما يرى أن المحتمَل ممّا يُعتدّ بخطره!

ومن هنا أشارت الآية إلى مرحلة الظن ﴿أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ وإن كان البعض يرى أن الظن هنا بمعنى (اليقين) كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾[1] حيث روي كما في تفسير العياشي عن علي عليه السلام أنه قال: «**يوقنون أنهم مبعوثون، والظن منهم يقين**»[2].

٧ ـ إن الحل الجامع للردع عن كل المحرمات ـ حتى في الخلوات ـ هو ما ذكره القرآن الكريم من تذكّر العرض الأكبر بين يدي رب العالمين ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ وحينئذٍ لا معنى لإمكانية القيام بعمل في الخلوة، وذلك لعدم تحقق مفهوم الخلوة أصلا، بل إن كل ما يفعله العبد في حكم الجلوة ما دام يرى نفسه بعين الله تعالى.

ولهذا تدعو الآية إلى تذكّر القيام بين يدي رب العالمين ردعا للتطفيف، كحرام من المحرّمات التي قد لا يطّلع عليها المتعامل الآخر.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٦.

(٢) كتاب التفسير: ج١ ص٤٤.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ .

٨ ـ إن جهاز الإحصاء عند الله تعالى في غاية الدقة والجامعية ، فسجلّ السيئات متصف :

- بالكتابة ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ وما كتبه الكرام الحافظون لا يعقل في حقهم التفريط .
- بأنه في ﴿سِجِّينٍ﴾ وهو الموضع الجامع لما حكم فيه على الفجار ، سواء كان المراد بذلك الموضع أطباق جهنم أو غيره ، وهو بدوره مأخوذ من السجن بوصف المبالغة ، عكس محل كتاب الأبرار المتمثل بـ﴿عليين﴾.. هذا إن لم يكن قوله تعالى ﴿كِتابٌ مَرْقُومٌ﴾ وصفا لسجين ، وأما إذا كان وصفا له فالسجين هو الكتاب الجامع .

٩ ـ إن الآية ربطت بين التكذيب بالمعاد وبين التوغّل في الإثم ، إذ إن تراكم المعاصي يوجب الرين على القلب ، فيحجبه عن الحقائق الواضحة ومنها المعاد ، فيُكذّب بها تارة ، ويصف آيات الله تعالى بأنها ﴿أَساطِيرُ

الْأَوَّلِينَ﴾ تارة أُخرى.

وقد ورد ما يؤيّد ذلك أيضا في قوله تعالى ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهَّ وكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُن﴾[1] فلا يتبجّح أهل المعاصي بسلامة العقائد عندهم، لأن هذه السلامة قد تزول فيتحوّل ﴿ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ إلى مرحلة يعبّر عنها القرآن الكريم ﴿بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ ومن المعلوم أن القلب ـ وهو مركز القرار في الوجود ـ لو أصيب بالرين، فإن العبد سيتمادى فيما يمارسه من الحرام إلى درجة مفزعة.

١٠ ـ إن الرين مرحلة لاحقة لإصرار العبد على كسب ما لا يُرضي مولاه، فليحذر أهل الإصرار على المعاصي ـ وإن كانت المعصية صغيرة ـ من مرحلة الرين، فقد تتحقق هذه المرحلة فجأة كانفلاق الحجر بعد الطرقة الأخيرة.. وقد ورد في الخبر: «**إنّ العبد إذا أذنب ذنبا؛ نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر؛ صقل قلبه، وإن عاد؛ زادت حتى تعلو قلبه.. فذلك الرين الذي ذكر اللهّ في القرآن**»[2].

وهناك أمور أُخرى متعلقة بالقلوب وهي من سنخ الرين أيضا، فقد قيل: أن الرين هو اسوداد القلب من الذنوب، والطبع أشد من الرين؛ ومعناه أن يُطبع على القلب ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى﴾[3] ومنها الختم على

---

(١) سورة الروم: الآية ١٠.

(٢) تفسير الدر المنثور: ج ٦، ص ٣٢٥.

(٣) سورة محمد: الآية ١٦.

القلوب ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[1].

١١ ـ إن استعمال كلمة ﴿كَلاَّ﴾ في القرآن لها دلالات ملفتة: فهي كلمة واحدة؛ ولكنها تفيد الردع تارة، والنفي تارة أُخرى، وقد تفيد غيرهما، فلها معناها الخاص في كل مورد!.. فمن الممكن أن يقال أن المراد بها في:

- ﴿كَلاَّ بَلْ رانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ هو الردع عن التفوّه بالمقال الباطل، وهو تهمة الأساطير وكأنه في حكم (صه) لِمن يُراد إسكاته بتحقير، وما صدر منهم إنما هو لوجود الرين على قلوبهم.
- ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون﴾ هو الردع عمّا يوجب رين القلب، والذي بدوره يوجب مثل هذا التكذيب في الدنيا، والحجب عن الرب في العقبى.
- ﴿كلا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّين﴾ هو الردع عن التطفيف والتغافل عن يوم الجزاء.

١٢ ـ إن أهل القيامة رغم انكشاف الحجب عنهم، ورؤيتهم العينية لمظاهر جلال الله تعالى وكماله ـ إلى درجة رغبتهم الشديدة في محادثة المولى ـ إلا أن القرآن الكريم يصفهم بـ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فهذه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧.

هي محجوبية القرب من الرحمة الإلهية، ويبيّنه قوله تعالى في موضع آخر ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِم﴾[1] وهذا السنخ من المحجوبية مستمر معهم في القيامة كما كان معهم في دار الدنيا، وإن ارتفعت عنهم باقي الحجب في عالم البرزخ والقيامة.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

١٣ ـ إن كتاب الأبرار في موضع مقابل لكتاب الفجار، فهي جهة عالية عبّر عنها بـ﴿عِلِّيِّينَ﴾ وقد جاء في الحديث النّبوي الشريف: «**عليّون في السماء السابعة تحت العرش**»[2] .. ولكن العليين يشترك مع ﴿سِجِّينٍ﴾ في أنه فوق تصور المتصوّرين؛ ولهذا عبّر عنهما بـ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أضف إلى أن المقدرات فيهما كُتبت بما لا ريب فيه ولا حيف ﴿مَّرْقُوم﴾ لأن كاتبها ـ وهو الله تعالى أو الملائكة ـ لا تنقصه الحكمة ولا المداقة، كما كان التعبير به أيضا عند ذكر السجين.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧٧.

(٢) مجمع البيان: ج١٠ ص٦٩٢.

وليُعلم إن الله تعالى وصف كتاب الأبرار هنا بأنه مشهود لطائفة من المقرّبين، وقد فُسِّرت بالملائكة المقرّبين[١]، كما فُسِّرت بخواص أهل الجنة الذين لهم الحق في مشاهدة صحائف الأبرار[٢].

١٤ ـ إنه من الممكن أيضا إرجاع الضمير في ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ إلى رب العزة والجلال، فالمقرّبون هم قوم رُفعت عنهم الحجب بأجمعها، بما أهّلهم لرؤية جهة الجلال الإلهي، ودرجة هؤلاء فوق درجة الأبرار والملائكة، إذ إنّهم أصحاب تلك العين التي ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُون﴾ والذين يتصدّى لهم ربهم بسقيهم ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾[٣].

١٥ ـ إن أهل الجنة ليسوا على درجة واحدة من التنعّم فالأبرار في نعيم، ولكن المقرّبين لهم نعيم من نوع آخر، حتى أن الشراب المتمثل بخمر الجنة المعد لهم، يختلف عن شراب الأبرار؛ إذ إن مزاج شراب الأبرار من التسنيم ﴿وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ ولكن التسنيم بنفسه هو شراب المقرّبين ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ وليس هذا الشراب بمقدار ما يُصبّ في كؤوسهم، وإنما هو عين تجري فيشربون منها، وأما باقي مزاياهم الخاصة، فلا يستوعبها إلا مَن وصل إلى مقامات النظر إلى وجهه الكريم.

١٦ ـ إن النعيم الحسي الذي يتمتع به أهل الجنة، ينعكس على

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠ ص٢٣٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠ ص٢٣٥.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٢١.

وجوههم على شكل نضرة وبهجة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ وهم في حال استرخاء ونظر إلى ما يجري حولهم من انواع النعيم ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ وقد يكون منها النظر إلى الجمال الإلهي.

ومن هنا يُعلم أنه ليس لكل نعيم بهجة، فما أكثر متع أهل الدنيا ومع ذلك ينطبق عليهم قوله تعالى ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1].. وعليه، فإن النعيم الذي ييسره رب العالمين هو ما يورث الأنس والسعادة في النشأتين، لا نعيم المترفين من أهل الدنيا.

١٧ ـ إن الشراب الإلهي في الجنة مختوم بختام من مسك طيب الرائحة ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ بخلاف ما تُختم به آنية الدنيا من التراب وغيره، وذلك من أجل أن يبقى نقيا من دون غش.

ومن هنا نقول من منطلق هذا النعيم الأخروي: إن الذي يريد التلذذ بلذائذ الوصل في الدنيا؛ عليه أن لا يجعلها مشوبة بشوائبها المعروفة من الرياء، وتصديق الوهم، والغفلة عن التكليف، والتباهي بالمقامات، وغيرها.

١٨ ـ إن اختلاف درجات النعيم في الجنة مدعاة لتنافس أهلها في الدرجات العليا منها ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ وهذا ممّا لا يتيسر إلا في الحياة الدنيا، إذ اليوم يوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

عمل!

ففرق بين شراب يجري من تحت أهل الجنة، كما هي عادة القرآن في وصف أنهار الجنة ومنها أنهار الخمر، وبين شراب التسنيم الذي قيل عنه:

- أنه شراب خاص موجود في الطبقات العليا من الجنة.
- أنّه نهر يجري في الهواء، فينصبّ في أواني أهل الجنّة[١].

١٩ ـ إن التنافس غير مذموم في أصله، ولكنه مذموم بحسب متعلَّقه، فالمولى بعد أن يذكر شيئا من نعيم الجنة، يدعو الناس للتنافس في كسب موجباتها، ومما يعين على هذا التنافس إنما هي الغبطة المحمودة!

ومن المعلوم أن التنافس في مضمار لا نهاية له ـ كمضمار الآخرة ـ ليس فيه غالب ومغلوب؛ وذلك لأن التنافس ليس على أمر محدود يوجب التنازع، أضف إلى أن مقتضى المنافسة هو التسابق أيضا؛ لأن كل متنافس يريد الوصول قبل صاحبه إلى هدفه، وهذا بدوره يوجب سرعة السير في طريق التنافس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ

---

(١) بحار الأنوار: ج ٨ ص ١١٥.

ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

٢٠ ـ إن القرآن الكريم عَدَل عن لفظ الذين كفروا إلى ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ممّا يدل على أن الذي يدعوهم إلى إيذاء المؤمنين هي طبيعتهم الإجرامية المترشحة عن كفرهم، وإلا فقد يكون الكافر مقتصرا في كفره على الكفر الاعتقادي فحسب.

وحينئذ نقول: إن هذه الطبيعة إذا وجدت في نفس من يُظهر الإسلام، فقد تؤدي إلى نفس الأعمال التي تصدر من الكافرين، من الاستهزاء بالمؤمنين وغيرها ممّا ذكر في الآية.

٢١ ـ إن الكفار قوم لا منطق لهم ليحاجّوا به، وإنما ديدنهم الاستهزاء ﴿يَضْحَكُونَ﴾ والإشارة المحقرة ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ والاجتماع على الباطل والسخرية من المؤمنين ﴿انقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ والتعالي بلا دليل ﴿إِنَّ هَؤُلاء لَضَالُّونَ﴾.

إلا أن كل ذلك ينقلب يوم القيامة، لتكون كل هذه المواقف لأهل الجنة في مقابل أهل النار، وهم يتقلّبون في نعيم الجنة متكئين على الأرائك، وحالهم كما يصفه القرآن الكريم ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ إلا أنه في هذه المرة، يكون هذا الاستهزاء موقف حقٍ يمتدحه رب العالمين.

٢٢ ـ إن الآيات التي تذكر تعامل الكفار المجرمين مع المؤمنين، تهيّئ المؤمنين لتحمّل أنواع الأذى من: استهزاء، وتغامز، واتهام، وغيره ممّا لا

يدع مجالا لتوقّع رضا الكفار أو مدحهم.

فالانحراف العقائدي لهؤلاء إضافة إلى طبيعتهم الإجرامية ، لا يدعان مجالا للتقارب بين هاتين الفئتين إلا أن يتبع أحدهم ملة الآخر ، وخاصة أن الآية تشير إلى الجهل المركب للمجرمين ، حيث وصفوا المؤمنين بأنهم على ضلال ﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ﴾ والحال أنهم هم أساس الضلال ، وكم جاء الردع الإلهي في قالب الاستهزاء ، قاصما لهم عند الدفاع عن أوليائه قائلا ﴿وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ﴾ بمعنى أنه لا شأن لكم بعبادنا المهتدين!

٢٣ ـ إن البعض في الدنيا يستعجل عقوبة الظالمين ، والحال أن أمرهم بيد الله تعالى الذي لا يخاف الفوت ، وهو الذي بيده نهايات الظالمين والمظلومين ، وهو الذي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

ومن هنا فإنه مهما تأخر العقاب عنهم ، فهناك يوم ينادي فيه رب العالمين ﴿هل ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وكأن الله تعالى يريد أن يُري انتقامه من الظالمين لأوليائه المؤمنين ؛ مطمْئنا لهم مقابل ما لاقوه منهم أيام حياتهم الدنيا .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾.

١ ـ إن هذه السور تعرض صورا تفصيلية لحالات العباد يوم القيامة ـ سواء المنعّم منهم والمعذّب ـ ممّا يجعل الإنسان يحتقر كثيرا من صور النعيم والسرور في الدنيا، عندما يقارنها بما سيؤول إليه كل ذلك يوم القيامة؛ حيث قال تعالى ﴿إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾[1].

٢ ـ تكرّر في القرآن الكريم ذِكر ما يعتري السماء من الوهن يوم القيامة، فيعبّر عنه تارة بالانفطار ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ﴾[2] وتارة بالانشقاق ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ ولعلّ ذلك لبيان التبدّل العميق في عالم الوجود. فالأرض قد يعتريها التبدّل بالعوامل الطبيعية والبشرية، ولكن السماء بطبيعتها ـ قبل قيام الساعة ـ لا يعتريها ذلك، فكانت مظهرا للقوة

---

(١) سورة الانشقاق : الآية ١٤-١٣.

(٢) سورة الانفطار : الآية ١.

والاستحكام، ومن هنا كان ما ذكر ممّا يجري على السماء، أبلغ في بيان تصدّع الكون وتبدّله!

٣ ـ إن البعض[1] فسَّر الانشقاق بما كان افتراقا بعد التئام، وعليه فإن الالتئام كان أمرا مؤقتا في الدنيا، لإبقاء حركة الكون بما يخدم المعاش البشري، فإذا قامت القيامة لم يعد لهذا الالتئام حكمة توجب سلامة الوجود.

ومن الممكن ـعلى هذا التفسيرـ أن تكون هذه الآية مشيرة إلى مرحلة الالتئام في أول الخلق والمستلزم للتفرّق قبله، وهو ما يشير إليه بعض الفرضيات الدالة على الانفجار الكوني الهائل في المادة الأولى؛ والذي تشكلت منه النجوم والكواكب.

٤ ـ إن القرآن الكريم يُقسِم تارة بالظواهر الكونية المستقرّة في الدنيا مثل ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾[2] وتارة يذكّر بالظاهرة الكونية غير المستقرة في الآخرة مثل ﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ﴾ ليتأمّل العبد في النتيجة المتمثلة بالْمُقْسَم عليه في الأول، وجواب الشرط في الثاني.

والنتيجة في التعبيرين هي واحدة أي ضرورة الانتقال من المحسوس إلى المعقول، أي من العلم بالحال إلى العلم بالمآل، لتكون النتيجة هو العلم بان كل في الوجود ـمستقرا كان أو متبدلاـ إنما هو تحت السيطرة الإلهية

---

(١) التبيان في تفسير القرآن: ج١٠ ص٣٠٧.

(٢) سورة الضحى: الآية ١-٢.

القاهرة .

٥ ـ إن الوجود كله خاضع لله تعالى خضوع العبد الملتفت إلى مولاه ، ولهذا عبّرت الآية عن السماء وكأن لها أذنا سامعة كسمع بني آدم ، حيث قال تعالى ﴿وَأَذِنَتْ﴾ كما تشير إلى أنها جديرة بذلك قائلة ﴿وَحُقَّتْ﴾ وهذه الطاعة والانقياد ليست في ذلك اليوم العصيب فحسب ، بل كان الأمر متحققا كذلك منذ بدء الخليقة ، حيث قالت السماوات والأرض بلسان الحال أو المقال الذي يناسبهما ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1] .

وليُعلم أن الانقياد يوم القيامة أبلغ ، لأن الأمر فيه متعلق بمقام التخريب والتفريق ، لا البناء والتجميع الذي تحقّق في أول يوم.. فكم من القبيح أن يكون ابن آدم هو المتخلّف عن هذا الركب المطيع؟!

٦ ـ إن مدّ الأرض يوم القيامة قد يكون بمعنى : التوسيع في سطحها ليستوعب الخلائق جميعا ، أو بمعنى : تسطيحها وهو يستلزم إزالة الجبال الرواسي ، التي وضعت على الأرض بعد المدّ الأول في أول الخلقة حيث يقول تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾[2] والأرض في جميع ذلك شأنها شأن السماء في أنها مطيعة لربها ، وحق لها أن تطيع.

ومن هنا تكرر هذا التعبير ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ لإفهام أن الوجود كله بسمائه وأرضه ، إنما هو بلون واحد من الانقياد والطاعة .

---

(١) سورة فصلت : الآية ١١.

(٢) سورة الرعد : الآية ٣.

٧ ـ لقد تكرر في القرآن الكريم الحديث عن بعث الموتى يوم الجزاء، بما يُفهم منه: أن الموتى في جوف الأرض وكأنهم أمانات مودعة في باطنها، كما جاء في قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[1] وكما جاء في هذه السورة ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ وعليها أن تُخرج هذه الأمانات لساحة المحشر عند الحساب، فلا يظن ظانّ أن من دُفن في الأرض انتهى أمره وترك ذكره، بعد أن صار رميما!.. بل إن الأرض المطيعة لربها، ستقدّمهم لله تعالى ساعة الحشر كما أخذتهم ساعة الدفن، فالتعبير يُشعر بالمبالغة في تخلية ما في جوفها بما لا يبقى معه جزء ـ ولو صغير ـ من هذه الأبدان حيث قال تعالى ﴿وَتَخَلَّتْ﴾.

٨ ـ إن تعدّد الجمل الشرطية ووحدة الجزاء في مثل قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[2] وكذا في قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ يدل على عظمة المضامين التي تريد الآيات الكريمة إلفات النظر إليها، وهي متمثلة في المجموعة الأولى: بضرورة (الالتفات) إلى النتائج المستقبلية، وفي المجموعة الثانية: بضرورة (المراقبة) الفعلية وهو ما

---

(١) سورة الزلزلة: الآية ٢.

(٢) سورة الانفطار: الآية ١-٥.

غفل عنهما معظم الخلق .

٩ ـ إن هذه السورة ـ كقريناتها من السور المكية ـ تذكّر الإنسان بالنهايات وهو مشغول في البدايات، وهذا هو مقتضى التعقل ، فإن على العاقل ـ مع قطع النظر عن التعبّد الشرعي ـ أن يجعل جهده في مسير يحقق الغاية من أصل مسيره ، ألا وهي مواجهة الحق يوم القيامة من دون تبعة وعتاب، ويلخص هذا كله قوله تعالى ﴿إِنَّكَ كادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ .

١٠ ـ إن القَسَم من دون ذِكر المُقْسَم عليه تارة ، والشرط من دون ذِكر الجزاء تارة أُخرى ـ كما وقع في القران الكريم ـ لمن موجبات تحريك الفكر البشري لتقدير المحذوف المناسب ، وهذا أدعى للتأمّل والتدبّر.

ومن موارد هذه القاعدة ما ورد في هذه الآية التي لم تذكر الجزاء صريحا ، وإن كان ذلك مرتبطا بقوله تعالى ﴿إِنَّكَ كادِحٌ إلى رَبِّكَ﴾ ليكون الأمر أوقع في مقام التأثير والتأثر ، أي الالتفات إلى اللقاء الحتمي ، والذي تشير إليه أيضا آيات أُخر مثل ﴿وَأَنَّ إلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى﴾[1] و﴿وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾[2] .

١١ ـ إن لأهل الدنيا كدح ومعاناة في تحصيل العاجل من المتاع قد يستغرق كل العمر أو جلّه ، وحينئذٍ نقول : أليس من الأولى أن يكون

---

(١) سورة النجم : الآية ٤٢.

(٢) سورة فاطر : الآية ١٨.

الكدح فيما خُلق الإنسان لأجله؟!.. أضف إلى أن كل ﴿كادح﴾ للآخرة سيرى قطعا أثر كدحه فيها، بمقتضى قوله تعالى ﴿فَمُلاقِيهِ﴾ بخلاف الكدح للدنيا، فلطالما خابت أعمال الكادحين لها وفيها!

١٢ ـ إن الآيات الكريمة تشير إلى ضرورة الحركة في هذه الدنيا نحو المبدأ الأعلى، فتارة يرد التعبير:

- بالفرار ﴿فَفِرُّوا إلى اللَّهِ﴾[(١)].
- بالمسارعة ﴿وَسَارِعُواْ إلى مَغْفِرَةٍ﴾[(٢)].
- بالسعي ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[(٣)].
- بالكدح وفيه معنى السير والحركة مع المعاناة والمجاهدة، وهو المُستفاد من الحرف المستعمل في انتهاء الغاية، وذلك في قوله تعالى ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾.

والملفت أن المُخاطب في ذلك هو الإنسان بما هو إنسان، والحال أن البعض يرى بأن الجهاد الأكبر تكليف خاص بخواص المؤمنين.

١٣ ـ إن التعبير بـ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ قد يُستفاد منه ـ بلحاظ أن هذا الحرف يُستعمل لانتهاء الغاية ـ أن انتهاء الكدح يكون بلقاء الله تعالى، فلا معاناة بعد ذلك أبدا، بل إن الذي يتحقق إنما هو ما يقابل الكدح والتمثل

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

(٣) سورة النجم: الآية ٣٩.

بالسعادة والارتياح، وذلك كما لو قيل للزارع مثلا: إنك كادح إلى يوم الحصاد، فانه يفهم منه أنه لا كدح بعد الحصاد.

وفي المقابل فإننا نرى أن معاناة أهل الدنيا لا تنتهي بالموت؛ بل قد تشتدّ بعد الموت، ومن هنا كانت الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن.

١٤ ـ إن الكدح إلى الله تعالى لابُد أن يكون متناسبا مع الغاية الإلهية للخلق؛ فهو إلى الله تعالى كغاية للغايات.. وعليه، فإن الكدح إذا لم يكن إلهيا ما عاد موصلا إليه، وبالنتيجة فإن ما يترتب عليه وهو ﴿فَمُلاقِيهِ﴾ لن يتحقق أبدا، سواء فسّرنا اللقاء هنا:

- بلقاء الله تعالى أي لقاء جزائه.
- بلقائه هو تعالى بالشهود الباطني.
- بلقاء حضوره وحاكميته في عرصات القيامة.
- بمعنى لقاء العمل بمقتضى قوله تعالى ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[1].

وشتان بين كدحٍ للآخرة تكون نتيجته اللقاء مع مَن كان الكدح إليه، وبين كدح للدنيا تكون نتيجته الخيبة والخذلان، وحمل أوزار الآخرين كما يقول تعالى ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ١٣.

١٥ ـ إن اللقاء في هذه الآية ﴿فَمُلاقِيهِ﴾ لقاء لازم لكل مَن يرد المحشر، والكمال كل الكمال أن يسبق هذا اللقاء القهري لقاءٌ اختياري بشوق وإرادة، وهي الغاية القصوى من الخلقة، وهو لقاء مترتب على الكدح لا يتحقق إلا في هذه الحياة الدنيا، فيكون مَثَل هذا اللقاء الاختياري كمَثَل الماء الجاري في قناة محددة للشجرة التي يُراد سقيها منه.

وعندئذ نقول: كم يكون اللقاء القهري جميلا إذا سبقه لقاء اختياري، وهذا يفسّر شوق أولياء الله تعالى للموت؛ لأنه تسريع لهذا اللقاء الذي طالما انتظروه، وكل هذه المضامين من الممكن أن نجدها في وصف أمير المؤمنين عليه السلام للمتقين[1].

١٦ ـ إنه من الممكن أيضا أن تكون هذه الجمل المتعلقة بأهوال القيامة في مقام النصب لكلمة (اذكر) المقدّرة، وعلى هذا التقدير أيضا فإن الأمر فيه ما فيه من التأكيد على عظمة ما تريده الآية من التذكير، وخاصة إذا قدّرنا أن المخاطب هو النبي الأعظم صلى الله عليه وآله الذي هو على أعلى درجات الذِكر!

ومن المعلوم أن الذي يتلو القرآن الكريم لا بُد أن يكون في درجة عالية من الالتفات، عملا بالأمر الإلهي بالتذكر، وإلا فما فائدة التلاوة المجردة من التأمّل؟!

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣ (في وصف المتقين).

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

١٧ ـ إن هذه الآية تبيّن صنفين من أهل المحشر، وهم: المؤمنون الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ﴿أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ والكافرون غير المعترفين بالحشر الذين يأخذون كتبهم من وراء ظهورهم ﴿أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ﴾ إما من باب:

- طمس الوجوه وإرجاعها إلى الخلف ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾[1].
- إنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم ثم يخفونها وراء ظهورهم؛ فصدق هذا العنوان عليهم.

ومن الممكن القول: بأن هناك صنفا ثالثا هم عصاة المؤمنين، يأخذون كتبهم بشمائلهم؛ فكانوا في قبال الصنفين الأولين.

١٨ ـ إن الحساب اليسير في قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً﴾ قد يكون:

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٤٧.

- بعرض الكتاب على صاحبه بما فيه من السيئات من دون مداقة فيه ؛ فيصدق عليه الحساب من جهة ، واليسر من جهة أُخرى .
- وقد يكون من جهة التجاوز عن السيئات أو تبديلها إلى الحسنات إما : ببركة الشفاعة ، أو فعل ما يوجب التيسير في الحساب ، فقد جاء في الحديث الشريف : «**ثلاث من كنّ فيه ؛ حاسبه اللهّ حسابا يسيرا ، وأدخله الجنّة برحمته..** » قالوا : وما هي يا رسول اللهّ؟!.. قال : «**تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمّن ظلمك**»[١] .

١٩ ـ إن هناك فرقا كبيرا بين رجوع المؤمن إلى أهله يوم القيامة وبين غيره ، فالمؤمن يرجع إلى أهله ليعيش معهم أبد الآبدين في سرور وحبور ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ سواء فسّرنا ذلك بأزواجه من الحور العين المنتظرات لقدومه ، أو بزوجته وأولاده الذين يلحقون به في الجنة ، أو بالمؤمنين الصالحين من قرنائه ، فإنهم في حكم أهله لسنخية الإيمان.

وهذا كله بخلاف سرور الكفار فإنه سرور تصرّم في الدنيا وأعقبه حزن دائم ، لمفارقته لـمن كان مسرورا فيهم حيث أسلموه لنفسه ، فما الفائدة في أنه ﴿كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ و﴿كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾[٢] بصيغة الماضي والحال أنه الآن ﴿يَصْلى سَعِيراً﴾ بصيغة المضارع داعيا على

---

(١) مجمع البيان : ج١٠ ص٦٩٩.

(٢) سورة غافر : الآية ٧٥.

نفسه بالويل والهلاك ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً﴾.

٢٠ ـ إن سرور المؤمن في الدنيا سرور له ما يبرّره صدقا وواقعا، وذلك لأن ما يوجب له السرور هو فضل من الله ورحمة، فسروره برضا الرب أكثر ممّا يكشف عنه من النعمة النازلة عليه ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ ممّا يَجْمَعُون﴾[1] وكأن ما أوجب لهم السرور هو ما كان كاشفاً عن رضا الله تعالى عنهم.

وهذا كله بخلاف سرور أهل الدنيا؛ فإنه أقرب إلى المرح المقترن بالغفلة، ولذا عبّر عنه القرآن الكريم بأنه بغير حق حيث قال تعالى ﴿ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[2].. فأي قيمة للباطل وإن كان في قالب السرور؟!

٢١ ـ إن كان تقسيم الكتب يمينا أو شمالا أو من وراء الظهر واقعا في جمع أهل المحشر؛ استلزم ذلك الفضيحة أمام الأشهاد وهو ما كان يتحاشاه العبد في الدنيا، أضف إلى أن تغير الوجوه واسودادها الظاهر للعيان والدال على سوء عاقبة أهلها[3]، فضيحة أُخرى من فضائح القيامة أمام الخلائق، وهذا بدوره عذاب نفسي للعصاة قبل دخول النار أيضا.

٢٢ ـ إن من موجبات السرور والمرح الباطل؛ هي الغفلة عن اليوم

---

(١) سورة يونس: الآية ٥٨.

(٢) سورة غافر: الآية ٧٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٦.

الآخِر، وكذلك الجهل بالجزاء المُبهم الذي ينتظر أهله، ومن هنا فإن أول ما وصفهم به القرآن الكريم هو ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي لا يرجع إلى الله تعالى، وقد ورد في الخبر: «**ليس العيد لـِمن لبس الجديد، وإنما العيد لـِمن أمن الوعيد**»[1]!

وعليه، فلو طرأ على العبد ما يوجب له السرور الكاذب، فما عليه إلا أن يتذكّر هول ما هو مُقدِم عليه أولا، ومراقبة الله تعالى له ثانيا، حيث قال تعالى ﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ ليعود إلى رشده.. وقد ذُكر الأمران في هذه الآيات معا كمُزيل لمثل هذا السرور؛ ألا وهو تذكر أنه يرجع إلى الله تعالى، وأنه بصير به.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾.

٢٣ ـ إن القَسَم بالشيء وإن كان جمادا كالشفق، والليل، والقمر؛ يعود إلى القَسَم بربها، وذلك فيما لو تحققت النظرة إلى آيتيتها لعظمة الرب؛

---

(١) نهج البلاغة: ٨٥٢.

فلا داعي للجمود على مقولة أنه لا يصح القَسَم بغير الله تعالى، فكل ما في الوجود منتسب إليه، فالنظر إليه يعود في الحقيقة إلى النظر إلى مُوجده، وهذا يفسّر أنس المؤمن أُنسا واعيا بالطبيعة، كأنس المحب بهدايا محبوبه.

٢٤ ـ إن طبيعة البشر قائمة على عدم الالتفات التفصيلي إلى ما حوله من آثار قدرة الله تعالى ورحمته، ومن هنا جاءت الآيات الكثيرة التي تقسِم بما حولنا من الأمور التي ألفناها من دون التفات إلى حكمتها، فمَن منا يلتفت إلى نعمة جامعية الليل للمتفرقات ولّمها للمنتشرات، لعودة كل متحرك إلى سكنه ووكره، مستعيدا أنفاسه لصباح جديد، وهو ما يُستفاد من قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ﴾.

٢٥ ـ إن الآية لم تقسِم بأصل القمر وإنما باتساقه ﴿إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي بلوغه تمام الإضاءة ليلة البدر، فكأن القمر إنما يصبح قابلا لأن يُقسَم عليه إذا بلغ كماله وهو تمام نوريته، ومن المعلوم أن كمال كل شيء بحسبه.
وعليه نقول: بأن تمامية القمر ظرفا زمانيا للقَسَم به، يحاكي تمامية خلقة آدم عليه السلام حيث لم يأمر الله تعالى الملائكة بالسجود له، إلا عندما نفخ فيه من روحه.

٢٦ ـ إن هذه الآيات جاءت لتؤكد على هذه الحقيقة التي أشارت إليها الآية اللاحقة وهي ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ والتي اختُلف في معناها بوجوه عديدة وذلك بالإشارة إلى: حالات الإنسان في مجموع الدنيا، أو حالاته في مجموع الدنيا والبرزخ والقيامة، أو حالاته في مجموع عرصات

القيامة.

والجامع بين كل الأقوال: هي سرعة التبدّل وكثرته في حياة الإنسان، بما يدّل على أن هناك يدا خفية وراء كل ذلك وهي التي تقلّب هذه الأحوال، فلا بُد من الالتجاء إليها لتحويل الحال إلى أحسن الحال!.. أضف إلى أنها داعية للمرء ليكون حريصا على إيصال نفسه من خلال كل هذه التقلبات إلى كماله المنشود، فلا يركن لما هو فيه فإن: «**المغبون مَن تساوى يوماه**»[1]!

٢٧ ـ إن تبدّل الأحوال من العسر إلى اليسر ـ وهو من لوازم طبقية حياة الإنسان المستفادة من الآية ـ يبعث في قلب صاحبه الأمل، فإن عدم ثبات المراحل هي في حد نفسها نعمة من هذه الجهة، بل لو افترضنا أن العمر كله استغرق بالعسر؛ لما كان ذلك مدعاة للتبرّم، ما دام العبد ينتظر مرحلة البرزخ والقيامة، والتي فيها كمال التعويض عن كل ضيق في هذه الدنيا.

٢٨ ـ إن للسجود مظهرا ماديا من وضع المواضع السبعة على الأرض، ومظهرا معنويا يتمثل في إظهار الانقياد له، وقد يكون الأنسب لآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ هو المظهر الثاني، إذ ليس المطلوب هو السجود عند كل آية من آيات الكتاب الكريم، فالآيات الموجبة للسجود في القرآن الكريم محدودة، بل المراد هو الانقياد لمضامينها

(١) معاني الأخبار: ص٣٤٢.

في كل ما فيه أمر ونهي.

ومن هنا نقول عن الذي يسجد ببدنه دون انقياد قلبي : إنه لم يصل إلى حقيقة السجود الذي أُمرنا به .

٢٩ ـ إن هناك فرقا جوهريا بين موقف أهل الإيمان قبال آيات الله تعالى ، وبين أهل الكفر والنفاق ، وذلك أن المؤمنين :

- ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1] والحال أن من يقابلهم ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ .
- ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[2] ومن يواجههم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ﴾[3] .

٣٠ ـ إن القرآن الكريم يؤكد في آيات كثيرة على أن إصرار الكافرين على كفرهم ـ ولو في بعض حالاتهم ـ ليس ليقينهم بما هم فيه ، أو لقصور في بيان الوحي؛ وإنما هو لعنادهم ، أو اتباعهم لنهج آبائهم ، أو تغليبا لمصالحهم.. ومن هنا ورد التعبير بـ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ فالتكذيب جهد العاجز ، لا دليل المستبصر بيقينه.

وقد انتقلت الآيات من لحن الخطاب إلى لحن الغيبة ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ اعراضا عنهم ، فلا يستحقون الخطاب والمواجهة .

---

(١) سورة مريم : الآية ٥٨.

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢.

(٣) سورة التوبة : الآية ١٢٥.

٣١ ـ إن الله تعالى يُشير كثيرا في كتابه إلى حقيقة اطلاع الله تعالى على بواطن العباد، فهو الذي يعلم ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[١] وهو الذي ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٢] وهو الذي يعلم ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[٣] ويذكر في هذه الآية أنه ﴿أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ وفي كل ذلك دعوة لمراجعة الإنسان لخلجانات نفسه، وعدم الاكتفاء بالنظر إلى جوارحه، فالقلب هو الوعاء الذي يصدر منه ما يفيض منه، مصداقا لما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة: «**إنّ هذه القلوب أوعية؛ فخيرها أوعاها**»[٤]!

ومن المعلوم أن الوعاء المطلوب في عالم القلوب، هو ما كان جامعا لكثرة الاستيعاب أولا، وحسْن ما يستوعبه ثانيا.

٣٢ ـ إن الله تعالى كما يُبشّر الكفار بالعذاب ـ وفيه ما لا يخفى من التهكم والتوبيخ؛ إذ البشارة إنما هي في مورد الأخبار السارة ـ كذلك فإنه يبشر المؤمنين بالأجر الكريم ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٥] والأجر العظيم ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٦] والأجر الكبير ﴿أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٧]

---

(١) سورة ق: الآية ١٦.

(٢) سورة طه: الآية ٧.

(٣) سورة غافر: الآية ١٩.

(٤) نهج البلاغة: ٤٩٥.

(٥) سورة الحديد: الآية ١١.

(٦) سورة الإنسان: الآية ٧٤.

(٧) سورة هود: الآية ١١.

وأنه أجر ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[١] فهو غير منقطع، وليس فيه شائبة المنّة وهو ذكر ما يثقل على المأجور، وهاتان الآفتان ـ في أجور أهل الدنيا ـ ممّا يكثر وقوعه أي الانقطاع، والمنّ.

٣٣ ـ إن القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل ثنائي الإيمان والعمل الصالح، حال كونه جمعا محلى بألف ولام التعريف، وهو الذي يفيد العموم بأعلى صوره!.. إذ إن من المعلوم أن الفلاح الكامل يتحقق بإتباع جميع الأوامر، والإتيان بجميع الصالحات مقترنا بالإيمان، إلى درجة يجعل القرآن الكريم الخشوع في الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٢] وهو نفل غير فرض، من مقومات هذا الفلاح، ومن الواضح أن درجة هذا الفلاح تتناسب طردا مع درجة الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) سورة فصلت : الآية ٨.

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٢.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

١ ـ إن القرآن الكريم يُكثر من القَسَم بآياته السماوية من: الشمس، والقمر، والنجوم، ومنها ما في هذه السورة من ﴿الْبُرُوجِ﴾ أضف إلى التذكير بأصل السماء الجامعة لكل هذه الأجرام بقوله ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِين﴾[1].

ولعل السر في ذلك: إنها في متناول كل من يريد التأمّل فيها، فيكفي أن يرفع الإنسان رأسه إلى جهة العلو ليرى كل ذلك، إضافة إلى أنها مظهر العظمة اتساعا وعمقا، وهو تعالى المستفرد في التصرف فيها، لأنه خارج سلطان البشر الذين يمكنهم الإفساد في الأرض دون السماء.

---

(١) سورة الحجر: الآية ١٦.

٢ ـ قيل[1] في تفسير البروج أنه مواضع النجوم، ومن المعلوم أن الدقة والحكمة في مواضعها ليست بأقل من أصل وجودها، فلو زالت عن مواضعها لتغيّر نظام الكون الأكمل: كتوالي الفصول، ومدّ البحار وجزرها وغيرها؛ وحينئذ يتجلى لدينا أن هذا الفعل ـ كباقي مصاديق الخلقة ـ واقع في موقعه مطابق للحكمة البالغة.

والملفت أن الله تعالى ـ بعد ذِكر جعله للبروج ـ يذكر القيامة وما فيها من انتقام الله تعالى من الظالمين بعد طول إفساد، ومنه يُعلم أن الحكمة وراء وضع الأبراج في مواضعها، هي بنفسها تقتضي الاقتصاص من الظالمين أيضا، ليكون كل شيء في موضعه، سواء في عالم التكوين أو التشريع.

٣ ـ إن تخصيص القيامة بالذكر ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ بعد ذكر عنصر من عناصر النشأة الأولى ﴿وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يُشعر بأن كل ما يجري على المؤمنين من صنوف الأذى إنما هو بنظر مَن الوجود كله بين يديه، فما يعيشونه من الأذى في ذات الله تعالى لا يذهب سدى، فهو الذي يُمهل ولا يُهمل.. وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف ما جرى لأصحاب الأخدود: «**فجاءت امرأة معها صبي لها ابن شهر، فلما هجمت هابت ورقت على ابنها، فنادى الصبي: لا تهابي، وارميني ونفسك في النار؛ فإن هذا والله في الله قليل، فرمت بنفسها في النار وصبيها، وكان ممّن تكلم في**

---

(١) التبيان في تفسير القرآن: ج٨ ص٤٦٠.

المهد»[١].

والتعبير باليوم الموعود يُشعر بما تطيب معه نفوس المنتظرين، فكأنّ الله تعالى جعل ذلك اليوم يوما موعودا ينتظره أولياؤه، تسكينا لما يطلبونه من طلب تعجيل العقوبة على الظالمين لهم.

٤ ـ إن من غرائب القرآن الكريم، هو أن لفظة واحدة فيه تصلح لعشرات الاحتمالات، ففي آية ملك سليمان عليه السلام استخرج بعض المفسرين عدد المحتملات فيها إلى ما يقرب من ألف ألف ومائتين وستين ألف احتمال[٢]، ومنها هذه الآية ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ والتي فيها من الوجوه المحتملة ما بلغت عندهم الثلاثين، وقلّما نجد مثل قابلية الانطباق هذه في غير القرآن الكريم.

ومن أنسب الوجوه المذكورة فيها هو تفسير الشاهد بالنبي صلى الله عليه وآله لقوله تعالى ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً﴾[٣] والمشهود بيوم الجزاء لقوله تعالى ﴿ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[٤].

٥ ـ فُسِّرت[٥] الشهادة في ﴿وَشَاهِدٍ﴾: تارة بمعنى الحضور والمعاينة،

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٧٠٧.

(٢) تفسير الميزان: ج ١ ص ٢٣٤.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤٥.

(٤) سورة هود: الآية ١٠٣.

(٥) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠ ص ٢٤٩.

وتارة بمعنى شهادة الشاهد لإحقاق الحق وأداء ما حمّل من الشهادة، وعلى كلا المعنيين يتبين مقام النبي الأكرم ﷺ الذي يعاين أعمالنا سواء أيام حياته أو وفاته ثم يُقيم الشهادة علينا، وهذا بدوره من موجبات التهديد للمعاندين، والخجل للمحبين، إذ إن ما نقوم به يبلغه ويؤذيه.

وكفى في ذلك ردعا لمن كان في قلبه حب النبي ﷺ فكيف يرضى المحب بأذى من يحبه إن كان صادقا في حبه؟!

٦ ـ إذا كانت عبارة (أصحاب الأخدود) في قوله تعالى ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ إشارة للمؤمنين المقتولين فإن الآية تكون إخبارا عما وقع عليهم، وإن كانت إشارة للكافرين للقاتلين كانت دعاء عليهم!.. وقد استعمل القرآن هذا الأسلوب من الدعاء على الغير في أكثر من مورد مثل قوله تعالى﴿قُتِلَ الْإِنسانُ ما أَكْفَرَهُ﴾[1] و﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾[2] وكأنّ الله تعالى ـ وهو الفاطر لهم بيد عنايته ـ لا يرى لهم استحقاقا لاستمرار الحياة على أرضه التي جعلها لخلفائه؛ لأنهم خارجون عن أصل الهدف من الخلقة، فيدعو عليهم بالموت الذي هو في مقابل الحياة، وشتان ما بين الدعاء بالموت والوعد بالإحياء حياة طيبة ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[3]!

وهذا الأمر قد ينطبق ـ بدرجة من الدرجات ولو النازلة ـ على الكثيرين من

---

(١) سورة عبس: الآية ١٧.

(٢) سورة الذاريات: الآية ١٠.

(٣) سورة النحل: الآية ٩٧.

غير أصحاب الأخدود، من جهة أن حياتهم ليست تجسيدا لما خُلق له الإنسان؛ ألا وهي خلافة الله تعالى في الأرض.

٧ ـ إن جريمة أهل الأخدود كانت من أشنع ما وقع على المؤمنين، وذلك لأمور، منها أنهم:

- شقّوا لهم أخدودا في الأرض، لئلا يتمكنوا من الهرب.
- ألقوهم في حفرة وهم شهود وقعود حولها، يعاينون ما يجري على أهلها ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ فجمعوا بين التحقير والتعذيب.
- بالغوا في تأجيج النار التي وصفها الله تعالى بأنها ﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ المشعرة بأنها نار مستمرة في اشتعالها؛ لما فيها ممّا يوجب اتقاد النار اتقادا.
- انتقموا منهم لا لأمر يعود إلى ذواتهم؛ وإنما تحدّيا منهم لله الواحد القهار إذ يقول ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهذا نظير ما وقع لطائفة أُخرى من المؤمنين ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّه﴾[1].
- إضافة إلى أن القتل بالنار من أبشع صور القتل؛ لأنه موت تدريجي مع ما يوجبه من بشاعة منظر المحترق بها!.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٩.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

٨ ـ بعد ذِكر الآيات الأولى ـ من هذه السورة ـ لصورة من صور المواجهات القاسية، بين المؤمنين وقتَلَتِهم الذين بالغوا في القسوة وذلك بالقتل حرقا، فإن الله تعالى في هذه الآيات يذكّر النبي ﷺ بصورتين أُخريين من صور المواجهة مع المؤمنين تتمثل في بطش فرعون وثمود، وذلك من خلال مظهرهم العسكري ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ فاختار القران الكريم من بين مظاهر قدرتهم، خصوص الجانب العسكري الذي يتجلى من خلال بطش جنودهم بالعباد، ولكن الله تعالى أهلكهم بما لا يخطر بالبال؛ متمثلا بالماء لقوم فرعون والهواء لقوم ثمود.

ومع ذلك فإن كفار قريش لم يعتبروا بذلك بل هم ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ فكأنّ الكذب كان ظرفا لهم ومحيطا بهم إحاطة الإناء لما فيه، وهذا إشعار باليأس من إيمانهم كما كان الواقع مؤيدا لذلك.

٩ ـ إن الأقسام القرآنية هي للتأكيد على ما سيأتي بعدها من المُقْسَم عليه، إلا أن القرآن الكريم يُبهم في بعض الموارد جواب القَسَم؛ ليبحث

المتأمّل بنفسه عن الجواب، زيادة في سوقه إلى عالم التدبر والتأمل في كتاب الله تعالى.

ومنه ما جرى في هذه السورة: إذ إن جواب القَسَم غير صريح ولكن يدل عليه قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ﴾ فكأن المُقسَم عليه هو تحقق الانتقام الإلهي يوم القيامة بأشد صوره وبما يناسب الفعل تناسبا طرديا، ومنه عذاب الحريق لأصحاب الأخدود ﴿وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ﴾ أي بنار أوقدوا مثلها في الحياة الدنيا.

١٠ ـ إن الله تعالى ذكر التوبة بما يشعر بالإغراء بها في قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ وذلك ضمن آية واحدة ذَكر الله تعالى قبلها تعذيب الكفار للمؤمنين ﴿فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ ثم ذَكر بعدها صورة من صور التعذيب الإلهي لهم ﴿فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ﴾ وهذا كله يعكس مدى الرحمة الإلهية بالعباد، بعد أن فتح باب التوبة للعتاة من خلقه، وكأنّ الآية تريد ردع كفار قريش عن غيّهم، وتعدهم بالتوبة لو رفعوا اليد عن تعذيب النبي ﷺ وأصحابه.

وحينئذ نقول: فكيف ييأس من رحمته تعالى، من كانت له ذنوب لا ترقي إلى رتبة تعذيب المؤمنين وقتلهم؟!

١١ ـ إن ذِكر عذاب الحريق في قبال عذاب جهنم؛ يدل على أن عذاب جهنم لا ينحصر في النار بل هناك:

- المشروب الذي ﴿يَتَجَرَّعُهُ ولا يَكادُ يُسيغُهُ ويَأْتيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكان﴾[١].
- المطعوم المتمثل بـ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعامُ الأَثِيم﴾[٢].
- التعذيب النفسي حيث يقال لهم ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُون﴾[٣].

وغيرها من صور العذاب ـ غير الإحراق ـ ما يكفي لإفزاع العصاة ؛ فكيف إذا أضيف إلى مجموع ذلك عذاب الحريق الذي لا ينتهي بتفّحم أبدانهم ، بل تتبدل جلودهم كما في قوله تعالى ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ﴾[٤].

وقد يكون المراد في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ بعد ذِكر البطش الشديد ، الإشارة إلى هذه الحالة من تبدّل الجلود ، فيبتدئ خلق جلد جديد ثم يعيده ، استمراراً للعذاب إلى أن يشاء الله تعالى .

١٢ ـ تتجلى الحكمة الإلهية في القرآن بمرادفة النعيم للجحيم ، فالإنسان لا بُد أن يكون دائما بين الخوف والرجاء ، ومن هنا جاءت آية النعيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ١٧ .

(٢) سورة الدخان : الآية ٤٣ – ٤٤.

(٣) سورة المؤمنون : الآية ١٠٨.

(٤) سورة الإنسان : الآية ٥٦.

الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ بعد آية العذاب مباشرة، للموازنة بين الترهيب والترغيب، وهذه هي السياسة العامة التي يتبعها القران الكريم في تربية العباد، وحقّ لنا أن نتأسى بها في سوقهم إلى الله تعالى .

١٣ ـ إن إطلاق الصالحات في آيات كثيرة؛ مدعاة لعدم الوقوف على سنخ واحد من العمل الصالح كما يفعل البعض، كما أن العمل الصالح لا يشفع لصاحبه إذا لم يكن مقترنا بالإيمان أيضا.. أضف إلى أن إطلاق الإيمان يقتضي الإيمان في كل الأمور التي يطلب فيها أن يكون المؤمن مؤمنا، فلا يقبل إيمانُ من يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

ومن المعلوم أن للإيمان معنى يغاير الإسلام كما هو واضح في آية ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1] فإذا لم يكن الإيمان المتجزئ مجزيا، فكيف بالإسلام المتجزئ؟!

١٤ ـ إن البطش ـ وهو التعبير المناسب لمقابلة عمل الجبارين ـ هو الأخذ بحزم وصولة، وهو ممّا يعطي رباطة الجأش لقلب النبي ﷺ ومَن معه بمعنى أن صاحب البطش بالكافرين هو صاحب المودة لأوليائه المؤمنين ﴿الْوَدُودُ﴾ وهو ﴿فَعَّالٌ﴾ لا يقف أمام إرادته شيء.

ومن الممكن القول بارتباط هذا التعبير بما ورد في السورة من مضامين أُخرى: فهو صاحب البطش الشديد بأعدائه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٤.

وصاحب الود والمغفرة لأوليائه ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ وصاحب المجد والغلبة في ذاته ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وصاحب العرش المشعر بحاكميته في الوجود ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾.

وهذه المضامين ـ بمجموعها ـ تؤكد على حقيقة أن الله تعالى ماض في حكمه : إرضاء للمؤمنين من ناحية، وإرغاما للكافرين، وإظهارا لعظمة ذاته من ناحية أُخرى.. فكم الآيات محكمة في سبكها، رائعة في الوعد والوعيد!

١٥ ـ إن على المتأمل أن يرى المقابلة بين فعل الله تعالى، وبين ما يصدر من أعدائه :

- فهم الذين شهدوا قتل المؤمنين ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ والله تعالى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .
- وهم الذين أوقدوا نارا ذات وقود لتعذيب الصالحين ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ والله تعالى هو صاحب ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ .
- وهم الذين انتقموا من المؤمنين في دار فانية ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ والله تعالى سينتقم منهم ببطشه الشديد في دار الخلود ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ .
- وهم الذين سجّل الله تعالى ذمّهم في كتاب يُتلى إلى يوم القيامة، ولكنه في المقابل يمدح عاقبة أوليائه بوعده لهم في أنه سيدخلهم جنات الخلود ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذلِكَ الْفَوْزُ

الْكَبِيرُ﴾.

١٦ ـ إن الله تعالى ذكر أسماء جلاله وجماله وصفات جارية عليه، في سياق ذكر هذه الواقعة، ولا يخفى ما في ذلك من المناسبة مع ما تصدّرت به السورة، من ذِكر الذين تحدوا سلطان رب العالمين بتعذيب أوليائه فهو :

- ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالبه شيء في هذا الوجود.
- ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ عند الانتقام من قتلة المؤمنين، بل لكل ما تقتضيه حكمته البالغة.
- ﴿الْحَمِيدِ﴾ الذي هو أهل لكل حمد، والمستلزم لتكريم أوليائه بدلا من إيذائهم.
- ﴿الْمُلْكُ﴾ فما كان ينبغي أن ينازعه أحد في سلطانه، ومنه قتل أوليائه.
- ﴿شَهِيدٌ﴾ فلا يغيب عنه ذرة في الأرض ولا في السماء؛ فكيف يغيب عنه ما صدر من الجبارين في حق المؤمنين.
- ﴿الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ لعامة عباده، ولخصوص الذين أوذوا في سبيله، ومنهم أصحاب الأخدود.

١٧ ـ تكرر في القرآن الكريم معنى إحاطة الله تعالى بالأشياء والأشخاص والأفعال، ومنه ما في هذه السورة ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ﴾

وما في سورة أُخرى ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

ومن المعلوم أن العبد لو استحضر هذه الحقيقة في كل تقلباته، لوصل إلى مرحلة العصمة النازلة أو العدالة العالية، فلا يصدر منه العصيان وهو مستشعر لهذا الحضور الإلهي.

فكما أنه لا يعقل أن يكشف المرء عن سوأته وهو يعلم بوجود ناظر محترم عنده، فكذلك الأمر في العبد المراقب لربه، فإن المعصية لديه بمثابة انكشاف السوءة الباطنية عنده؛ والتي حصلت لأبينا آدم (عليه السلام) ﴿فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنة﴾[2].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة طه: الآية ١٢١.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾.

١ ـ إن القرآن الكريم كثيرا ما يدعو الإنسان للنظر إلى ما فوقه من السماء والنجوم، وذلك للانتقال من مألوف الأرض إلى غريب السماء!
وقد ذكر ـ في هذا السياق أيضا ـ ذلك النجم الذي يثقب ظلام الليل، وقد فخّم القرآن أمره بقوله ﴿وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ﴾ وهو الاستعمال الوحيد لغير أحداث القيامة وليلة القدر في مثل هذا التعبير؛ أي استعمال صيغة ﴿وَما أَدْراكَ﴾ في عنصر مادي من عناصر هذا الوجود، وهو يكشف عن عظمة هذا النجم!

٢ ـ ما الذي يمنع مَن يخرق ظلمة الليل بذلك ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ فينير ظلمته، من أن يخرق ظلمة النفس فينير ما أظلم منها، إذ إن يد القدرة الإلهية واحدة في الجميع.. فلِمَ اليأس من العناية الإلهية في غمرة الظلمات الأنفسية، وهو الذي أزاح الظلمة الآفاقية بالنجم الثاقب؟!

٣ ـ إن الحفظ المذكور في هذه الآية، من الممكن أن يكون إشارة إلى:
- حفظ الملائكة لأعمال العبد كما ذُكر في قوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[١].
- حفظ الملائكة للعبد من الحوادث والمهالك كما ذكر في قوله تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[٢].

ويجمعهما أن الإنسان مقترن بصنف آخر من الخلق، هم الملائكة الذين يقومون بدور الوسطاء بينه وبين ربه: في حفظ الأعمال تارة، وحفظه من الآفات تارة أُخرى.

٤ ـ إن هذه السورة تنتقل من ذِكر ما هو في أعلى طبقات السماء من النجم الثاقب، إلى ما في أسفل بدن الإنسان الذي منه يخرج المني الدافق؛ ليتأمل العبد بفكره في كل زوايا الوجود المذهل؛ متعرّفا على عظمة خالقه في كل شيء، مدركا أن كل ذلك لحكمة جامعة، متمثلة بالعودة إليه كما خلقه أول مرة.

٥ ـ إن القرآن يذكّر العبد بأعقد عملية في هذا الوجود، ألا وهي عملية تشكّل الوجود البشري الذي جعله في أحسن تقويم، وذلك بالتذكير بالمنشأ وهو الخلق من ﴿ماءٍ دافِقٍ﴾ الخارج من ﴿الصُّلْبِ﴾ إذ

---

(١) سورة طه: الآية ١٢١.
(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

لولا سيلانه وتدفقه لما تحقق التلقيح.. والتذكير بموضع النطفة الملقّحة، وهو الجوف المحفوظ بعظام الصدر ﴿التَّرَائِبِ﴾ والظهر؛ ليبقى العبد مبهورا بعظمة خالقه أولاً، ومتيقنا من قدرته على إعادة النشأة ثانياً.

٦ ـ إن القرآن كثيرا ما يربط بين أول الخلقة وآخرها، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[١] وبين القدرة على الإيجاد والإعادة، كما ورد في هذه السورة ﴿إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ﴾ ليبقى العبد متذكرا لنهاية الأمر، وهو منشغل بأوله.. فطبيعة الدنيا بما فيها من مزيج المتع والبلاء، من موجبات الغفلة والانشغال عما يراد بصاحبها.

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

٧ ـ إن الإنسان بإمكانه ستر سريرته الفاسدة بإظهار ما يوجب له حسن الذكر والصلاح؛ ولكن ماذا ينفعه ذلك ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾؟!.. ومن هنا لزم على العبد المراقب أن يُصلح سريرته الباطنة غير مكتف بإصلاح أعماله الظاهرة؛ وهو ما يغفل عنه حتى الخواص من الخلق!

فإن الله تعالى يحاسب على البواطن كما يحاسب على الظواهر، بل يعذب

---

(١) سورة يس: الآية ٧٩.

عليها كما في الانحرافات الاعتقادية، أو ما اوجب معصية في الظاهر ﴿وإِنْ تُبْدُوا ما في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاء﴾[1].

٨ ـ إن الذي ينكشف سره الموجب للفضيحة بين الناس، يتشبث بكل حيلة لدفع الضر عن نفسه، سواء بالاعتماد على قوته أم على قوة غيره، ومن المعلوم أن الخلائق في ذلك اليوم متساوية المثول بين يديه، فلا يمكن أن يكون أحد ناصرا لأحد قبال الحاكمية الإلهية المطلقة.

ويا حبذا لو استشعر الإنسان هذه الحقيقة في دار الدنيا، وهي أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله تعالى، وانه لا ناصر سواه ﴿فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ﴾ فإن نفي القوة والناصر حقيقة سارية في كل النشآت، وإن استشعرها الإنسان في ذلك اليوم.

٩ ـ إن القرآن يرعى المناسبة بين القَسَم والمُقْسَم عليه، وهو مقتضى الحكمة بلا ريب في كل موارد القَسَم، فهنا أَقسَم بالسماء ﴿ذاتِ الرَّجْعِ﴾ وهو المطر الذي يرجع إلى الأرض بعد صعود البخار منه[2]، والأرض ﴿ذاتِ الصَّدْعِ﴾ أي ذات الشق الذي يخرج منه النبات[3]، فمجموع القَسَمين يوحي بأن هناك يداً تُحيي الأرض بعد موتها، بتسبيب الأسباب

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٤.

(٢) مفردات الفاظ القران : ص٣٤٣.

(٣) مجمع البحرين : ج٤ ص٣٥٨.

الأرضية والسماوية!

ومن المعلوم أن القادر على الإحياء في هذه النشأة هو القادر على الإحياء في تلك النشأة أيضا، وهو ما ورد ذكره في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

١٠ ـ إن المناسبة أيضا واضحة بين ظاهرة الإمطار السماوي والإنبات الأرضي، وبين إنزال القرآن الكريم، فهو أيضا من مظاهر الرحمة الإلهية التي تنزل على القلوب المستعدة، فتخرج منها ثمار المعرفة.

وعليه، فإن مَن يريد فاعلية تأثير الهدى الإلهي في النفوس؛ لا بُد له من أن تكون له القابلية لتلقّي الفيوضات الإلهية، كما هي حال الأرض في استعدادها لتلقّي مطر الرحمة لتخرج ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[1] وقد عبّر القران الكريم عن نفسه بأنه ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ بين الحق والباطل، فمَن لم يلتزم به وقع في الباطل قهرا إذ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾[2].

١١ ـ إن الذين تعاملوا مع القرآن الكريم ـ والذي لا جِدّ فوقه ـ معاملة ما هو من مصاديق ﴿الْهَزْلِ﴾ جعلوا أنفسهم في مقام التحدّي لجبار السماوات والأرض؛ ولهذا جعل الله تعالى نفسه في مقام الكيد لهم، وهو الانتقام مع ما يشوبه شيء من المباغتة والاستدراج ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وكم هو منتهى الحمق أن يواجه العبد بكيده كيدَ رب العالمين!

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٠.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٢.

ومن هذا المنطلق أيضا لا ينبغي الخوف من كيد الظالمين، ما دمنا نعتقد أن الله تعالى لهم بالمرصاد.

١٢ ـ إن الكيد وإن كان مذموما في أصله، إلا أنه لما كان في مقابل كيد الكائدين صار من باب المقابلة بالمثل، وهو راجح من باب ﴿جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها﴾[1].

أضف إلى أن الله تعالى ـ وهو المالك على الإطلاق ـ له الحق في مجازاة الظالمين بشكل خفي وهو ما يفيده التعبير بالكيد؛ لأن الله تعالى يختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم؛ ليجرّهم أخيرا إلى عذاب أليم.

١٣ ـ إن الله تعالى يطلب من نبيه عدم الاستعجال في رؤية انتقام الله تعالى من الكافرين وعدم الانشغال بهم؛ بل طلب منه الإمهال كما في قوله ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ امهالا ﴿رُوَيْدًا﴾ أي قليلا ليريه الله تعالى جزاء كيدهم!

وهو ما تحقق للنبي ﷺ في حياته المباركة من رؤية الانتصارات الباهرة بدءاً من معركة بدر، وانتهاء بدحر أعدائه الذين أخرجوه من بلده وذلك بفتح مكة .. ومن المعلوم أن ما خفي من العذاب يوم القيامة أعظم، وهو أيضا قريب لـِمن تيقن بحلوله!

---

(١) سورة يونس: الآية ٢٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥)﴾.

١ ـ إن القرآن الكريم كما يذكر التنزيه منتسبا إلى الرب ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾[1] فإنه يطلب تنزيه اسمه الكريم أيضا ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ وكما أنه يسند المباركة تارة إلى ذاته المقدسة ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾[2] فإنه أيضا يسندها إلى اسمه الكريم ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾[3] ممّا يدل على وجود خصوصية للألفاظ المنتسبة إليه تعالى، ومن هنا لزم تسبيحها إضافة إلى تسبيح الذات.

والدرس العملي من ذلك أن كل منتسب إليه ـ خارج ذاته ـ يكتسب التقديس أيضا؛ لأن قدسه مُفاض على كل ما سواه، فيما لو كان قابلا للفيض المقدس.

٢ ـ اختلف المفسرون حول المراد من تسبيح الاسم ﴿سَبِّحِ اسْمَ

---

(١) سورة الحديد : الآية ١.

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٤.

(٣) سورة الرحمن : الآية ٧٨.

رَبِّكَ﴾ إذ المطلوب حسب الفهم الأولي هو تسبيح الذات، فقيل[1] أنه لا مانع من تنزيه الاسم بمعنى:

- عدم ذِكر اسمه تعالى في سياق ذِكر من يُشرك به، كاللاّت والعزى.
- عدم ذِكر آلهة الكفار بسوء ليثير انتقامهم بذكر الله تعالى بما لا يليق به ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[2].
- عدم ذِكر الله تعالى على نحو الابتذال، كذِكر الغافلين له.

والدرس العملي ـ على الوجه الأخير ـ أنه لا بُد للعبد الملتفت من توقير الاسم والمُسمّى، ومن هنا جاءت التشريعات الخاصة بظاهر الاسم من عدم اللمس إلا بطهور، وعدم إجرائه على اللسان إلا بقلب ملتفت.

٣ ـ قيل[3] إن المراد من تسبيح الاسم هو تسبيح المسمى في: ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، وفي أسمائه، وفي أحكامه، أما تنزيهه في:

- ذاته، فإن يعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض.
- صفاته، فإن يعتقد أنها ليست محدثة، ولا متناهية، ولا ناقصة.
- أفعاله، فإن يعتقد أنه مالك مطلق، فلا اعتراض لأحد عليه في

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠ ص٢٦٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

(٣) مفاتيح الغيب: ج٣١ ص١٢٥.

أمر من الأمور.

- أسمائه، فإن لا يُذكر سبحانه إلا بالأسماء التي ورد التوقيف بها.

- أحكامه، فهو أن يعلم بأنه ما كلّفنا لنفع يعود إليه.

والدرس العملي من ذلك كله: أنه كلما اتسعت دائرة التقديس الإلهي لدى العبد فإنه يعظم تعظيمه لربه، وسعى في تنزيه ذاته وأفعاله وصفاته أيضا من شوائب الشرك، الجلية منها والخفية.

٤ ـ إن التعبير بالأعلى في ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ يقارب مضمون التكبير الذي يعني التنزه من أن يوصف، ومفاد الأعلى هنا هو التنزه من أن يحيط به وهم أو خيال؛ لأنّ ما سوى الأعلى وإن كان عالياً فمن الممكن أن يحيط به الفكر، فكانت الآية عِدلاً لقوله تعالى ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[١].

وقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام): «**إذا قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقل: سبحان ربي الأعلى، وإن كان فيما بينك وبين نفسك**»[٢] والملفت فيها هي الإشارة إلى صورة من صور الذكر في النفس، فلا ينبغي حصر الذكر بما كان لفظيا فقط، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾[٣].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١١.

(٢) مجمع البيان: ج ١٠ ص٧١٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٠٥.

٥ ـ إن القرآن كثيرا ما يربط بين الخالقية والربوبية للانتقال من الأول إلى الثاني، إذ إن مقام الربوبية من سنخ المعقول الذي يحتاج إدراكه إلى نفس قابلة لهذا المقام المنيع، بخلاف مقام الخالقية فإن له ارتباطا بالمحسوس القريب إلى أمزجة عامة الخلق.

ومن هنا نرى في دعوة الأنبياء التركيز على مبدأ الخالقية، والتي يمكن ملاحظة آثارها في الوجود بأدنى تأمل إلى جنب مبدأ الربوبية، فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يذكر مقام الخالقية بقوله ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[١] وقال موسى عليه السلام ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾[٢] وأما محمد صلى الله عليه وآله فإن أول ما أنزل عليه هو قوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[٣].

ومن المعلوم أن الالتفات إلى عظمة الخالقية، يوجب تعمق الخضوع في العبادة، وزيادة الشكر مقابل النعم المتعددة.

٦ ـ إن القرآن الكريم بعد ذكر أصل مبدأ الخلقة، يذكر بعض المصاديق لذلك، من باب تثبيت أصل الأمر بذكر فروعه، ولتمرين العباد على التجوال في الآفاق والأنفس، فذكر:

- أمرا معنويا يتمثل بقوله ﴿قَدَّرَ فَهَدى﴾ إذ إن التقدير في عالم

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٧٨.

(٢) سورة طه: الآية ٥٠.

(٣) سورة العلق: الآية ١-٢.

الغيب أمر خفي ، والهداية بعد التقدير أيضا تصرف خفي فيما خلق .

- أمرا ماديا يتمثل في قوله ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى﴾ فعلف الدواب وما يؤول إليه من السماد الأسود ﴿غُثاءً أَحْوى﴾ لهو أمر مشهود بالعيان .

٧ ـ إن المهمّ عند النظر إلى عالم الخلقة ، هو الالتفات إلى ما وراءها من اليد الحكيمة ، وإلا فما قيمة التوغل في كشف مجاهيل الوجود من دون ربطها بموجدها ربطا يوجب الخشوع والإيمان ، ومن هنا أشارت الآية ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ إلى تسوية الخلق بعد الإشارة إلى أصل الخلق ، وهو أمر يحتاج إلى تأمّل من المتأملين ليدركوا التسوية والتنسيق في عالم الخلق ، وأشارت الآية ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ إلى الهداية بعد التقدير ، وهو أيضا يحتاج إلى تأمّل ذوي اللب أيضا !

وفي المقابل فإن الكافر ينسب اهتداء كل موجود لغايته التي خُلق من أجلها إلى الطبيعة الصماء ، والحال أن الله تعالى أسند إلى نفسه الهدايتين معاً : التكوينية ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىْ﴾[1] والتشريعية ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2] .

٨ ـ إن القرآن أشار في آيات متعددة إلى عدم الاغترار بما تنبت

(١) سورة طه : الآية ٥٠.

(٢) سورة البلد : الآية ١٠.

الأرض من زاهي النبات، ومنه ما في هذه السورة في قوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى﴾ ويؤيده ما ورد في آيات أُخرى مشابهه لهذا المضمون كقوله تعالى ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً﴾[1] وقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً﴾[2].

وفي كل ذلك درس لعدم الاغترار بمُجمل متاع الدنيا، فإن شهود فنائية النبات لا يحتاج إلى زمن طويل، فيكفي انقضاء فصل ربيع واحد للتحقق من ذلك.. وعليه، فإنه ينبغي قياس كل ما على الأرض ـ ممّا هو زينة لها ـ على ذلك.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

٩ ـ لا تخفى المناسبة بين الأمر بالتسبيح، والوعد بالإقراء وعدم الإنساء ﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى﴾ واللذين بهما يتحقق تمكين القرآن في نفس النبي الأكرم ﷺ، ممّا يُعلم منه أن الالتفات إلى المولى وتنزيهه المذكور في آية سابقة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ مقدمة للعناية الخاصة الموعودة وهو

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢١.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٠.

عدم الانساء.

أضف إلى أن حمل همّ الدعوة من موجبات التسديد أيضا، فهذا اللطف مرتبط كذلك بآية لاحقة ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ من جهة أن الله تعالى يعلم ما يجري في نفس النبي ﷺ من الحرص على تلقي القرآن الكريم كما أنزله إليه، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[1].

١٠ ـ إن اللطف الإلهي مهما كان عظيما على العبد، إلا أنه لا بُد من تحقق موجبات حفظه أولا، واستمرار الموجب ثانيا، وإلا فما فائدة الإقراء من دون تجنيب صاحبه من النسيان؟!.. وما فائدة هذا التجنيب إذا لم يكن مستمرا؟!.. فإن الله تعالى ـ رغم وعده لحبيبه المصطفى ﷺ بذلك ـ إلا أنه علّق ذلك على المشيئة؛ ممّا يحقق حالة من الخوف والرجاء حتى بالنسبة إلى خاتم أنبيائه!.. ومن هنا عبّرت آية أُخرى بصريح القول ﴿وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾[2].

وهذه القاعدة سارية حتى على من أنعم الله تعالى عليه بالخلود في الجنة، إذ يقول تعالى ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ والْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّك﴾[3].

---

(١) سورة القيامة : الآية ١٦.

(٢) سورة الإسراء : الآية ٨٦.

(٣) سورة هود : الآية ١٠٧.

فالملاحظ في الآيتين أن هناك تأكيدا على حاكمية الله تعالى على الوجود برمته وفي كل الحالات، وان خيوط العطايا بيده، ولا يُلزمه شيء حتى في عطائه الموعود.

١١ ـ إن من ﴿الْجَهْرَ﴾ الوارد في هذه السورة ما كان واضحا في عالم المحسوسات السمعية والبصرية، فيقابله ﴿مَا يَخْفَى﴾ في ذلك العالم أيضا كالمسموعات والمرئيات التي لا تتناولها الحواس إلا بآلات خاصة، وتتجلى عظمة المولى في أنه يدركها من دون ذلك كله.

وقد يراد به ما لم يكن قابلا للإدراك البشري أصلا، لعدم قابلية المخلوق لمواجهة تلك الحقائق الخفية من عالم الوجود، كالاسم الأعظم المختص به تعالى، فتتجلى عظمة المولى في تخصيص نفسه بدائرة من الحقائق استأثرها لنفسه، ولم تخرج منه إلى أحد من خلقه.

١٢ ـ لو اعتقد العبد بعالِمية المولى المتعال بما خفي ـ حتى على العبد نفسه ـ من الهواجس اللاشعورية التي تنتابه بين وقت وآخر دون أن يشعر هو بها، أضف إلى علمه بما يخفيه شاعرا به كما في قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[1] فإنه سيكون مراقبا لجوانحه فضلا عن جوارحه، فلا يُجري ـ حتى في عالم خياله ـ ما لا يرضى به المولى؛ لأن ذلك وإن لم يوجب عقابا، إلا أنه قد يوجب عتابا يخجل معه العبد المحب

---

(١) سورة غافر : الآية ١٩.

لربه!.. ومن هنا نعلم عظمة المعصوم الذي يتحكم بخياله بما يوافق رضا ربه في كل حالاته.

١٣ ـ إن آية ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ قد تكون فيها إشارة دقيقة إلى:

- معاملة الله تعالى لخلّص أوليائه، فإنه تعالى لا ييسر لهم الطريق فحسب، وإنما ييسر ذواتهم للطريق بمقتضى الخطاب في الآية المتوجه للذات، فالعناية الأولية إنما هي لهم، لا لأفعالهم فيكون في حكم قوله تعالى ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] فكما أن الجنة تُقرب إليهم، فإن الله تعالى يقرب اليسر إليهم كذلك.
- أن مبدأ التيسير هو العبد نفسه، لأنه بما له من الملكات صار متعلقا للتيسير الإلهي، فإذا صار قابلا للتيسير تيسر اليسر له، فالتوفيق لا يأتي خارج دائرة العبد نفسه.

ومن المناسب هنا القول بأن الله تعالى من الممكن أن يكتب التيسير المقدر دون المفعّل، لتقصير العبد نفسه في تهيئة مقدمات التيسير من العمل، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**اعملوا!.. فكلٌ ميسر لما خلق له**»[2].

١٤ ـ إن الألطاف الإلهية الخاصة تناسبها نون التعظيم عند التكلم، فقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾[3] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[1] و﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٩٠.

(٢) توحيد الصدوق: ص ٣٥٦.

(٣) سورة القدر: الآية ١.

الْكَوْثَرَ﴾[٢] ومنه التيسير في توفيق دعوة العباد إلى الله تعالى، فقال ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ فإنه من أجلّ النعم المعنوية قياسا إلى النعم المادية.

١٥ ـ إن الآيات السابقة فيها جميع ما ينبغي أن يكون عليه الدعاة إلى الله تعالى وهو:

- إحراز القابلية، بالتوجه إلى الله تعالى تحميدا وتنزيها.
- التسديد الباطني، ويمثله الإقراء والتحفظ من النسيان.
- التسديد الخارجي، وتيسير السبل، سواء تصرفا في الأشياء كمعاجز الأنبياء ﵈، أو الأشخاص كتليين قلوب العباد.

١٦ ـ إن النبي ﷺ مأمور بتذكير مَن فيه أرضية الهداية والقبول وإلا ضاع جهده هدرا ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ فعمره الشريف وطاقته المباركة أجلّ من أن تُصرف لِمن لم يكن أهلا لذلك، ولكن من الممكن القول أيضا برجحان التذكير حتى مع عدم رجاء الانتفاع به، لأن النبي ﷺ متخلق بأخلاق الله تعالى في إنذار الجميع، فهو الذي أمر موسى ﵇ بتذكير أعتى الخلق قائلا ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٣] تعميما للطف، أو إتماما للحجة على الغير.

ومن الممكن أن تكون الآية مسوقة لبيان اليأس من تذكّر البعض، وذلك

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) سورة الكوثر: الآية ١.

(٣) سورة طه: الآية ٤٤.

لعدم وجود أرضية لتقبّل الهدى في نفوسهم أصلا .

١٧ ـ إن تقبّل الهداية الإلهية تسبقها مرحلة سابقة ، تتمثل في وجود درجة من درجات الخشية من الله تعالى عند من يراد تذكيره ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ فهذه الخشية ـ سواء كانت بمعنى الخوف من عذابه أو الخجل من نعمه ـ تجعل العبد يبحث عما يخرجه من عقابه أو عتابه ، فلا يتوقع المهتدي أن يُحدث الهادي أياً كان معجزة في نفسه ، بل عليه أن يكون بمثابة الأرض التي تستقبل البذرة ، ثم تنميها في نفسها بما آتاها الله تعالى من القابلية.
وعليه ، فإنه ينبغي للدعاة إلى الله تعالى أن يحققوا هذه الأرضية في نفوس العباد ، قبل إثقالهم بالمواعظ .

١٨ ـ إن ﴿الأَشْقَى﴾ هنا يراد به (الشقي) كما هو دأب القرآن الكريم في استعمال صيغة التفضيل في أصل الفضيلة كقوله تعالى ﴿أَصْحابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا﴾[1] ولكن يمكن القول أيضا بوجود درجات للأشقياء ، إذ الأشقى هو الكافر المعاند الذي يصلى النار الكبرى في أسفل درجات الجحيم قياسا إلى نار الدنيا ، أو قياسا إلى أقل عذاب النار.
ولكن الشقي الذي هو دون السعيد وأحسن حالا من الأشقى ؛ هو الذي لم يغتنم فرصة العمر ، فأمضى حياته في خُسر ، كما هي حياة معظم الخلق .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٢٤.

١٩ ـ إن من مظاهر شدة العذاب في الآخرة ـ حتى لغير المخلّدين فيها ـ هي استمرارية العذاب من دون انقطاع أو إراحة في النار: خلودا للكفار أو أحقابا لعامة العصاة، فتذكر الآية هذه الحالة ﴿لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾[١] أي أنهم لا يموتون ولا يحيون حياة طيبة!

والحال أن بلاء الدنيا يتخلله شيء من الفرج والراحة حتى في أشد حالاته، والأشد من عذاب النار استمرار الغضب الإلهي على أهل الجحيم ﴿وَالَّذينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها﴾[٢] وإلا فلو كانت الرحمة متخللة ومتعاقبة عليهم ـ كما هو الحال في عصاة الدنيا ـ لهان الأمر، ولأمكن للعبد أن يستجدي النجاة في ساعة إقبال الله تعالى عليه.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

٢٠ ـ إن إطلاق التزكية في قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ يقتضي التنقية الشاملة في كل أبعاد الوجود: بدءاً من القلب بتفريغه من كل شاغل

---

(١) سورة طه: الآية ٧٤.

(٢) سورة فاطر: الآية ٣٦.

سوى الله تعالى ، وانتهاء بالجوارح وذلك بحملها على كل ما يُرضي المولى ، وهي مقدمة للذكر ﴿وَذَكَرَ﴾ بقول مطلق ليشمل معايشة محضرية الله تعالى في كل آن ، ومقدمة للخضوع الخارجي المتمثل بالصلاة كأهم علاقة بين العبد وربه ﴿صَلَّ﴾.

وبعبارة جامعة : فإن هذه الآيات ناظرة إلى تخلية الباطن من الشوائب ﴿تَزَكَّى﴾ وتحليتها بالذكر ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ وتلبّسه بعد ذلك بالطاعة الفعلية ﴿فَصَلَّ﴾ وبمجموع ذلك يصل العبد إلى درجة الكمال الذي خُلق من أجله .

٢١ ـ إن لمن صور الغباء هو تقديم الدنيا على الآخرة وذلك لأن :

- نعيم الدنيا متعلق بعالم الحس أي استمتاع الأبدان ، والحال أن نعيم الآخرة متعلق بمتعة الأرواح والأبدان معا : من النظر إلى وجهه الكريم ، والأنس بالحور العين .
- نعيم الدنيا حتى في المحسوسات تتخلله الآلام والمحن كما هو مشاهد بالوجدان ، وهو أيضاً متصرم بالبداهة ؛ خلافا للآخرة ذات النعم التي لا تتخللها المشاق ﴿لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فِيها لُغُوب﴾[1] ولا يشوبها الانقطاع ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون﴾[2] .

(١) سورة فاطر : الآية ٣٥.

(٢) سورة التين : الآية ٦.

والآية الكريمة أشارت لخصوصيتي الأفضلية والدوام لمتاع الآخرة بقوله ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ومن المعلوم أن إدراك هذه المعاني يحتاج إلى بلوغ روحي خاص، وإلا صار أهل الدنيا جميعا من أهل الآخرة!

٢٢ ـ إن الكتب السماوية ـ على اختلاف مستوياتها ومستويات من أُنزلت عليه ـ متفقة في مبادئ الكمال التي أشارت إليها الآيات في هذه السورة ﴿إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾ فليست هناك أمة مستثناة من قواعد السير إلى الله تعالى والعبودية له، فإذا كانت أمة موسى وإبراهيم عليهما السلام مكلّفة باتباع كل ما جاء في هذه السورة نقلا عن صحفهم ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ فإن الأمة الشاهدة وهي أمة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله مكلّفة بطريق أولى بكل ما ذُكر فيها؛ لأن الحجة عليها أكمل، والكتاب لها أجمع، ونبيها صلى الله عليه وآله في رتبة الخاتمية العظمى!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾.

١ ـ إن طريقة القرآن الكريم ـ عند تهيئة النفوس للأمور المصيرية ـ تتمثل في طرق عديدة لإلفات نظر المخاطب إليها، وذلك بالقَسَم تارة ﴿وَالْفَجْرِ﴾[1] والاستفهام التقريري ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ تارة، وما يفيد الإبهام للتعظيم تارة أُخرى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾[2] وفي هذا درس لِـمن أراد أن يلقي قولا ثقيلا على الخلق، فعليه أن يثير دواعي الالتفات والانشداد إلى محور حديثه؛ بدلا من الحديث المباشر الذي قد لا يوجب اهتمام المتلقي لما يُلقى إليه.

---

(١) سورة الفجر: الآية ١.

(٢) سورة القارعة: الآية ٣.

ومن الملفت أن الخطاب متوجّه أولاً إلى النبي ﷺ في هذا الاستفهام وأمثاله في القران الكريم، وكأنه محور البشرية الذي يستحق أن يتوجّه الله تعالى بالخطاب إليه أولا، ومن الممكن القول بأن الخطاب متوجه لعامة الناس في أمثال هذه الخطابات وإن توجه الخطاب للنبي ﷺ ظاهراً.

٢ ـ إن التعبير بالغاشية عن يوم القيامة يُشعر بهول الواقعة لأنه:

- إما مأخوذ من الغشيان بمعنى إحاطة الجميع، فلا يفلت من الحساب أحد كما قال تعالى ﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[(١)].
- وإما بمعنى إحاطة الناس بأنواع الشدائد ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[(٢)] وكما قال في آية أُخرى ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[(٣)].

ومن المعلوم أن الالتفات إلى هذه النهاية المفزعة، لَمِن موجبات الارتداع عن الشهوات المحرمة في الدنيا، وذلك لِـمن وصل إلى مرحلة اليقين بهذا الإخبار الإلهي الذي لا خُلف له.

٣ ـ إن الأمور الباطنية تتجلى عادة من خلال الوجه سواء في الدنيا أو الآخرة، ولهذا نرى مسحة من الظلمة ـ التي يدركها أهلها ـ على وجوه

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٧.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٥٥.
(٣) سورة الإنسان: الآية ٧.

الظالمين في الدنيا، وأما في الآخرة فإن هذا الأمر يتجلى لجميع الخلائق لكشف الغطاء عنهم.

ومن هنا وصفت الآية وجوه العصاة أنها خاشعة، وفي آيات أُخرى بصفات أُخرى منها ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ﴾[1] و﴿خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾[2] و﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ﴾[3] ووصفت وجوه الطائعين أنها ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ وفي آية أُخرى بأنها ﴿نَّاضِرَةٌ﴾[4] وفي هذا الانكشاف نوع خزي للبعض على رؤوس الأشهاد، ونوع تكريم للآخرين في جمع أهل المحشر.

٤ ـ إن الجميع صائر إلى عالم الخشوع والخشية التي تعمّ جميع الخلائق يوم القيامة، بمقتضى ارتفاع الحجب عن الخلق في ذلك اليوم العصيب.. وحينئذٍ نقول: أوَلا يحكم العقل بعدها برجحان سعي الإنسان، لكي يصل إلى هذا المقام طوعا قبل أن يصل إليه كرها، وذلك بإتباع موجبات الخشوع الذي يتجلّى أثره فيما يتجلى من خلال الصلوات؟!

فما بال العبد الذي سيأتي ذليلا يوم القيامة، لا يفكر كيف يكتسب موجبات العزة عناك وهو في دار الدنيا؟!.

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٢.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ٤٥.

(٤) سورة القيامة: الآية ٢٢.

٥ ـ إن من أعظم موجبات الحسرة يوم القيامة، ما ذكرته آيتان منها ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[١] والأخرى في هذه السورة حيث قال تعالى ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فإن العصاة أيضا أمضوا أعمارا في هذه الدنيا فيها نصب وتعب مصداقا لقوله تعالى ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾[٢] بل قد يفوق تعبهم ـ في سبيل باطلهم ـ تعب بعض المؤمنين، ولكنه تقع المصيبة عندما يكتشفون بطلان سعيهم في دار الجزاء، فيستمر نصبهم وتعبهم؛ خلافا لأهل الجنة الذين وُصفوا بقوله تعالى ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

٦ ـ إن حياة أهل النار لا يمكن تصوّرها لأهل الدنيا، فالآيات تشير من بعيد وبما يفهمه عامة الناس، وإلا فإن الأمر أعظم ممّا ذكر في عالم الألفاظ!.. فمثلا تصور إنسانا يستغيث يطلب ماء؛ وإذا بالحميم شرابه ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾[٣] ويطلب طعاما؛ وإذا بالزقوم يملأ به بطنه ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[٤] وإذا تقرّح جسمه بالمُهل أكل من قيحه وهو المسمى بالغسلين ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[٥] وهذا كله بعد استمتاع أصحابها

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٢٣.

(٢) سورة الإنسان: الآية ١٠٤.

(٣) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٤) سورة الصافات: الآية ٦٦.

(٥) سورة الحاقة: الآية ٣٦.

في الدنيا بأنواع الطيبات.

وفي هذه السورة أيضا إشارة إلى طعام وشراب أهل النار، فطعامهم من الضريع وهو نبات في الدنيا[١] ـ كما قيل عنه ـ من أخبث الطعام وأبشعه لا ترعاه دابة، ولا ريب أن بشاعة ما في الآخرة من الضريع لا يقاس بالدنيا، وأما شرابهم فهو من عين بلغت المنتهى في الحرارة ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ وقد يكون التعبير بـ﴿تُسْقَى﴾ مشعرا بإجبارهم على الشرب فيجتمع عنصر الإذلال مع التعذيب.

٧ ـ إن وجوه أهل الجنة موصوفة بالنعومة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ والنضرة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[٢] وهذا الأثر في الوجه بمثابة النور الذي يتجلى في الآخرة بما فعلوه في الدنيا، إذ ليس في الآخرة وارد غير ما يصدر من هذه الدار كما قد يُفهم من قوله تعالى ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾[٣] ففسر الوراء هنا بالرجوع إلى الدنيا.

ولا شك أن مَن يؤول أمره إلى هذه النعمة في الآخرة، فإنه سيحظى برتبة ـ ولو نازلة ـ من رتب النضرة في الحياة الدنيا أيضا، كما هو مشهود لأهل الفراسة والبصيرة.

٨ ـ إن حالة الارتياح والرضا التي يعيشها المؤمن في الجنة كما يقول

---

(١) مفردات الفاظ القرآن: ج١ ص٥٠٦.

(٢) سورة المطففين: الآية ٢٤.

(٣) سورة الحديد: الآية ١٣.

تعالى ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ إنما هي في مقابل ما يعيشه العصاة من السخط على أنفسهم، وهذه الحالة:

- إما بلحاظ ما كانوا عليه في الحياة الدنيا من الرضا لسعيهم، وهذه من آثار المحاسبة والمراقبة.
- وإما بلحاظ النعيم الذي هم فيه، إذ إن باطن هذا النعيم هو رضا الله تعالى عنهم، فكان رضاهم على أنفسهم لرضاه تعالى عليهم.

وهذه صورة لما عليها النفس المطمئنة التي وصفها الله تعالى بأنها ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[1].

٩ ـ إن من أهداف القرآن الكريم عندما يعدّد في هذه السورة جزئيات نعيم الجنة في سبعة موارد ـ وكلها بصيغة النكرة ـ هو بيان عظمتها والمتمثلة: بالجنة العالية، والعين الجارية، والسرر المرفوعة، والزرابي المبثوثة، والنمارق المصفوفة، والأكواب الموضوعة، ثم يضيف إلى ذلك نعمة غير محسوسة يذكرها في صدر النعم، وذلك عندما يقول ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ كما ذكر في آية أُخرى ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا﴾[2] مما يفهم منها أن اللغو والكلام الذي لا طائل تحته، صورة من صور العذاب الذي يضادّ نعيم الجنة.

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٨.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٢٥.

ولهذا فإن المؤمن يفر في الدنيا من مثل هذه الأجواء التي لا تسانخ ما في الجنة، والتي هي - كما عُبر عنها - بأنها منزل جيران الله تعالى.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

١٠ - إن من الأساليب القرآنية هو الانتقال من المطلوب الظاهري إلى موجبه الباطني، ففي الآيات السابقة دعوة إلى تذكّر المعاد، والالتفات إلى حال المنعمّين والمعذّبين فيها، ولكن هذا الوصف بمجرده لا يشكل داعويّة للعبد للعمل بما هو مطلوب منه، فأردفها بالدعوة إلى اكتساب المعرفة الموجبة للخشية، ومنها النظر إلى الآفاق وما يُحيط بالإنسان من مظاهر القدرة الإلهية.

ومن الطبيعي في زمان نزول الوحي، أن يلتفت أهل الصحراء - في زمان نزول الوحي - إلى الإبل لأنها وسيلة معاشهم، فإذا رفع بصره رأى السماء يرى ما فيها من زينة الكواكب، وإذا نظر أمامه يرى الجبال الموتدة للأرض.

وهذه الدلالات بمجموعها توجب الانتقال إلى وجود الصانع أولا، ثم إلى قدرته ثانيا، ثم إلى حكمته البالغة ثالثا، ومجموع هذه الأمور الثلاثة قد

تورث الاعتقاد بالغاشية التي افتتحت السورة بذكرها .

١١ ـ إنه لمن المناسب أن يحرّك الدعاة في دعوتهم إلى الله تعالى بواطن العباد، وذلك بإثارة التساؤل الذي يجرّهم إلى البحث عن الإجابة، الموجبة أخيرا للقناعة الباطنية.

فهذه الآيات تستعمل كلمة ﴿كَيْفَ﴾ أربع مرات : بدءاً من محسوس قريب كالإبل، ومرورا بما لا يُنال كالسماء، وتذكيرا بمحسوس آخر بعيد كالجبال، ثم الأرض التي يراها كل راءٍ وقد سطحت من أجل تيسير معاش الخلق، كل ذلك من أجل الوصول أخيرا إلى معقول يتمثل بالوصول إلى مُكوكب الكواكب، ومُوتد الجبال، ومُسطح الأرض!

١٢ ـ إن القرآن الكريم يذكر في موارد عديدة أن النبي ﷺ كباقي الأنبياء عليهم السلام لا سلطان له على بواطن العباد، وإلا انتفى الاختيار الموجب للثواب والعقاب، وذلك في قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ و﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[1] و﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[2] و﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفا﴾[3] و﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرات﴾[4].

(١) سورة يونس : الآية ٩٩.

(٢) سورة ق : الآية ٤٥.

(٣) سورة الكهف : الآية ٦.

(٤) سورة فاطر : الآية ٨.

وهذا بدوره يحدّ من توقّعات الداعين إلى الله تعالى ؛ لئلا تفتر همّتهم عندما يرون صدودا من الخلق ، والحال بأن سُنّة الأنبياء كانت في التذكير دائما من دون أن يكون لهم تحكّم إلزامي على القلوب ، وإلا لما بقي منكر لدعوتهم .

١٣ ـ استفاد البعض من آية ﴿إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ أن الإسلام دين الواقعية والرأفة معا ، إذ إن البناء الأولي على التذكير فقط ، ولكن مع وجود ﴿مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ ومواجهته لدعوة الإيمان ، فإن الأمر ينتقل من التذكير المجرد إلى مواجهتهم بالجهاد ، واستئصال جيوب الفتنة في الأرض ، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[١] وهذا كله خلافا لمنهج مَن يجعل الوعظ القولي آخر السقف في مجال الدعوة إلى الله تعالى ؛ طلبا للإعفاء من المواجهة المستلزمة لبذل النفس والمال.

١٤ ـ إن كل شيء حقير في جانب عظمة الرب المتعال ، وعليه فلو وصف تعالى شيئا بالشدة والكبَر ، فإنه يُشعر بعظمة ذلك الموصوف حقّا ، وهو ما تحقق في بيان عذاب جهنم عندما يصفها بأنواع الوصف ومنه ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[٢] ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣] ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٤] ﴿عَذَابٌ

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤ ، سورة الأنعام : الآية ١٢٤ ، سورة إبراهيم : الآية ٢.

(٣) سورة البقرة : الآية ١٠، ١٠٤ ، ١٧٤ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٩٠، سورة آل عمران : الآية ١٧٨، سورة الإنسان : الآية ١٤ .

مُّقِيمٌ﴾[١] ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[٢] ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣] ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٤] ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾[٥] ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[٦] ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[٧] ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾[٨].

وفي هذه السورة يهدّد الله تعالى الكافرين بعذاب هو ﴿الْعَذَابَ الأَكْبَرَ﴾ فالذي يعتقد بالمبدأ والمعاد ـ وكان مطلعا على هذه الأوصاف ـ فإنه لا بُد له من الارتداع عن باطله، إلا أن يكون الشك في إيمانه، أو في فهمه لصلاح نفسه!

١٥ ـ إن آية ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ فيها جهتان:

- الأولى: وهي تسلية لفؤاد النبي ﷺ بعد ذكر الكفار في مفتتح السورة، فإن رجوعهم إلى الله تعالى وهو في مقام الانتقام منهم ـ يهوّن ما يصدر منهم من الأذى والاستعلاء.
- الثانية: وهي تخويف للمعاندين، فإن الله تعالى أرجع مهمة

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٧، سورة التوبة: الآية ٦٨، سورة هود: الآية ٣٩.
(٢) سورة الحج: الآية ٤، سورة لقمان: الآية ٢١، سورة سبأ: الآية ١٢.
(٣) سورة البقرة: الآية ٧، ١١٤، سورة آل عمران: الآية ١٠٥.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨١، سورة الأنفال: الآية ٥٠.
(٥) سورة يونس: الآية ٥٢، سورة السجدة: الآية ١٤.
(٦) سورة هود: الآية ٥٨، سورة إبراهيم: الآية ١٧.
(٧) سورة الزخرف: الآية ٧٤، سورة الملك: الآية ٦.
(٨) سورة طه: الآية ٢٧.

المحاسبة إلى نفسه وهو الذي لا تخفي عليه خافية ، ومن اعتقد بحقيقة الأوبة إلى الله تعالى ، فإنه لا ينقدح في قلبه الميل إلى المعصية ، فضلا عن ارتكابها .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

١ ـ إن هذه السورة مسوقة لبيان السنن الإلهية في الأفراد والأمم، وشأن هذه السنن شأن سائرالسنن التكوينية التي لا تنخرم، فذَكرت:

- طبيعة الأمم الطاغية: وما آلت إليه الأقوام السالفة، وكيف أن طغيانها دمّرها تدميرا.
- طبيعة الأنفس الطاغية: التي تأكل أموال اليتامى وتحب المال حبّا جمّا، وتجزع عند المصيبة وتبطر عند النعمة.
- طبيعة الأنفس المطمئنة: وهم العباد الذين رضوا عن ربهم ورضي عنهم.

٢ ـ قلّما وقع الاختلاف في تفسير مفردة من مفردات الأقسام القرآنية كما وقع في هذه السورة، فأنهى بعضهم مجموع المحتملات في مفردة

﴿الْفَجْرِ﴾ و﴿الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ إلى أكثر من أربعين احتمالا!

وبناء على ما تقدم وغيرها من الموارد المشابهة، لزم القول بوجود مكمّل لكتاب الله تعالى؛ له العلم بالوجه المراد من بين هذه المحتملات، ولا يتمثل ذلك إلا من خلال الثقل الآخر، وهو العترة الهادية التي استوعبت حقائق القرآن؛ إذ هم الذين خوطبوا به.

٣ ـ إن عُمدة الأقوال في مفردات ﴿الْفَجْرِ﴾ و﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ و﴿الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ و﴿اللَّيْلِ﴾ مترددة بين احتمالين:

- الأول: ارتباطها بأزمنة الحج؛ فالمراد من ﴿الْفَجْرِ﴾ هو فجر العيد، ومن ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هي العشرة الأولى من ذي الحجة، ومن ﴿الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ يوم التروية ويوم عرفة، ومن ﴿اللَّيْلِ﴾ ليلة مزدلفة.
- الثاني: ارتباطها بالصلاة؛ فالمراد من ﴿الْفَجْرِ﴾ هو وقته الصادق المقترن بوقت فريضة الصبح، ومن ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هي الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان؛ حيث يتمحّض فيها العبد لعبادة ربه أسوة بالنبي الخاتم ﷺ، ومن ﴿الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ هو ما يصليهما المتهجّد ساعة السحر، ومن ﴿اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ هو مطلق آخر الليل بعدما سرى الليل ومضى منه ما مضى.

وبالرجوع إلى هذين القولين، يتبيّن لنا أهمية هذين الركنين من العبادة أي

الحج والصلاة.

٤ ـ جرت عادة القرآن الكريم على ذِكر المُقْسَم عليه بعد القَسَم مباشرة، ولكن الملفت في هذه السورة أمران:

- الأول: إن جواب القَسَم محذوف ـ على قول ـ وإن دلّت القرينة على مضمونه.
- الثاني: إن الله تعالى بعد ذِكر هذه الأقسام، يستفهم تقريرا؛ وذلك بالقول: إن هذه الأقسام هل هي كافية لِـمن كان له عقل ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ ؟!

٥ ـ إن جواب القَسَم مردّد بين أن يكون:

- قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.
- وبين أن يكون أمرا محذوفا يدلّ عليه (الإنذار) بوقوع العذاب والانتقام الإلهي في الدنيا والآخرة من الطغاة، وبين أن يكون أمراً محذوفا يدل عليه (التبشير) بجزيل الثواب لأصحاب النفوس الراضية المرضية التي تُسعد باطمئنانها في الدنيا وتدخل في جنة ربها يوم القيامة.

وفي هذا ـ كباقي موارد الإبهام في جواب القَسَم ـ دعوة للتدبّر والتأمّل في الآيات الكريمة.

٦ ـ إن هناك علاقة بين المعنى اللغوي لمادة الاشتقاق في (حجر) وبين

العقل المفسَّر به ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ ففي كل موارد الحجر من: الحُجرة، والمحجور عليه، وحجر الأم؛ نرى عنصرا مشتركا يجمع كل هذه الموارد ويتمثل بالحفظ والمنع؛ فالمحجور عليه ممنوع من التصرّف، والحُجرة والحِجر يمنعان دخول الأغيار ويحفظان مَن كان فيه.

وهكذا، فإن العقل إذا تمّ في الإنسان فإنه يحفظه من الزيغ والأهواء، ويمنعه من الحركة على خلاف الفطرة، المطابقة للأحكام العقلية المغروسة في باطنه.

٧ ـ إن هذه السورة المباركة تعرض صورا من القوة البشرية، المتمثلة تارة:

- بالتقدم العمراني وإتقان بناء المدن: الذي تمثّل في بناء مدينة (إرم) التي قيل عنها أنها عديمة النظير، ذات قصور عالية وعمد ممددة، كما يُفهم من قوله تعالى ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾.
- بالتقدم الصناعي: الذي تمثّل في قطع الصخور لاستخدامها في البناء، والأمر لا يخلو من إتقان وخاصة في العصور الخالية من أدوات النحت والقطع الحديثة، وهو ما أشار إليه قوله تعالى ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾.
- بالبطش العسكري: الذي تمثّل في قوة فرعون وجبروته في التعامل مع أعدائه، حتى أن زوجته آسية لم تسلم منه حينما

وتدها كعادته في تعذيب خصومه وهو ما أشار إليه تعالى ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾ .

ويجمع الكل عند هؤلاء الجبابرة عنوان: الطغيان، وتعدّي الحدود، وإشاعة الفساد في الأرض.

٨ ـ إن الله تعالى يُمهل بعض مَن يخالفه مخالفة شخصية لا تعود إلى إفساد النوع البشري، بل يسارع في العفو عنه عند الإنابة إليه ؛ ولكنه شديد الأخذ لِـمن صار سببا في شيوع الفساد البشري، كما عُبّر عنه في آية أُخرى بقوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾[1] ومن هنا فإن من موجبات الانتقام الشديد المذكور في هذه السورة، هو ما قام به هؤلاء الطغاة حيث ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ فلم تبق لهم باقية على وجه الأرض.

ولا يخفى ما في الآية من تطييب لخاطر النبي الأكرم ﷺ وهو يواجه طغاة زمانه، وذلك بإضافته إلى نفسه بوصف الرب حيث عبّرت بـ﴿رَبَّكَ﴾ للدلالة على أن المنتقم من القرون السالفة هو المنتقم من الأمم الحاضرة ـ بمقتضى ربوبيته القاهرة ـ وهو ما حلّ بهم عندما أرسل عليهم طيرا أبابيل وغيرها من صور الانتقام.

٩ ـ إن العقوبات الإلهية متجانسة دائما مع طبيعة المخالفة، فالذين

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

أكثروا الفساد في الأرض ممّن ذكرتهم الآية وهم قوم عاد وثمود وفرعون؛ كان جزاؤهم ممّا يناسب هذا الطغيان المتجاوز لحدوده، والمتصف:

- بالتوالي: الذي يشعره قوله تعالى ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ﴾ فالماء المصبوب هو المتوالي في جريانه، وهو مشعر بالقوة والاندفاع أيضا، وقد استخدم هذا التعبير القرآني في وصف المطر أيضا؛ بقوله ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا﴾[1].
- بالشدة المستفادة من ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ فإن السوط أداة من أدوات التعذيب المعهودة.
- بالمباغتة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ فإن العذاب المفاجئ أشد إيلاما لِمن نزل عليه؛ وذلك لعدم إعداد نفسه لتقبّل العذاب أو دفعه عن نفسه.

١٠ ـ إن التعبير ﴿لَبِالْمِرْصَادِ﴾ يوحي بأمرين:

- إن الراصد يريد الانتقام من المرصود في الوقت المناسب؛ ليكون أوقع في الانتقام.
- إن المرصود لا يلتفت إلى كمين راصده، وإلا ما عاد كمينا!

ومن المعلوم في المقام، إن العبد لو التفت إلى مراقبة ربه له، وأورثته تلك المراقبة الخشية والخوف منه، لما تعرّض لهذا اللون من الانتقام المفاجئ، الذي يتجلى في نار جهنم حيث قال تعالى ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾.

---

(١) سورة عبس: الآية ٢٥.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾.

١١ ـ إن هذه الآيات تريد أن تُحدِث انقلابا جوهريا في نظرة الإنسان تجاه النعمة والبلاء، فليست النعمة إكراما دائما يوجب الفرح ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1] وليس البلاء إهانة دائما توجب الجزع والحزن ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾[2] ومن الطبيعي أن تنقدح هذه المشاعر الأولية في نفس الإنسان كطبيعة مغروسة فيه، إلا أن هدف الأنبياء هو الأخذ بيد الإنسان ليخرج من مقتضى طبيعته، كما في باقي موارد اقتضاء الطبيعة، التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم.

والملفت هنا أن الله تعالى كرر كلمة ﴿ابْتَلاهُ﴾ في مورد النعمة والبلاء معا؛ تأكيدا على أنهما في رتبة واحدة لاختبار عبودية العبد وإثبات طاعته!

١٢ ـ إن الآيات الذامة لهذه الحالة في طبع الإنسان ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ﴾ مرتبطة بما قبلها وبما بعدها:

- فأما الارتباط بما قبلها، فكأنها تريد أن تقول: إن الرقابة الإلهية

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٣.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٣.

للبشر وكونه بالمرصاد للطاغين؛ تستوجب أن يصرف العبد همّته في إرضاء ربه، وأن يبتعد عمّا يوجب سخطه، لا أن يقصِر نظره على المتاع العاجل، فيرى الوجدان إكراما والفقدان إهانة.

- وأما الارتباط بما بعدها، فكأنها تفيد: إن قواعد الإكرام والإهانة مختلفة عمّا هو في نظر البشر، فما يوجب الإهانة هو ما ذُكر في الآية من بعض المخالفات كعدم إكرام اليتيم وأكل مال الغير، وما يوجب الإكرام هو الحضّ على طعام المسكين، وقطع التعلق القلبي بالمال.

١٣ ـ إن طبيعة المؤمن عند الحديث مع ربه هي النظر إلى جماعة المؤمنين؛ ومن هنا كثُر التعبير بـ﴿رَبَّنَا﴾ في أكثر من ستين موردا في القرآن الكريم، وذلك عندما يتوجّه المؤمن إلى ربه، فيرى جميع المؤمنين معه فيعمّهم بدعائه، ولكن غير المؤمن يجعل نفسه محور حديثه مع ربه، من دون التفات إلى غيره، ولو من باب الذهول لهول ما يراه، ولذا كان الضمير العائد إليه تعالى ـعند نقل حديثهمـ على نحو المفرد حيث يقول ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ و﴿رَبِّي أَهانَنِ﴾.

والملفت في المقام: إن ما جُعل مِلاكا للإكرام والإهانة عندهم هي المحسوسات من النّعم، ولم يرقَ فكر هؤلاء إلى أن يجعلوا مقياس الإكرام والإهانة قربهم من المولى، وهو ما تشير إليه الآيات الأخيرة من مقام

النفس المطمئنة والتي هي ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[١] وهذا هو ما كان ينبغي أن يكون عليه أحدهم في حركته في الحياة.

١٤ ـ إذا ارتقى العبد إلى مستوى فهم مدبّرية الله تعالى لهذا الوجود والمقترنة بالحكمة البالغة؛ فإنه لا تختلف عنده النعمة والبلاء؛ إذ إن العبد:

- يحب ما يحبه مولاه في أية صورة كانت محبته، فقد يحب البلاء لعبده أكثر من محبته للعافية له.
- لا يرى مزيةً في النعمة ولا نقمةً في البلاء؛ ما دام الاثنان في سبيل التكامل والرقي، بل قد يصل إلى درجة يرى في قرارة نفسه ميلا إلى البلاء؛ لما يورث له الصبر عليه من: التضرع والالتجاء إلى ربه في الدنيا، والتعويض المضاعف في الآخرة.

١٥ ـ إن المطلوب على ما تذكره هذه الآية ﴿كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ غير ما يفهمه عامة الناس من مساعدة اليتيم بالطعام والكسوة ونحوه، بل المطلوب ما هو الأعم؛ أي الإكرام بمفهومه الواسع، وهو مفهوم يغاير مجرد الإطعام، ويدخل فيه ما يوجب له الاحترام والتعظيم، المجبر للوهن الذي يورثه اليُتم عادة، كما أن المطلوب ليس إطعام المسكين فحسب، بل حثّ الآخرين على هذا العمل؛ فإن إنفاق البعض لا يسد حوائج المساكين لكثرتهم في كل عصر، بل لا بُد من سعي جماعة المؤمنين

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٨.

بالحضّ والحثّ وخاصة فيما يتعلق بالطعام؛ فإن فقْد القوت كما ذَكر أمير المؤمنين عليه السلام من موجبات أن «**يتبيّغ بالفقير فقره**»[١].

ومن الملفت أن القرآن الكريم يخصّ هذه الصفة - أي ترك الحضّ على طعام المسكين - بالذم الشديد من بين الصفات، ويجعله في مصاف صفات الكافرين ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[٢].

١٦ ـ إن فقد اليتيم للولي من موجبات التجرأ على أكل ماله، فيضم أحدهم ماله إلى ماله ﴿أَكْلاً لَمّاً﴾ ليأكل أخيرا في بطنه نارا وهو ملكوت أكل مال اليتيم.

وقد كثرت الآيات الداعية إلى الرفق باليتيم، سواء من جهة نفسه أم من جهة أمواله كقوله تعالى ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾[٣] و﴿وإذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى والْيَتامى والْمساكينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفا﴾[٤] و﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ﴾[٥] ومنها ما في هذه السورة ﴿كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ والمشتملة على الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ليكون النهي عن الفعل أردع، والتشنيع على فاعله أوقع !

---

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٠٩.

(٢) سورة الحاقة : الآية ٣٣-٣٤.

(٣) سورة الإنسان : الآية ١٢٧.

(٤) سورة الإنسان : الآية ٥.

(٥) سورة الإنسان : الآية ٢.

١٧ ـ إن القران الكريم عندما يسند أمرا إلى الطبيعة البشرية، مثل الهلع والجزع والبخل كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وإِذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعا﴾ وكحب المال ﴿وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ فإنها تشير إلى حقيقة هامة: وهي أن قلع هذه الصفات من النفس وعدم المشي وفق طبيعتها يحتاج إلى مجاهدة ومغالبة للنفس، وإلا فإن الإنسان ينساق ـ وفق هذه الطبيعة ـ كانسياق الأشياء إلى جاذبية الأرض.
والملفت هنا أن هذه السورة حذرت من تبعات حب المال بأمور محددة، منها: عدم إكرام اليتيم، وعدم إطعام المسكين، وأكل أسهم الإرث، وحب جمع المال من أي طريق، حلالا كان أم حراما.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

١٨ ـ إن قوله تعالى ﴿كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ تجعل الإنسان لا يعبأ بما تراه عينه في الدنيا من مظاهر العظمة الدنيوية: كالعمارات الشاهقة، أو مظاهر العظمة الطبيعية: كالجبال الراسية، وذلك لما يراه بعين قلبه ما ستؤول إليه هذه الشواهق إلى قاع صفصف ﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ

الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً * لا تَرى فِيها عِوَجاً ولا أَمْتاً﴾[1].

ومن الواضح أنه عندما تسوّى شواهق الأرض وتأتي المرحلة الأُخرى من ﴿وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فإنه تتجلى هيبة الحضور الإلهي في ذلك الموقف المذهل، وهنيئا لـمن كانت له علاقة الأنس مع صاحب هذه العظمة في دار الدنيا، قبل أن يرى ما ستؤول إليه الشاهقات.

١٩ ـ إن كلمة ﴿كَلاَّ﴾ المتكررة في هذه السورة مرتين ـ رغم أنها غير متعلقة بشيء ظاهرا ـ إلا أن لها معنى عميقا يتمثّل في الردع عن معنى سابق، وذلك تهيئةً لمعنى لاحق:

- ففي الأولى ﴿كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ وهي ردع عمّا هم عليه من الاعتقاد الباطل من أن (الإنعام) علامة الإكرام و(تضييق الرزق) علامة الإهانة، ليكون هذا مقدمة للدعوة إلى اعتقاد بديل من أن (إكرام اليتيم) هي علامة الإكرام، و(تضييق رزق المسكين وعدم الحضّ عليه) هي علامة الإهانة.
- وفي الثانية ﴿كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ تهيئة للاعتقاد بأن ما يوجب الإكرام والإهانة الحقيقية للعبد، هو ما يظهر يوم القيامة من أثر سعيه في الدنيا، عندما يدكّ الله تعالى الأرض دكا، ويقف الإنسان أمام ربه موقف العبد الذليل.

---

(١) سورة طه: الآية ١٠٥-١٠٧.

٢٠ ـ إن القرآن الكريم يريد ممّن يتلو آياته أن يكون من ذوي اللب وهذا يستلزم التفكر والتدبّر، فقد وردت فيه آيات تدل ـ بظاهرها ـ على جسمانية الخالق كقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] و﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2] و﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾[3] إضافة إلى ما جاء في هذه السورة كقوله تعالى ﴿وَ جاءَ رَبُّكَ﴾.

ولكن عندما يفتح العبد أقفال قلبه، ويدرك حقيقة استحالة التجسّم، حيث إنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[4] وهو الذي قال عن نفسه ﴿لَن تَرَانِي﴾[5] فإنه لا مناص من تقدير مضاف في البين من قبيل: الأمر، أو القهر، أو جلائل الآيات، أو غيره.

٢١ ـ إن (مجيئ جهنم) يوم القيامة يمكن تفسيره:

- بالمعنى المجازي، أي برزت لأهلها، كما في قوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى﴾[6] فكأنها جاءتهم بعد أن كانت غائبة عنهم.
- بالمعنى الحقيقي، أي تحركت جهنم من مكانها وأقبلت إليهم،

---

(١) سورة طه: الآية ٥.
(٢) سورة الفتح: الآية ١٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٠.
(٤) سورة الشورى: الآية ١١.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.
(٦) سورة النازعات: الآية ٣٦.

فكأن هذا الأمر أوقع في التهويل، وكأن جهنم متعجّلة لابتلاعهم قائلة ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[١] ويؤيد هذا المعنى ما روي عن النبي ﷺ عندما سُئل عن مجيء جهنم، فقال: «**إذا جمع الأولين والآخرين، أتى بجهنم تقاد**»[٢].

وقد روي أن النبي ﷺ تغيّر وجهه إلى درجة عُرف ذلك في وجهه، حتى اشتدّ على أصحابه ما رأوا من حاله، وذلك حينما نزلت هذه الآية لشدة ما فيها.. ومن المتوقع أن يتذكر الإنسان سعيه في الدنيا، ولكن من دون أن يكون لهذه الذكرى ما ينفع، حيث فات وقت العمل!

٢٢ ـ هناك مجموعة من التمنّيات لأهل المحشر عندما يرون العذاب الإلهي، منها تمنّي:

- عدم اتخاذ الخليل الذي صدّه عن سبيل ربه في دار الدنيا ﴿يا وَيْلَتى لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَليلاً﴾[٣].
- عدم تلقيّه كتاب العمل لما فيه من المخازي ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَني لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ﴾[٤].
- أن لو كان ترابا فلم يعرف حسابا ولا كتابا ﴿إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ

---

(١) سورة ق: الآية ٣٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧ ص ١٢٥.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٢٨.

(٤) سورة الحاقة: الآية ٢٥.

عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَني كُنْتُ تُراباً﴾[١].

- ومنها ما في هذه السورة حيث يتمنى تقديم شيء لحياته ﴿لَيْتَني قَدَّمْتُ لِحَياتي﴾.

ومن الملفت أن المتمنّي في هذه الآية يقول ﴿قَدَّمْتُ لِحَياتي﴾ ولم يقل: (لآخرتي) وكأنّ ما مضى لم يكن حياة أصلا وهو ما تبيّنه آية أُخرى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُون﴾[٢].

٢٣ ـ إن عادة الكريم الحليم قائمة على عدم التهديد والوعيد إلا في مقام الضرورة، فكيف بفعلية الوعيد؟!.. وكيف إذا كان الوعيد في أوجه من التهديد؟!

وبعدها نقول: إن جرأة بني آدم على ربه بلغت مبلغا جعلته تعالى ـ وهو الذي سبقت رحمته غضبه ـ يهدده بأعلى درجات التهديد؛ حيث يقول تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ﴾ فجعل نفسه في مقام القهارية العظمى، سواء أسندنا ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿يُوثِقُ﴾ إلى ذاته المقدسة بقراءة المعلوم، أو إلى العبد المعذَّب والموثوق بقراءة المجهول.. ومن المعلوم أن التأمل في هذا الوصف من العذاب والوثاق، يهوّن على المؤمنين ما نزل بهم من تعذيب الكفار لهم؛ لأن ما ينتظر الظالمين من

---

(١) سورة النبأ: الآية ٤٠.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.

العذاب لا يخطر بالبال !

٢٤ ـ إن (النفس المطمئنة) تشرّفت بالخطاب هنا بقوله تعالى ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ وإن لم يكن صاحبها ممّن يُوحى إليه!

وليُعلم أن الطريق إلى اطمئنان النفس مبيّن في القرآن الكريم، وهو متمثل في (الذِكر) حيث يقول تعالى ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] وهو يتحقق بأمرين :

- الصلاة : حيث قال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[2] .
- القرآن : حيث عبّر عنه مُنزله قائلا ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[3] .

فبمجموع القرآن الصاعد وهي (الصلاة) والنازل وهو (القرآن) يمكن الوصول إلى هذه الرتبة.. وهذا هو الذي جعل الإمام السجاد ﷺ يقول : **«لو مات مَن بين المشرق والمغرب، لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي»**[4] .

٢٥ ـ إن استخدام تعبير الجنة مضافة إلى الباري تعالى ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ لم يرد إلا في هذه السورة المباركة ؛ وذلك لإفهام مزيد الشرافة لهذه الجنة التي أُعدّت لجمع من العباد قد أضافهم إلى نفسه، وكذلك الأمر في

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨.

(٢) سورة طه : الآية ١٤.

(٣) سورة الحجر : الآية ٩.

(٤) الكافي : ج ٢ ص ٦٠٢.

قوله تعالى ﴿فَادْخُلي في عِبادي﴾ حيث جعل المولى الدخول في زمرة العباد المخصوصين بالعناية جزاء للنفس المطمئنة، وما ذلك إلا لأنهم خلّصوا أقدس بقعة من وجودهم ممن سواه ـ ألا وهو القلب ـ فأفاض عليهم من الاطمئنان ما جعلهم راضين عنه، ومرضيين لديه.

ومن الملفت في المقام: إن الله تعالى ذَكر ـ في مقام الجزاء ـ دخولهم أولا في زمرة العباد، وعلى رأسهم كما روي عن الصادق عليه السلام: «**محمدا وأهل بيته**»[1] ثم دخولهم الجنة، فإن شرف الجنة بأهلها، كما أن شرف كل مكان بالمكين!

٢٦ ـ إن دخول الجنة عموما أو الجنة الخاصة بأولياء الله تعالى، يتوقف على الخوف من مقام الرب كما في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فإن الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ وهذا الخوف ملازم أو ملزوم لمخالفة الهوى الذي يُسند إلى صاحبه، إذ لا إجبار في البين.

وينبغي التفريق هنا بين الخوف من المقام، والخوف من العقاب، فالأليق بخاصة العباد هو الأول لا الثاني، لعدم ارتكابهم ما يوجب لهم العقاب.

---

(١) الكافي: ج ٣ ص١٢٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾.

١ ـ إن القَسَم الوارد في هذه السورة والمسبوق بـ(لا) النافية يمكن تفسيره بوجوه، وهي تسري على سائر الموارد المشابهة، ومن هذه الوجوه:

- إن نفي القَسَم الوارد في هذه السورة هو نفي حقيقي، بمعنى: أن الله تعالى لا يُقسِم ببلد مثل مكة، والنبي ﷺ فيها مهدور الدم ومباح العرض، فإن مكة ـ على شرافتها ـ لا يُقسِم بها وهذا حال النبي ﷺ فيها، وعلى هذا التقدير فإن نفي القَسَم فيه كمال التعظيم للنبي ﷺ.
- إن الأمر في المُقْسَم عليه ـ بناء على النفي حقيقةً ـ إنما هو على درجة من الانكشاف لا يحتاج معه إلى القَسَم.
- إن القَسَم على حقيقته، وتكون (لا) للتأكيد، كما جاء في ثمانية موارد أُخرى من القرآن الكريم، ومعناه على هذا التقدير: (إنني أُقسِم بهذا البلد وأنت مقيم وحالّ فيه) أي إن هذه البقعة

على شرافتها تستحق القسم بها، لشرافة أُخرى متمثلة في إقامة النبي ﷺ فيها، فعاد الأمر تعظيما له أيضا.

٢ ـ إنْ جعلنا المراد بـ﴿وَوالِدٍ وما وَلَدَ﴾ خصوص إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام ـ ليناسب ذِكر مكة في صدر السورة ـ فإن السورة تكون فيها إشارة لرموز التوحيد (البشرية) المتمثلة بإبراهيم ﴿وَوالِدٍ﴾ وإسماعيل ﴿وَما وَلَدَ﴾ والنبي الخاتم ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ﴾ وإشارة إلى رموز التوحيد (المادية) كمكة المكرمة ﴿لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ﴾ ولا يخفى ما في مجموع القرآن الكريم من كثير الثناء على باني الكعبة وولده وزوجته، فإن الله تعالى شكور لـمن صار له حق على توحيده في الأرض!

والملاحظ هنا أن الله تعالى ذكر الوالد بتعبير النكرة للتعظيم، والولد بتعبير (ما) عدولا عن (من) للدلالة على التعجب، وهذا بدوره دليل على علو شأنهما أيضا كقوله تعالى ﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[1].

٣ ـ إن القرآن الكريم يهيّئ العباد لتحمّل شيء من العناء طوال فترة عيشهم في هذه الحياة الدنيا، فلا يُفاجأ العبد بما يلاقيه من مشقة؛ لأنه سوف يجني ثمار أتعابه؛ كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ ومنها ما في هذه السورة الدالة على أن الإنسان وكأنه خُلق في المشقة والتعب ـ مبالغة لوصف الحالة ـ وهذه المشقة لازمت خلقته

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

من حين كان في بطن أمه إلى حين خروجه وولادته ؛ حيث ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾[1] ثم ﴿وَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[2] ولازمَته هذه المشقة في جميع مراحل حياته المختلفة : ككسبه للعيش ، ومواجهته لإيذاء الغير إلى حين موته.

ومن المعلوم أن علمه بملازمة المشقة له طوال عمره، لمن موجبات الانقطاع إلى الله تعالى الذي بيده رفع الشدائد ، أو تخفيف وقْعها عليه .

٤ ـ يرى البعض أن (الكَبَد) المشار إليه في قوله تعالى ﴿فِي كَبَدٍ﴾ بمعنى الاستواء والاستقامة ، فيكون معنى الآية مماثلا لقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3] وهذا المعنى يناسب ما سنتناوله في الآيات اللاحقة من بيان وجوه الاستقامة في الخلق : من خلقة العين ، واللسان ، والشفة.

وهذا هو ما يناسب أيضا دعوة العباد للمراقبة ـ بعد رؤية هذا الخلق البديع ـ بقوله تعالى ﴿أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ وللإنفاق في سبيله شكرا على هذه النعم بقوله ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ .

٥ ـ إن من وجوه المقابلة بين الدنيا والآخرة ، هو أن الله تعالى خلق الإنسان في الدنيا ملازما للمشقة والتعب ، والحال أنه خلق الراحة والأمان في الآخرة بفارق : أن مشقة الدنيا فانية زائلة بالموت ، وراحة الآخرة باقية

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ١٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة التين : الآية ٤.

أبدية بالخلود؛ فأي عاقل لا يشتري الراحة الأبدية بالمشقة الفانية؟!
فالحق في المقام ما قيل من أنه لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا؛ لكانت الآخرة خيرا من الدنيا، فكيف والدنيا خزف فانٍ والآخرة ذهب باقٍ؟!

٦ ـ إن القرآن الكريم أورد في هذه السورة ذِكر مَن ينفق مالا كثيرا ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً﴾ وهؤلاء على أقسام:

- منهم مَن ينفق ماله رياء فيناسبه القول: بأن الله تعالى يراه ويرى عمله، ويعلم النية التي صدرت منها الأعمال رياء ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾؟!
- ومنهم مَن ينفق ماله في محاربة الدعوة الإلهية وإيذاء النبي الأكرم ﷺ فيناسبه القول: **بأن الله تعالى قادر على أخذِه** وطمس ماله ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾؟!
- ومنهم مَن ينفق ماله وهو يمنّ على الله تعالى بأن جعل ماله للفقراء والمساكين، كالذي قال في زمان النبي ﷺ: «**لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمد**»[1] فيناسبه القول: بأن الله تعالى هو صاحب المنّة العظمى عليه، حيث جعل ﴿لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ﴾.

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٧٤.

٧ ـ إن القرآن الكريم مليء بالآيات الداعية للرجوع إلى النفس، لحمْلها على الالتفات إلى عالم الغيب لما يوجبه ذلك من الانقطاع إلى الله تعالى باطنا، ومراقبة السلوك ظاهرا؛ ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾[١] ومنها أيضا ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢] ومنها ما ورد في هذه السورة كقوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.

فمفادها جميعاً: إن الله تعالى يرى العبد في كل تقلباته، أضف إلى كونه في قبضة الله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ فكون الإنسان في شدة وتعب يوجب له الخشوع الباطني، وهو مدعاة ـ إن لم يكن ملازما ـ للخضوع والخشوع الخارجي.

٨ ـ إن المشكلة في كل مَن انحرف عن طريق الهداية هو أنه رأى الوجود من خلال نفسه، فلم يعتقد بحقائق الوجود إلا بقدر ما صوّره لنفسه، وأنكر منها ما بنى هو على إنكاره مكابرة من دون برهان قاطع، ومن هنا أنكرت الآيتان عليهم قائلة ﴿أَيَحْسَبُ﴾ مرتين.

وعليه، فإن الخلاص ممّا هم فيه يكون بتغيير هذا الحسبان، على وفق ما يريده المولى الذي يرى العبد من ناحية، ويقدر عليه من ناحية أُخرى.

والملفت هنا أن هؤلاء بحسبانهم الواهم، أنكروا أمرين واضحين لكل ذي

---

(١) سورة العلق: الآية ١٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

لب: أنه أولا لا يراه أحد، وثانيا أنه لا يقدر عليه أحد؛ فيا له من حسبان سخيف!

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾.

٩ ـ إن الآيات الكريمة تُشير في أكثر من سبعين مورد للجعل في عالم المحسوس وغيره، ومنه ما في هذه السورة من ذِكر موارد الجعل فقال تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ﴾ وعدّاه إلى أكثر مظهر من مظاهر قدرته، إلا أن القضية لا تنتهي عند الجعل والمجعول ـ فذاك شأن الربوبية ـ وإنما المهم فيمَن يدرك هذا الجعل ويحوّله إلى أداة للاعتبار، والإحساس بمنّة الجاعل وقدرته، وهذا هو المطلوب من شأن العبودية.

١٠ ـ لا يحتاج العبد لمعرفة عظيم منّة الله تعالى إلى السفر في الآفاق، أو الغوص في أعماق النفس، بل يكفي أن ينظر إلى ما في بدنه، وعلى الخصوص إلى الآيات الباهرة التي أودعها الله تعالى في رأسه من ﴿عَيْنَيْنِ﴾ وعجائبها، فهي بالإضافة إلى أنها أداة الإبصار، فهي أيضا وسيلة لنقل الأحاسيس والعواطف، بل التأثير الروحي كما هو معروف ﴿وَلِساناً﴾ **يؤدي من الأغراض ما يُبهر، من المضغ، والنطق، وترطيب الطعام، ومن** ﴿شَفَتَيْنِ﴾ **بهما قوام النطق، فهي آخر مخارج الحروف بعد الحلق وفضاء**

الفم.. ولا يخفى أن عملية النطق باللسان والشفتين من أعقد العمليات في الوجود، لما يصاحبها من التفكير غير المحسوس ثم التعبير عنه بالمحسوس ؛ وبمجموع العمليتين انتقلت المعارف البشرية بكل صورها.
وبعبارة جامعة يمكن القول : بأن التأمل في الوجود الإنساني مادة وروحا، محقق للسير الآفاقي والأنفسي معا .

١١ ـ إن الله تعالى كثيرا ما يؤكد على حقيقة الهداية الباطنية، فمنها ما في قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[١] ومنها ما في هذه السورة حيث يقول تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ولا يخفى ما في كلمة ﴿النَّجْدَيْنِ﴾ من لطف، حيث تدل على الطريق المرتفع، فأصل الطريق يمهد السلوك لسالكه، فكيف إذا كان مرتفعا وواضح المعالم!
والسر في التأكيد على هذه الحقيقة : هو أن لا يحتجّ أحد بعدم وجود مذكِّر له عند ارتكاب ما يعرفه من القبائح بالفطرة : كالكذب والظلم وأشباهه، إذ إن استنكار الضمير من أفصح المحتجين في باطن كل إنسان!

١٢ ـ لا تخفى المناسبة بين العينين والشفتين من ناحية، والنجدين من ناحية أُخرى، فإن الله تعالى كما جعل أدوات تحكّم في الباطن متمثلة بالمعرفة الوجدانية للخير والشر ؛ فإنه جعل أيضا أدوات تحكّم في الظاهر من العينين اللتين بإمكانهما غضّ البصر، والشفتين اللتين بإمكانهما حبس

---

(١) سورة الشمس : الآية ٨.

اللسان من دون مشقة زائدة.

وعليه، فإنه لا عذر لِمن أطلق بصره ولسانه، سواء في حرام أو فضول.

١٣ ـ إن المطلوب من العبد في هذه الحياة أن يقتحم العقبات ـ وهو الدخول في الشيء بسرعة ـ والمتحقق من خلال تجاوز هوى النفس ومشتهياتها، فكما أن البِرّ لا يُنال إلا بالإنفاق ممّا يحبه العبد؛ فكذلك الأمر بالنسبة إلى اقتحام موانع السير إلى الله تعالى؛ فإنه لا يتم إلا في موارد العمل بما يشق على النفس مثل ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وهو ممّا قد يستلزم المال الكثير، والإنفاق عند القحط ﴿إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ بفارق أن في الأول: تخليص إنسان بكامله من قيد الرق، وفي الثاني: تخليصه من خصوص الجوع.

وقد بلغ الأمر من الأهمية إلى درجة عبّر عنه القرآن الكريم ﴿وَما أَدْراكَ﴾ الذي لا يُستعمل إلا في موارد يصعب على العباد استيعاب حقائقها، فكان ما خفي عنهم من الجزاء ممّا لا يمكن تصوّره!

١٤ ـ إن المؤمن عندما يريد أن ينفق مالا في سبيل الله تعالى أو يُطعم طعاما في حبه؛ فإنه ينظر إلى الأقرب لمرضاته تعالى في جزئيات ذلك العمل القربي.

وبعبارة أُخرى: هو حريص على اختيار أفضل المصاديق لذلك العنوان العام، وفي هذه الآيات دلالة على بعض العناوين المرجحة الأُخرى بعد إحراز أصل الرجحان في الإنفاق، فمنها:

- اليتم ﴿يَتِيماً﴾ لما يعانيه من آلام فقْد مَن كان يرعاه .
- القرب النسبي ﴿ذا مَقْرَبَةٍ﴾ .
- شدة الفقر ﴿ذا مَتْرَبَةٍ﴾ وكأنه التصق بالتراب لشدة فقره .
- اختيار الأيام التي تعظم فيها الحاجة كأيام المجاعة ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ .

١٥ ـ إن الآيات بظاهرها ناظرة إلى فك الرقاب وإطعام البطون في دائرة المحسوس ويُعدّ ذلك اقتحاما للعقبة ، مع الالتفات إلى أن الآيات لم تقيّد المُنفَق عليهم بقيد الإيمان أو الإسلام ، فكيف إذا كان الأمر في دائرة المعقول ، أي : مَن فك رقبة عبد مسلم آبق من النار ، أو هدى مؤمنا ضالا فأطعمه من طعام عالم المعنى ، أو تكفّل يتيما من يتامى آل محمد ﷺ ؛ فأي جزاء ينتظر مثل هذا العبد يوم القيامة؟!

ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الخبر : «**أن الله تعالى أوحى إلى موسى : حببني إلى خلقي وحبب خلقي إلي ، قال : يا رب كيف أفعل؟.. قال : ذكّرهم آلائي ونعمائي ليحبوني ، فلإن ترد آبقا عن بابي ، أو ضالا عن فنائي أفضل لك من عبادة مائة سنة بصيام نهارها ، وقيام ليلها ، قال موسى عليه السلام : ومن هذا العبد الآبق منك؟.. قال : العاصي المتمرد**»[1] .

---

(١) بحار الأنوار : ج ٢ ص ٤.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

١٦ ـ إن الإنفاق ـ وخاصة في أيام الشدة ـ مظهر من مظاهر اقتحام العقبة وهو يتعلّق بجوارح العبد في عالم الأفعال، وهناك مظهر آخر لاقتحامها يتعلّق بجوانحه ـ أي بنفسه ـ يتمثل في قوله تعالى ﴿ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ وهذه المرتبة الباطنية أرقى من المرتبة الخارجية؛ لأن أفعال الجوارح تصدر عن حركات الجوانح، ولعله من هنا عطف عليه بأداة (ثم) للدلالة هنا على التراخي في الرتبة، لا في الزمان.

وعليه، فإنه لا بُد من البناء الباطني بموازاة العمل الخارجي من:

- الإيمان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ مع عدم وجود البنية الاعتقادية الصحيحة لا مجال للتكامل أبدا.
- امتلاك حالة باطنية من الحرص على تكامل العباد ﴿وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ تتمثل بالتواصي بالصبر سواء في مجال البلاء، أو الطاعة، أو الصبر عن الحرام.
- الشفقة على الخلق تتمثل بالتواصي بالمرحمة فيما بينهم ﴿وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ ليجمع بذلك أداء حق الخالق والمخلوق كما في سورة العصر ﴿وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ومن

مصاديق الحق هو التواصي بالمرحمة .

١٧ ـ جرت عادة القرآن الكريم على ذكر العمل الصالح معطوفا على الإيمان ، ولكن في هذه السورة عدل إلى ذكر التواصي بالصبر وبالمرحمة ولا غرابة في ذلك.. إذ إنه بمجموعهما يتحقق العمل الصالح ـ ندبا كان أو فرضا ـ بالإضافة إلى وجود مزيتين إضافيتين في التعبير بالتواصي بالصبر والمرحمة ، ألا وهما :

- أن بهذا التواصي يتحقق شيوع العمل الصالح في المجتمع .
- أن هذا التواصي يحقق الأساس الثابت للعمل الصالح : فمَن تحلّى بالصبر ، وتحسس حالة المرحمة تجاه العباد ؛ كان ذلك مدعاة للعمل الصالح .

١٨ ـ إن التكامل في المجتمع الإيماني لا يتم بعمل طائفة منهم بوظيفته من توصية الآخرين فحسب ، لينقسم الناس بعدها إلى واعظ وسامع للموعظة ، وإنما المطلوب هي هذه الحالة من تبادل الوصية ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ بمعنى أن يكون كل واحد منهم واعظا ومتعظا في وقت واحد ، وذلك لاعتراء الغفلة والسهو جميع البشر إلا مَن عصمه الله تعالى.

ومن المعلوم أنه بهذا التواصي تتحول الأفعال إلى حالات ، ثم إلى عادات ، ثم إلى ملكات ؛ وهي قمة المراد .

١٩ ـ إن الله تعالى من خلال كتابه الكريم يُعلّم العباد أسلوب الدعوة إليه ، فهو رغم أنه مالك كل شيء ومليكه ، وله الحق أن يطلب من عباده

التعبّد بأوامره ونواهيه، إلا أنه يتودّد إليهم بصنوف الحديث، وفي هذه السورة صور من أساليب التأثير على العباد فيذكر لهم:

- المصاديق بدلا من الدعوة العامة المبهمة، فذَكَر العتق والإنفاق في يوم مجاعة، وعلى خصوص الأيتام من ذوي القربى، وعلى المساكين مدقعي الفقر.
- ما يثير شكرهم الموجب للتعلق بخالقهم، وذلك من خلال خلقة العين، واللسان، والشفتين.
- ما يوجب التفات غير المؤمنين إليهم، وذلك عندما عمّم الدعوة إلى الخير بما يشمل غير المسلمين كالعتق لهم، والإنفاق عليهم.
- ما لا يوجب استعلاء طبقة خاصة على أنهم الوعاظ وأن غيرهم دونهم بدرجة، فكان الأمر بالتواصي بالصبر.
- ما فيه صلاح معاشهم في الدنيا أيضا، لئلا تنحصر همّتهم في الآخرة فحسب، فكان الأمر بالتواصي بالمرحمة!

٢٠ ـ إن عامة الناس يرون اليُمن والشؤم في أمور باطلة كطيران الغراب وما شابه ذلك، والآيات الأخيرة من هذه السورة المباركة تريد أن تثبت ذلك بما يتعلق بخواتيم الأمور في الدار الآخرة: فإن ﴿أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ هم مَن اجتازوا الصراط بسلام، و﴿أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ مَن كانوا على خلاف ذلك وكلاهما يتحددان في دار الدنيا على قِصَرها.

ومن المعلوم أن اللؤم والشؤم متلازمان، كما أن الكرم واليُمن كذلك، وهو ما يُفهم من هذا الحوار الذي جرى مع سلمان المحمدي عندما قِيل له : مَن أنت، وما قيمتك!.. فقال : «**أمّا أولي وأولُك فنطفة قذرة، وأمّا آخري وآخرك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة، ونصبت الموازين : فمن ثقلت موازينه فهو الكريم، ومن خفت موازينه فهو اللئيم**»[1] .

٢١ ـ إن آية العذاب في هذه السورة لم تفصّل في أنواعه، ولكن يكفي للردع عنها أنها استعملت النار بصيغة النكرة للدلالة على تعظيمها!.. أضف إلى ذكر ما يزيد في عذابها عذابا ؛ ألا وهو أن هذه النار مطبقة عليهم من جهة العلو أيضا، إذ صار التعبير بـ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فكان في حكم قوله تعالى ﴿أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها﴾[2] .

وعليه، فإن إحساس المُعذَّب بالنار بأنه لا مجال للفرار منها يزيده عذابا وإيلاما، أضف إليها تحقق ذلك الخلود الذي طالما ذُكر جزاء للكافرين المكذبين بآيات الله تعالى .

---

(١) بحار الأنوار : ج ٢٢ ص٣٥٥.

(٢) سورة الكهف : الآية ٢٩.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

١ ـ إن الارتباط واقع قطعا بين الأقسام القرآنية وما يُقسَم عليه، ولكن لابُد للمتدبّر في القرآن من اكتشاف ذلك وهذه حكمة من حِكم الإتيان بالقَسَم، وإلا فهو تعالى أجلُّ من أن يحتاج إلى قَسَم لدفع شبهة في البين، كما هي حاجة البشر في المحاكم مثلا!

وعليه، فإنه من الممكن القول: بأن المناسبة بين هذه الأقسام المتمثلة بـ(عجائب الصنعة) وبين (التزكية البشرية) هو أن الله تعالى سخّر للعبد كل ما في الوجود ليصل إلى هذا الكمال أعني التزكية، ومع انتفاء هذه الثمرة فإن وجود العبد يكون نشازا في هذا الوجود؛ لأن كل المخلوقات الصامتة حققت الغرض من وجودها، إلا هذا الموجود الناطق!.. ويؤيد هذا المعنى ما روي في الحديث القدسي: «يابن آدم، خلقت الأشياء لأجلك،

وخلقتك لأجلي»[١] .

٢ ـ إن الأقسام مختلفة في السور القرآنية كمّا وكيفا ، فمن جهة الكيف فإنها مختلفة بحسب تعلقها بمتعلَّق : كالظواهر السماوية ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾[٢] والأرضية ﴿ وَالْأَرْضِ وَما طَحاها﴾ والأنفسية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ والأخروية ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾[٣] .. ومن جهة الكم فهي تتراوح بين الواحدة ﴿وَالْعَصْرِ﴾[٤] والإثنين ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾[٥] والثلاث ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى والنَّهارِ إِذا تَجَلَّى وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى ﴾ والأربع ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ* وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾[٦] والخمس ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[٧] .. ولكن الأقسام في هذه السورة بلغت أحد عشر قسما ، وكل ذلك وارد على مُقْسَم عليه واحد ، ألا وهي النفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ مما يُعلم أن أساس كل كمال في الدنيا والآخرة ، هو هذا الذي يستحق مثل هذه الأقسام المتكررة .

---

(١) بحار الأنوار : ج ٢٢ ص٣٥٥.

(٢) سورة الطارق : الآية ١.

(٣) سورة البروج : الآية ٢.

(٤) سورة العصر : الآية ١ .

(٥) سورة الضحى : الآية ١-٢.

(٦) سورة التين : الآية ١-٣.

(٧) سورة الفجر : الآية ١-٤.

والملفت هنا أنه لا نجد في مجموع القرآن مثل هذا التمهيد، لأي فرع من فروع الدين.. وعليه، فإن المطلوب من العبد ذلك الأمر الذي هو وراء العبادة الظاهرية؛ ألا وهو تخليص النفس من الملكات والصفات الرذيلة المتعلقة بعالم الجوانح، والتي يظهر غالبا أثرها على الجوارح قهرا.

٣ ـ أرجع بعض المفسرين الضمير في ﴿جَلاَّها﴾ إلى الأرض، ولا إبهام على هذا التفسير، ولكن البعض أرجعه إلى الشمس بمعنى أن النهار ـوالذي هو مُسبَّب من الشمسـ قد جلّى الشمس، وفيه من الإبهام ما لا يخفى، فنقول حلّا لذلك: إن الشمس لبعدها عن تناول الأيدي، لا تكون جلية للإنسان كجلاء ما على الأرض، والحال بأن النهار الذي يعيش فيه الإنسان ويتنعّم ببركاته، أمرٌ لا يخفى عليه لقربه من حواسه، كما أن الأمر كذلك في المرآة ـ وهي الفرع ـ فإنها مُظهرة ومجلّية للصورة وهي الأصل.

ومن هنا يصح أن يكون العبد الداعي إلى الله تعالى بمثابة النهار الذي يجلي الشمس الساطعة، فيكون دليلا إلى الله تعالى، وهكذا الحال في إحياء ذكر النبي وآله عليهم السلام فقد وردت الرحمة لمن أحيا أمرهم، والحال أن محيِي أمْرِهم في رتبة أقل ممّن يُحيَى أمْرُهم.

٤ ـ إن ممّا لفت نظر المفسرين إطلاق (ما) على الباري جلّ ذِكره دون (مَن) وذلك للإشارة إلى تلك القوة العجيبة والمبهمة ـبنظرنا القاصرـ والتي بها قامت السماء والأرض والنفس، حسب ما هو مذكور في الآية كأمثلة للبسائط: أي الشمس والأرض، والمُركّبات: أي النفس التي

جاءت نكرة ـ دون الأولين ـ إشارة لعظمتها .

ومن هنا لزم الانتقال من مَظهر العظمة إلى موجد العظمة ، وهذه مشكلة الباحثين في عالم الطبيعة في أنهم ينبهرون بالمصنوع ، دون الانتقال إلى الصانع فلا ينفعهم في تقريبهم إليه ، ولا نرى تلك الخشية الموعودة لعباده العلماء.

ولا يخفى أخيرا ما في عطف الذات الإلهية على مخلوقاته ـ في سياق القَسَم ـ من دلالة على عظمة هذا الصنع الذي عُطف ذِكره على ذكر خالقه! .

٥ ـ إنه من الممكن أيضا تفسير (ما) في الآية السابقة بالقوانين الإلهية الحاكمة في هذا الوجود والمسؤولة عن بناء السماوات ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ وتسوية الأرض ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.. ومن هذه القوانين : الجاذبة الكونية الحافظة لكل ما في هذه المجرات من أجرام سماوية ؛ ممّا يُفهم منه أن خلق ما في الوجود ـ كعناصر ثابتة ـ يمكن أن نجعلها في كفة ، والقوانين المدبرة لها في كفة أُخرى.

ومن المعلوم أن الذي يعقل هذا القوانين هو الإنسان ، وإلا فإن الحيوان يرى ما يراه الإنسان على حد سواء ، بل أفضل منه ـ كما هو معلوم في أفضلية حواسها على حواس بني آدم ـ ولكن من دون الانتقال من المعلول إلى العلة!

٦ ـ كما أن النفس تطلق على الروح ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ

مَوْتِهَا﴾[١] فإنها تطلق أيضا على ما يشمل الجسد أيضا كقوله تعالى ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[٢] ومن الممكن أن تشمل التسوية في قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ للروح والبدن، فإن الله تعالى أعمل قدرته الخلاقة فيهما معا، حيث مدح نفسه قائلا ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٣] بعد خلق البدن ونفث الروح فيه، وهو المُشار إليه في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾[٤].

٧ ـ إن الآية التي تُسند الإلهام إلى الله تعالى بقوله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ من موجبات إتمام الحجة على العبد يوم القيامة، فلا يتذرّع بعدم وجود مذكّرٍ خارجي؛ وذلك لأن الذي ألهمه رب العالمين، بمثابة الرسول الباطني الذي لا يفارق أحدا.

إن الله تعالى جعل الموضوع في الإلهام، مطلق النفس الإنسانية من دون وصفها بالإيمان، كما جعل الموضوع في آية ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[٥] مطلق الإنسان أيضا، كما جعل الموضوع في الفطرة هو الناس ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٦] ممّا يُفهم من

---

(١) سورة الزمر: الآية ٤٢.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٣.

(٣) سورة غافر: الآية ٦٤.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٥) سورة القيامة: الآية ١٤-١٥.

(٦) سورة الروم: الآية ٣٠.

مجموع ذلك أن التزام جادة الفطرة والاستقامة، لا يحتاج إلى أمر خارج عن الذات الإنسانية.

ولكن يضاف إلى ذلك القول: بأن وظيفة الأنبياء تتمثل في التذكير بنداء الفطرة، ومنع طمسها بالمعاندة، ومن ثم الدلالة على جزئيات الطاعة التي لا تدرك بالعقل، ومع هذا كله تبقى مسؤولية التزكية بعهدة العبد نفسه، ومن هنا نسبها المولى إلى العبد نفسه قائلا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾.

٨ ـ إن الإلهام هنا يتمثل في إفاضته تعالى ما يُعين الإنسان على التصوّر والتصديق في عالم الحُسن والقبح (الحكمة النظرية) وهي أدنى درجات التسديد الإلهامي للنفس الإنسانية.

ولكن، يمكن القول بأنه ما المانع ـ بعد انفتاح باب الرحمة بسبب التزكية المميزة ـ أن ينفتح باب إفاضته تعالى فيما يُعين العبد على تلمّس مصالحه ومفاسده الشخصية (الحكمة العملية) ليكون سيره في جزئيات أموره على صراط مستقيم، إضافة إلى أصل سيره في الحياة وهو ما نطلبه في كل ركعة من صلاة نافلة أو فريضة، وذلك خلال قراءة سورة الفاتحة.

٩ ـ فُسِّر (الفجور) لغةً بأنه شق لستر الديانة، كما أن (الفجر) شق لستر ظلام الليل، وفُسّرت (التقوى) بأنها وضع النفس في وقاية ممّا يُخاف منه، وعليه فإن مَن ألهمه الله تعالى هذين الأمرين بمقتضى قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فقد أوجد المقتضي من ستر الوقاية، وأزال المانع ممّا يشق ذلك الستر، وهذا هو أساس الكمال خلافا:

- لِمن شق الستر بارتكاب الفجور، أوَ هل يضمن الرتق بعد مثل هذا الفتق؟!
- لِمن رفع الحصانة عن نفسه بترك التقوى، أوَ هل يضمن عدم استيلاء الشياطين على مملكته؟!

١٠ ـ لعل السر في تقديم الفجور على التقوى في عالم الإلهام ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ هو أن التخلي من الرذائل مقدم على التحلي بالفضائل، أضف إلى أن فجورية الفجور تمجّه الفطرة السليمة من دون تأمّل، ومن هنا كان وزر فاعل الفجور أعظم من تارك التقوى، إذ إنه خالف ما هو المغروس في الفطرة والوجدان!

وهذا هو الذي حصل لعاقر الناقة إذ إنه تحدّى القدسية الربوبية المتمثلة بالناقة المرسلة فهتكها، ولم يكن الأمر مجرد مخالفة عملية لغلبة ميل أو هوى، ومن هنا كان العذاب النازل عليه وعلى قومه أيضا، عذابا نادرا مميزا في الشدة والشمول!

١١ ـ إن كل مَن في الوجود يسعى نحو الفلاح بنظره، ولكن المشكلة في التطبيق عند تعيين المصاديق، فالبعض يراه في:
- متاع الدنيا، كقوم قارون ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٩.

- العلم الذي يحقق الذات، كقوله تعالى عن الذين سخّروا علمهم للظفر بمتع الدنيا ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[١].

- تكاثر المال والأولاد ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[٢].

- السلطان والاستعلاء على الغير ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾[٣].

ولكن القرآن الكريم يختم هذا النزاع بحصر الفلاح بـ﴿مَن تزكّى﴾ لا بـ﴿مَن اسْتَعْلَى﴾!

١٢ ـ عندما يذكر القرآن الكريم الفلاح المترتب على فعل الخير، فإنه يذكره بصيغة الترجّي ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤] ولكن الفلاح المترتب على التزكية فقد ذكره بنحو التحقيق ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾.

ومن ذلك يُعلم الفرق بين العمل الجوانحي والجوارحي، فنسبة الأول إلى الثاني كنسبة الجذور إلى الأغصان؛ أي إنه إذا وجد الجذر السليم نبتت الشجرة اليانعة، ويؤيده الحديث النبوي: **«نية المؤمن خير من عمله»**[٥]!

١٣ ـ إن القرآن الكريم عندما يطلق القول، فإنه يريد معنىً شاملا،

---

(١) سورة غافر: الآية ٨٣.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٣.

(٣) سورة طه: الآية ٦٤.

(٤) سورة الحج: الآية ٧٧.

(٥) بحار الأنوار: ج ٧٤ ص ١٧٨.

ما لم تقم القرينة على خلافه، فمثلا: إطلاق الإيمان والعمل الصالح في الآيات الكثيرة، يقتضي الإيمان والعمل الصالح بشموله وتمامه، وهكذا نقول في هذه الآية الكريمة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ فإنها تقتضي أيضا التزكية الشاملة سواء في بُعد: العقائد، أو المشاعر، أو الأفعال؛ وهي أبعاد الوجود الثلاثة.

ومما يؤيد ذلك أن الفلاح المذكور هنا ذُكر أيضا في قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم يُفصّل بعدها صفات المؤمنين بما يشمل ترك اللغو الذي قد يراه البعض أمرا تكاملياً غير لازم، ممّا يدل على سعة دائرة الالتزام لِمن يريد الفلاح.

١٤ ـ إن عملية التزكية هي عملية اختيارية يقوم بها العبد من تلقاء نفسه، وإلا فلو كان الأمر جبرا لانتفت حكمة الثواب، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إنك قد جُعلت طبيب نفسك، وبُيّن لك الداء، وعرفت آية الصحة، ودللت على الدواء؛ فانظر كيف قيامك على نفسك**»[1]!

ولكن مع ذلك فإنه ينبغي للعبد أن يدعو دعاء حثيثاً، ليعينه الله تعالى على نفسه لنفسه، وعلى عدوه لنفسه، فقد روي أنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ وقف ثم قال: «**اللهم!.. آت نفسي**

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج ١٣ ص٢٤٦.

تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[١].

ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء﴾[٢] ولا منافاة بين تزكية العبد لنفسه وتزكية الله تعالى له، كعدم المنافاة في تحقيق فعلٍ، بين عمل المُعين والمُعان!

١٥ ـ إن التعبير عن إصلاح النفس بالتزكية، فيه نوع حثّ وتحضيض لِمن سار في درب المجاهدة، فإن ثمرة هذا الجهد هي التنمية والتكامل، لا التنقية من الشوائب فحسب، كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام في ربط العلم بالزيادة: «**العلم يزكو على الإنفاق**»[٣] !

وبعبارة أُخرى: فإن المزكّي لنفسه إنما هو يُضفي على نفسه كمالاً يرتضيه، لا أنه يحرمها لذة يشتهيها، فما أوجب للبعض ترك هذا السبيل هو الخوف من الحرمان، والحال أنه لو تحقق حرمان في البين لكان ذلك في سبيل التكامل، وهو أمر يستحق معه ترك بعض المتع العاجلة من أجل الكمال الدائم.

والملفت هنا أن أهل الدنيا طالما تحملوا حرمان شيء لحيازة ما هو أفضل، فلم لا نعتبر بهم في هذا الأمر؟!

١٦ ـ إن هناك بونا شاسعا بين بذرة نامية يرى زارعها نموها يوما

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٢ ص٢٢٠.

(٢) سورة النور: الآية ٢١.

(٣) بحار الأنوار: ج ١ ص١٨٨ .

فيوما إلى أن تؤتي ثمارها ، وبين بذرة مدفونة أخفاها صاحبها في التراب إلى أن تلفت قبل خروجها من الأرض .

وهذه هي حالة مَن سلك غير سبيل التزكية والتي عُبر عنها في قوله تعالى ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ فهو أخفى أمانة النفس في قبر الشهوات والأهواء ، كما أخفى الجاهليون أمانة البنات في التراب كما قال عنهم تعالى ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[1] فصار التعبير بالدس في كليهما واحدا ، وكأن مَن وأد نفسه وبنته في مستوى متقارب في جوهر الإجرام ، وإن لم يكن الأمر جليا بالنظرة الأولى.

والملفت هنا تكرار كلمة (قد) في مورد الفلاح والخيبة ، للاعتناء بالحقيقتين ـ على حدٍ سواء ـ في توجّه القَسَم إليهما .

١٧ ـ إن الذي حقّق في نفسه مفهوم (الدس) بدلا من التزكية ؛ قد يحقّق إنماء على غير ما يقتضيه الطبع السليم ؛ ومن هنا يُصاب بالخيبة والإحباط!.. فقوله تعالى ﴿خَابَ﴾ تظهر هذه الخيبة عندما يرى أثر هذا الدس والإخفاء يوم القيامة ، وقد يكون من هذه الطائفة مَنْ وصفهم القرآن الكريم بقوله ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

وكم الفرق بين مَنْ يُفاجأ بالخيبة يوم القيامة ، ومَنْ يستشعر الفلاح في

---

(١) سورة النحل : الآية ٥٩.

(٢) سورة الكهف : الآية ١٠٤.

الدنيا قبل الآخرة!

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

١٨ ـ إن المعصية الكبرى المستلزمة للخلود في النار هي الكفر، وهذه المعصية قد لا تصدر من العبد دفعة واحدة، فالتاريخ مليء بصور الارتداد ممّن لا يُحتمل في حقهم ذلك، ومنشأ ذلك المعاصي الجوارحية؛ فإنها تتراكم إلى أن تطمس على بصيرة العبد في أصل إيمانه بالخالق المتعال!

فعاقر الناقة كان (شقيا) أولا بارتكاب المعاصي، ثم صار (الأشقى) بتحدّيه لهبة السماء ورسالة الأنبياء، فصار طغيانه سببا لتكذيبه، وهو ما تفيده سببية الباء في قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾.

ومن الممكن أن نجعل قوله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾[1] في هذا السياق أيضا، فالمعاصي تحققت بالإساءة أولا، ثم ساقتهم إلى الكفر بالتكذيب ثانيا.

١٩ ـ إن الخائب من العباد هو ذلك الذي أخفى نفسه في ظلمة التراب كوائدي الجاهلية؛ ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، فيا ليته

---

(١) سورة الروم: الآية ١٠.

انطمس ذكره وأثره!.. بل إن طغيانه صار مقدمة لإنبات شجرة خبيثة ظاهرة غير خفية، فكان التعبير عن هذه الجريمة بقوله تعالى ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ فتحقق ما يوجب الشقاء في العلن لا بنحو الدسّ.

والتعبير بالانبعاث قد يُشعر بشيء من التحدّي والعزم، على مواجهة الرسول الذي حذّرهم من المسّ بناقة الله تعالى.

٢٠ ـ إن كل المخلوقات في هذا الكون منسوبة إلى الله تعالى بنسبة المخلوقية ـ ومنها كل نوق الأرض ـ ولكن ناقة صالح ﷺ شرّفها الله تعالى بتشريف إضافي فنسبها إلى نفسه، كما هو الأمر كذلك في: حجارة البيت وقميص يوسف وتابوت موسى عليهما السلام؛ ومن هنا كان التعرّض لها بالعقر موجبا لهذا العذاب الأليم.

هذا كله في حيوان خصّه الله تعالى بالعناية، فكيف بالعبد الصالح الذي هو بنيان الله تعالى في الأرض، كما عُبِّر عنه؟!

٢١ ـ إن الذي تورط بقتل الناقة بلغ غاية الشقاء حيث قال تعالى ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها﴾ ومنه يُعلم أن المعاصي تراكميّة إذا بلغت الأوج في عالم (الأفعال) وبلغت الجناية الأوج أيضا في عالم (الآثار) وهو ما نراه في كبار فراعنة التاريخ!

ولكن ينبغي الالتفات هنا إلى أن الآخرين من قومه رضوا بعمله، وإن لم يفعلوا فعله، فعمّهم بنفس البلاء؛ لأن العقر وإن صدر من واحد إلا أن الآية تنسبه إلى الجميع ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ كما وصفهم أمير المؤمنين ﷺ:

«فعمهم الله بالعذاب ، لما عموه بالرضا»[1] كما أن الرضا بعمل قوم صالحين يوجب مشاركتهم في الأجر أيضا.

ومن هنا لزم الحذر من مخالطة الجبابرة أولا، والرضا بعملهم ثانيا، والتأسي بصفاتهم ثالثا.

٢٢ ـ إن القرآن الكريم دأب على ذكر الأمثلة الحسية من الأشياء: كالمشكاة في بيان نوره، وكإنزال الماء من السماء إلى الأرض في بيان مَثل الحياة الدنيا، تقريبا للمفاهيم التي يراد إيصالها إلى الناس.

ومن الأمثلة المذكورة في هذه السورة ـ لمن خرج عن جادة التقوى بل سلك سبيل الفجور ـ هم قوم ثمود، وذلك لأنهم تركوا التزكية فوقعوا في معصية عقر الناقة، بما أوجب التحدي لآية من آيات الله تعالى وهي الناقة المرسلة، وهو بدوره أوجب نزول لعذاب المطبق عليهم، والذي سوّاهم بالأرض ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

٢٣ ـ إن من موجبات الارتداع عن المنكر هو التأمل في عاقبة الأمور، وإنها ـ على خيرها وشرها ـ بعين الله تعالى، وهو الذي يُمهل ولا يُهمل!.. والغريب أن الإنسان لا يتعظ بالأقوام السابقين فيكرر ما يوجب الهلاك، ولو أن عاقر الناقة تأمّل في عذاب مَن أهلكهم الله تعالى من الأمم السابقة؛ لما تحدّى نبي زمانه.

---

(١) بحار الأنوار: ج ٩٧ ص٩٥.

هذا إذا جعلنا الفاعل في ﴿وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ذلك العاقر، ولكن من الممكن إسنادها إلى الله تعالى، بمعنى أنه تعالى لا يخاف من إنزال عقوبته على المعاندين - خلافا لملوك الدنيا الذين يخافون من عاقبة انتقامهم من الغير - لاحتمال انقلاب الدائرة عليهم يوما ما، كما وقع كثيرا لبعضهم!

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

١ ـ إن ذِكر (الليل) تكرر في ثلاث سور متتالية وهي: سورة الشمس وسورة الليل وسورة الضحى بتعابير متشابهة، فذكرت ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾[1] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾[2] وقد جاءت بقيد الغشيان في سورتين، وحينئذ اختُلف في متعلق الغشيان بين مَن يقول:

- إنه يغشى النهار، مؤيدا بقوله تعالى ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾[3].
- إنه يغشى الشمس، لقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها﴾[4].
- إنه يغشى كل شيء يواريه الظلام، لقوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ

---

(١) سورة الشمس: الآية ٤.

(٢) سورة الضحى: الآية ٢.

(٣) سورة الرعد: الآية ٣، سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٤) سورة الشمس: الآية ٤.

غَاسِقٍ﴾[١] .

ولعل السر في التأكيد على الليل ـ داخلا في سياق القَسَم بهذه الوجوه المتكررة ـ هي الإشارة إلى عظمة الصنع، إذ إن تعاقب الليل والنهار هو ثمرة تقليب أجرام عظيمة كالأرض والقمر، أمام جِرم عظيم كالشمس.

والمقصود هنا هو الإلفات إلى اليد المقلِّبة لهذه الأجرام، وهو ما دعا إليه تعالى بقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُورا﴾[٢] وأثر هذا التعاقب هو تبدل طبيعة الزمان، حركة في النهار وسكونا في الليل، ذلك السكون الذي هيّأ راحة للبشر تارة، وفرصة للخلوة مع الله تعالى، كما هو حاصل ساعة الأسحار إذ ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٣] .

٢ ـ احتار البعض في وجه الإتيان بالفعل المضارع المُسند إلى الليل في هذه الآية ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى﴾ وفي آية أُخرى ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها﴾[٤] والدال على الاستمرار، والحال أن الفعل المُسند إلى النهار جاء بصيغة الماضي في كِلا الموردين أيضا ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾[٥] فقيل :

---

(١) سورة الفلق : الآية ٣.

(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٢.

(٣) سورة الذاريات : الآية ١٨.

(٤) سورة الشمس : الآية ٤.

(٥) سورة الشمس : الآية ٣.

- إن ذلك قد يكون إشارة إلى زمان البعثة ؛ حيث ظلمة الجاهلية مستمرة في حلكتها ، ولا يخفى ما فيه من التأويل .
- إن الفعل الماضي بعد (إذا) الشرطية يفيد معنى المضارع ، وقيل : إن أصله (تتجلى) .
- إن الأصل في الوجود هي حالة الليل ـ وهو انعدام ما يحقق النهار من النور ـ فكأنها هي الحالة السارية المستمرة ويؤيده قوله تعالى ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾[1] وكأن الليل هو الأقوى ، والذي يطلب النهار باحثا عنه بحثا حثيثا.

والدرس المستفاد من هذه الآية وأمثالها : أن القرآن يتعمد الإبهام في بعض الموارد ـ رغم أنه كتاب مُيسَّر للذِكر ـ تحريكا للأفهام البشرية إلى درجة أوجب حيرة كبار العلماء المفسرين!

٣ ـ بعد أن أقَسَم الله تعالى في هذه السورة بالليل والنهار ، أقَسَم بذات الباري (وما خلق) بناء على أن المراد بالموصول ذاته المقدسة ، أو أن المراد به هي قوته الخالقة ، وكما في سورة الشمس والتي وردت فيها (ما) الموصولة للإشارة إلى الحقيقة نفسها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[2].. فكان العطف بالقَسَم بالخالق ، على القَسَم بالمخلوق في أكثر من مورد ، للدلالة على أن التأمل في الخلق ، طريق موصل إلى خالقه.

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٤.

(٢) سورة الشمس : الآية ٧.

ومن هنا تحقق الوعد الإلهي بإراءة آياته من خلال الآفاق والأنفس كما في قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾[1] وهو ما يعبر عنه في اصطلاح المنطق بالبرهان (الإنّي).

ومن الواضح في أقسام هذه السورة : الإشارة أيضا إلى الآية الآفاقية المتمثلة بالليل والنهار ، والأنفسية المتمثلة بالنفس .

٤ ـ عندما وصل القَسَم إلى الخالق ـبعد القَسَم بظاهرتي الليل والنهار ـ فإنه تعالى جعل الذكر والأنثى متعلقا لبديع خلقته ، وهذا الجعل سواء كان بمعنى : خلقة مطلق الأزواج في الوجود ، أو خصوص الزوجين من البشر ، أو خصوص الزوجين المعهودين وهما آدم وحواء ؛ فإن فيه إشارة إلى خلقة أصل الزوجين وهي من أعقد ظواهر الوجود من جهة :

- التدبير الإلهي في الجمع بينهما بتخلل الغريزة تارة ، والأسباب التكوينية الأُخرى بما يذهل الألباب.
- مراحل الخلق المذهلة ، إذ لا تناسب أبدا بين مادة الخلقة الأولى كالنطفة ، وبين ما يخرج أخيرا خلقا سويا!

وهكذا الذي قلناه يجري في كل أزواج الوجود ، من باقي أصناف الحيوان أو النبات .

٥ ـ إن عمل بني آدم على وجه الأرض موصوف بأنه (سعي) وهو

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣.

الذي يطلق على المشي السريع ، ولا يخفى ما في هذه الكلمة من إشعار ببذل الجهد الجهيد سواء في طريق الخير أم الشر ، ومن هنا تعددت الآيات التي تطلق تعبير السعي على عمل الإنسان في هذه الدنيا ، والموصوف أيضا بالتعدد والاختلاف في طبيعتها ، لقوله تعالى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ وهذه الآية هي مصب الأقسام الثلاثة في هذه السورة.. ويُشير إلى هذه الحقيقة أيضا قوله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[1].

والتأمل في هاتين الحقيقتين أعني السعي البشري وتشتته ، يفيد أنه لا بُد للعاقل ـ لعلمه أنه باذل جهد شاء ذلك أم أبى ـ أن يجعل هذا الجهد في سياق رضا خالقه مصداقا لـ﴿أَعْطى واتَّقى﴾ لا في سبيل سخطه ، مصداقا لـ﴿بَخِلَ واسْتَغْنى﴾ وإلا صدق في حقه ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[2].

ومن المعلوم أن طرق الخير متعددة بعدد نفوس الخلق ، وكل ميسَّر لما خُلق له ، أوَ ليس مقتضى الحكمة بعد ذلك أن يجعل العاقل سعيه في أقرب الطرق الموصلة إليه ، وهو معنى (الصراط المستقيم) الذي يمثّل أقرب خط بين نقطتين؟!

٦ ـ إن الإعطاء قد ذُكر في هذه الآية لـمن أعطى مطلقا ، ولكنها ملحوقة بالتقوى ، وعليه فإنه من الممكن تفسير الإعطاء أيضا بغير الإعطاء المالي ، كإعطاء النفس حقها في طاعة الله تعالى ، وهو تعبير وارد في العرف

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٨.

(٢) سورة الغاشية : الآية ٣.

أيضا حيث يقال: فلان أعطى طاعته لفلان، وإن حصرها البعض بالإعطاء المالي بقرينة ذكر المال والبخل به لاحقا.

ومن الملفت: إن الآية قرنت العطاء بالتقوى، فإن الإعطاء المثمر هو ما كان في جو التقوى، ويؤيده قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

٧ ـ إن هذه السورة تؤكد على حقيقة لابُد من تحققها في عالم العمل ألا وهو الإعطاء المالي ﴿أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ أو الأعم، كما تؤكد على حقيقة أُخرى لابُد من تحققها في عالم الاعتقاد، ألا وهو التصديق باليوم الآخِر المستفاد من قوله تعالى ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ المُفسَّرة بالعِدة الحسنى المنطبقة على يوم القيامة، كما عُبِّر عنها أيضا في آية ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾[2] و﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾[3] و﴿فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى﴾[4].

ومن المعلوم أن مجموع هذا الاعتقاد، مع الجري على مقتضاه من الإنفاق المالي وغيره، لمن موجبات السعي المحمود، في عالمٍ كان السعي فيه شتى!

٨ ـ لا يخفى أن عالمنا هذا تجري فيه قوانين عالم الأسباب، وهذا لا ينافي أن يكون التوفيق الإلهي أيضا من ضمن هذه الأسباب، والذي

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٥، سورة الحديد: الآية ١٠.

(٣) سورة فصلت: الآية ٥٠.

(٤) سورة الكهف: الآية ٨٨.

يتوقف على وجود أرضية مهيئة من العبد نفسه.. وهذا التوفيق هو ما وعد به الحق المتعال عندما قال ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى﴾ فالتيسير هي التهيئة والإعداد، وأما اليُسرى فمُفسَّرة :

- بالخصلة التي فيها يُسر من غير عُسر ؛ بمعنى التوفيق للأعمال الصالحة بتسهيلها عليه من غير تعسير .
- بجعله مستعدا للحياة السعيدة عند ربه في الجنة، بسبب الأعمال الصالحة التي يأتي بها ؛ وهذا هو الأنسب إذا فسرنا الحسنى بالجنة .

٩ ـ إن حقيقة التيسير لليسر يلمسها كل مَن سلك طريق القرب من رب العالمين : فيرى الخير محببا إلى نفسه لقوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾[1] عازما على فعله من دون تردد لقوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2] نافيا عنه كل خوف وحزن ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3] إلى درجة نزول الملائكة المسددة، كما وقع في معركة بدر ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الحجرات : الآية ٧.

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٢٧.

(٣) سورة يونس : الآية ٦٢.

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٢٥.

وفي المقابل فإن أمور الخير مُعسَّرة على المكذب بالحسنى: فيرى ثقلا عند القيام إلى الصلاة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[١] بل كسلا فيه ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾[٢] ونفورا من الجهاد ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾[٣].

وعليه، فلا ينبغي للمؤمن أن يعوِّل على سعيه فحسب، فالتيسير والتسديد الإلهي هي كلمة الفصل في هذا المجال ـ وإن لم يلحظه العبد ـ وخاصة مع الالتفات إلى أن الله تعالى جعل متعلق التيسير ذات العبد لا فعله، فكانت الذات برمتها ميسّرة لكل خير ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ إلى درجة يصفها الإمام الباقر عليه السلام قائلا: «**لا يريد شيئا من الخير إلا يسّره الله له**»[٤].

١٠ ـ إن هناك مناسبة واضحة بين ﴿مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ وبين ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ إذا جعلنا التيسير بمعنى: فتح طريق الخير للعبد، وذلك لأن مَن يُيسِّر الأمر لعباد الله تعالى بالإنفاق عليهم، فإن الجائزة المعجلة ستكون من جنس عمله في الدنيا ألا وهو التيسير الإلهي له أيضا من باب (ارحم تُرحم)!

ومن هنا تعددت الروايات الدالة على آثار الصدقة من: دفع ميتة السوء،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٨.

(٤) مجمع البيان: ج ١٠ ص٣٧٦.

وإطالة العمر، وتوسعة الأرزاق، والمباركة في المال والولد، إضافة إلى الجزاء الأخروي المعلوم.

١١ ـ إن من السِمات البارزة لأهل الباطل بعد التكذيب الاعتقادي هي: حب الدنيا، وطلب الغنى فيها، ثم البخل بجمع المال وادخاره.

وعليه، فمَن كانت فيه هذه الخصلة، فهو مشترك مع الكفار في سمة من أهم سماتهم وإن بلغ من الإيمان ما بلغ، فطبيعة الاعتقاد بالله واليوم الآخِر تقتضي: الزهد في الدنيا، وحب الإنفاق فيها طلبا للتيسير لليسرى.

ومن الملفت: أن الله تعالى يصف صاحب المال بوصف التردّي في طريق الهلاك، أو في خصوص إطباق جهنم ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ وفي ذلك كمال التحقير فكأنّ مثلَه كمَثل دابة تردّت من أعلى الجبل، بل هو أضل منه كما في آية أُخرى!

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

١٢ ـ إن الله تعالى قضى على نفسه ـ تفضلا لا إلزاما ـ هداية الخلق كما قضى على نفسه رزق العباد، وجاء التعبير في الموردين بـ(على) وكأن الله

تعالى جعل شيئا على عهدته، كما يلتزم الإنسان بوعد قطعه على نفسه وذلك في قوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ و﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[١].

ومن الممكن تفسير هذه الهداية المذكورة في هذه السورة وغيرها على نحو:

- إراءة الطريق مع ترك الاختيار للعبد، كما يُفهم من قوله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ﴾[٢] و﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وإِمَّا كَفُوراً﴾[٣] طبعا مع إشراك الأنبياء بإذنه تعالى في هذه الهداية التشريعية لقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤].
- الإيصال إلى المطلوب: ففي الدنيا يتحقق الإيصال إلى الحياة الطيبة، وفي الآخرة يتحقق الجزاء الأحسن كما في قوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥] فكان تعامله هذا (أي الإيصال إلى المطلوب) مع خاصة خلقه كتعامله مع عامة خلقه (في إراءة الطريق) حيث ﴿أَعْطَى كُلَّ

---

(١) سورة هود: الآية ٦.

(٢) سورة النحل: الآية ٩.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٣.

(٤) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٥) سورة النحل: الآية ٩٧.

شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[١].

ومن المعلوم أن انتساب هذه الهداية المحققة إلى الله تعالى ـ سواء بمعنى إراءة الطريق أو الإيصال إلى المطلوب ـ لا ينافي انتسابها إلى خلقه أيضا، كما في باقي موارد تخلل الأسباب بين الصانع والمصنوع.

١٣ ـ إن آية ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ الدالة على ملكية الله ومالكيته للوجود موجبة:

- للعزة إذا فسّرناها بمعنى: إن لله تعالى مُلك الدنيا والآخرة، فلا يضرّه تكذيبكم بيوم الدين والبخل بما أعطاكم، فهو المالِك والملِك لكل ما في الوجود.
- لحثّ المؤمنين على الطاعة والإنفاق إذا فسّرناها بمعنى: إن لله تعالى مُلك الدارين، فيعطي منهما ما يشاء لـمن يشاء، فمَن أراد الدنيا فعليه الرجوع إليه، ومَن أراد الآخرة وجب عليه ذلك أيضا، ومن هنا نطلب منه تعالى حسنة الدارين ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[٢].

١٤ ـ إن حصر (صَلْي النار المتلّظية) بالكافر هو حصر بقيد لا مطلقا، فالمراد من آية ﴿لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى﴾ إن هذه النار بقيد الاستمرارية واللزوم المستفاد من ﴿يَصْلَى﴾ خاصة بالمتولّي الكاذب وهو الكافر الذي

---

(١) سورة طه: الآية ٥٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

جمع بين التكذيب اعتقادا، والإعراض عن شريعة الله تعالى عملا؛ وهذا لا ينافي أن يكون عذاب النار ـ لا بصفة اللزوم والخلود ـ متوجها إلى عصاة المؤمنين، كما يُفهم من قرائن كثيرة من الكتاب والسنة.

وبعبارة أُخرى: فإن الآية بصدد المقابلة بين طائفة مكذّبة، وأُخرى متقيّة منفقة، وليس المقام مقام ذِكر الطائفة المتوسطة؛ وهي المؤمنة غير المتقيّة.

١٥ ـ إن التعبير بـ﴿الْأَشْقَى﴾ ممّا يسوق العباد إلى التأمّل في صفات الأشقياء بل أشقى الأشقياء، والمقارنة بين أنواع الشقاء، فالبعض يرى أن الشقاء في الحرمان من المال أو سقم البدن أو فقد الأحبة؛ ولكن القرآن الكريم يرى أن الأشقى مَن كان مآلُه إلى النار المتلظّية!

ومن هنا ذَكر علي عليه السلام هذه الحقيقة قائلا: «**ما خير بخير بعده النار، ولا شرّ بشرّ بعده الجنة!.. وكلّ نعيمٍ دون الجنة محقورٌ، وكلّ بلاءٍ دون النار عافية**»[1].

١٦ ـ إن المعايير الإلهية في تمييز الشقي من التقي تختلف عن المعايير البشرية في تعريف الشقاء، فقد سبق القول أن الشقي الأعظم مَن دخل النار، وهنا تذكر الآية أن التقي الأعظم ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ ليس مَن يتقي مخاوف الدنيا بل من يتقي الغضب الإلهي!

ولا يخفى ما في التعبير بصيغة التفضيل من فتح مجال المسارعة إلى الخيرات،

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٣٨٧.

فإن العاقل لا يقنع بسقف محدود من التقوى ، بل يخوض مضمار السباق الأعظم ليكون في القمة أو ما يقرب منها .

١٧ ـ إن الخلاص من النار مرهون بعمل العبد ـ وخاصة بالإنفاق المذكور في هذه الآيات ـ ولكن لا ينبغي التعويل على جهد العبد ، فقد يرتكب في لحظة من لحظات الغفلة معصية بغير عذر فتوجب له دخول النار ، ومن هنا فإن الله تعالى نسب التجنيب إلى نفسه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ ولو بصيغة المجهول.

وليُعلم أن كلمة النار وردت هنا بصيغة النكرة ﴿نَارًا﴾ للدلالة على عظمها ، وكلمة ﴿تَلَظَّى﴾ جاءت مضارعة للدلالة على استمرار توهجّ هذه النار بلا انقطاع!

١٨ ـ إن إعطاء المال في هذه الآية مقرون تارة بالتقوى وتارة بقيد ﴿يَتَزَكَّى﴾ وهذا القيد قد يكون بيانا :

- لحالة المتزكّي بمعنى : أنه يقوم بهذا العمل ناويا أن يُطهّر نفسه من حب الدنيا مثلا .
- للنتيجة الحاصلة من الإنفاق بمعنى : أن التزكية بالنسبة للمُعطي المتقّي حاصلة له قهرا وهو ما يستفاد من قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[١] .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٣ .

ومن المناسب الالتفات إلى التعبير بماله في قوله تعالى ﴿يُؤْتِي مَالَهُ﴾ فإن ملاك المجاهدة والترفع عن المال هو الإنفاق من المال الشخصي ، لا أن يحثّ الإنسان غيره فيستأذن منه في إنفاق ماله ، كما يتفق في مشاريع الخير والحض على طعام المساكين .

١٩ ـ إن لحن الخطابات القرآنية تابع لحكمة بالغة ، فكل انتقال من الغيبة إلى الحضور أو العكس إنما يتبع غرضا يريده المتكلم الحكيم ، فالآية ـ مثلا ـ انتقلت من الحديث مع الغائب إلى الحديث مع الحاضر في قوله تعالى ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ فهذا هو المناسب للإنذار ، إذ إن التخويف إنما يصبح جادا إذا توجّه للمخاطب مباشرة ولكن في آية ﴿إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ انتقلت إلى الحديث عن الغائب وهو الأنسب لعظمة مقام الربوبية ، فإن مدح ذاته المقدسة لا يحتاج إلى حضور حاضر أو استماع أحد ، فهو المثني بنفسه على نفسه ولنفسه ، وخاصة مع التخصيص بذكر صفة العلو!

٢٠ ـ إن الذي يصرف وجه العبد عن غيره ، فلا يرى لأحد عنده نعمة تجزى ، إنما هو لرؤيته ذلك الوجه الذي يطغى جمالُه على كل وجه هالك ممّا هو دونه ، فلا يجد بعدها كثير معاناة في أن يصرف وجهه عما سواه ، وأن لا يجد مؤثرا في الوجود غيره ، وهذه المعاني كلها مندرجة في قوله تعالى ﴿إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ .

وقد تكرر ذكر الوجه في آيات عديدة ، منها ما في هذه السورة وغيرها

ويمكن تفسيره بأحد تفسيرين :

- إن الوجه من كل شيء ما يُستقبل به الغير ، وهذا الوجه متناسب مع طبيعة ذلك الشيء : ففي الإنسان هو ذلك النصف المقدم من الوجه ، وفي الله تعالى حيث لا تعيّن ولا تأيّن ، فإن وجهه يتجلى من خلال ما يواجه به العباد ، كآثار صفات الذات كالسمع والبصر ، وصفات الفعل كالخلق والرزق .
- إن المراد بالوجه هنا أمر خارج الذات ، لكنه منتسب إليه بنحو من أنحاء الانتساب ، فيكون قصد ذلك الوجه قصدا للذات بإذن منه ، وهو المتمثل بالأنبياء والأوصياء والأولياء .

٢١ ـ إن إنفاق المتقين خالص من كل شائبة ـ حتى الشرك الخفي منه ـ إذ قد يُحسن أحدهم للغير مقابل إحسان سابق ، فلم يعد الأمر بذلك إلهيا بل للخروج من ذلّ إحسان الغير ، والحال أن هذا الصنف لا يرى إلا وجه الرب أولا وبوصف العلو ثانيا ؛ وهما الدافعان له لتمحيض العمل لوجهه الكريم.

وقد يتساءل أحدهم قائلا : إن الآية تشير إلى أن المنفق الأتقى لا يرى لأحد نعمة عليه حتى يجازيه عليها ﴿وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى﴾ والحال أنه لا يخلو أحد من منّة لأحد عليه ؛ فكيف نوفق بين الواقع وبين ما يطلبه المولى عز شأنه؟!.. والجواب :

- إن هذا الصنف بلغ مرتبة من انكشاف البصيرة بحيث لا يرى

مؤثرا في الوجود إلا الله تعالى، فالخير الذي يأتيه من الغير يراه من يد مولاه مصداقا لقوله تعالى ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾[1] المفيد للحصر.

- أن المراد هنا خصوص ذلك المورد الذي لم يحسن على الأتقى ولكنه هو أحسن إليه لوجه ربه، لا لوجود نعمة مَنَّ بها عليه ذلك المحتاج، وهذا لا ينافي وجود نعمة أُخرى من غير مَن أحسن إليه الأتقى.

٢٢ ـ إن أعظم جزاء يؤتيه رب العالمين للأتقى هو قوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضى﴾ وهو من سنخ ما يعطيه حبيبه المصطفى ﷺ إذ قد وعده الله تعالى بعطاء يرضيه والمُفسَّر بـ(الشفاعة) وهذا هي غاية العطاء أي استنقاذ الخلق من النار ببركة مَن خصّه الله تعالى بهذا العطاء.

وهذا النوع من العطاء متاح لِـمن تذكُره الآية بمعنى أنه قد يُعطى درجة من درجات الشفاعة التي يرضي بها المؤمن أيضا، وهذا ممّا تؤيده الروايات الدالة على سعة دائرة شفاعة المؤمن يوم القيامة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾.

١ ـ إن قِسما كبيرا من الأقَسام القرآنية متعلق بالأوقات فمنه: الفجر[١]، والصبح[٢]، والضحى، والعصر[٣]، والليل[٤].. سوى الإشارة إلى الشمس والقمر المسبِّبين لتعاقب الليل والنهار، ممّا يدل على عظمة الوقت:

- فهو من ناحية تتم فيه الأعمال التي بها تعمر مزرعة الآخرة، وكلما اتسع الوقت وطال العمر، ازدادت المزرعة عطاء وعمرانا.
- ومن ناحية أُخرى فإن تعاقب الليل والنهار المُسبِّبان لتحقق الأزمان، من موجبات سوق العبد إلى عظمة مدبّر هذه

---

(١) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ سورة الفجر: الآية ١.
(٢) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ سورة التكوير: الآية ١٨.
(٣) ﴿وَالْعَصْرِ﴾ سورة العصر: الآية ١.
(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ سورة الليل: الآية ١.

الأوقات، فإن تكرر التعاقب يسلب الالتفات من صاحبه.

٢ ـ إن الأقسام القرآنية مترابطة مع مورد القَسَم، وإلا كان اختيار المُقْسَم به عشوائيا ومنه ما في هذه السور؛ فإن الله تعالى يُقسم بـ﴿الضُّحَى﴾ وهو وقت ارتفاع النهار، وبـ﴿اللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ وهو وقت تغطية الظلام وجه الأرض؛ وفي ذلك إشعار خفيّ بأن الذي يقلب الليل والنهار هو بنفسه يقلب الحول والأحوال، فمَن يُخرج الأرض من ظلمة الليل إلى وضح النهار؛ هو القادر أيضا على أن يحوّل قلب عبده المصطفى ﷺ ممّا هو فيه من القلق لانقطاع الوحي عنه ﴿وَدَّعَكَ﴾ إلى عالم الهبات المرضية ﴿يُعْطِيكَ﴾ فكأنه صار ضحى بعد ليل ساجٍ!
وهو القادر أيضا على إخراج قلوب عموم عباده من ظلمة الإدبار إلى نور الإقبال، فاليد العاملة في الآفاق والأنفس هي يد واحدة، يدركها مَن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!.

٣ ـ إن التقابل بين الليل والنهار إنما جُعل لحكمة بالغة، فهو الذي جعل الليل سكنا وجعل النهار معاشا، وهو الذي جعل الليل ساجيا موجبا للسكون أيضا، ثم جعل الضحى مبدأ لحركة الكائنات وللخروج من هذا السكون الذي أحدثه الليل.
فكم يضادّ ـ كما هو الملاحظ هذه الأيام ـ حكمة الخلق من عكس الأمر، فجعل الليل جلبة وحركة، وقلب النهار نوما وسكونا، خلافا لما أراده

المولى حيث قال ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾[١] ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾[٢].

٤ ـ ذهب المفسرون في تفسير قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ إلى قولين:

- إن الوحي تأخر عن النبي ﷺ بما جعله يعيش حالة الخوف من أن يكون هذا التأخير لإعراض وقلىً من ربه؛ ممّا أوجب له زيادة الانقطاع إليه.
- إن هذه دعوى أعدائه الذين كانوا لا يتركون فرصة إلا ويشمتون بالنبي ﷺ، فجاءت الآيات تطييبا لخاطره الشريف إلى درجة نرى فيها أن ضمير الخطاب للحبيب المصطفى ﷺ قد تكرّر في هذه السورة ظاهرا ومُستتِرا قرابة خمس عشرة مرة، رغم أن انقطاع الوحي ـ على اختلاف الأقوال ـ كان من ليلتين إلى أربعين يوما.

٥ ـ إن هذه السورة ـ بناء على احتمال التوديع والقلى ـ بعد تأخر الوحي الموجب لاضطراب قلب الحبيب المصطفى ﷺ وكذا آية ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾[٣] والآيات الكثيرة المادحة للأنبياء وخاصة مَن كان لهم أتباع زمن النبي ﷺ كعيسى وموسى عليهما السلام، لمن الدلائل

---

(١) سورة النبأ: الآية ٩.

(٢) سورة النبأ: الآية ١١.

(٣) سورة الحاقة: الآية ٤٤.

القرآنية الكافية ـ لغير المعاندين من الكافرين ـ على أن القرآن وحي من الله تعالى، إذ لو كان من عند النبي ﷺ لما ناسبه مثل هذه المضامين، إذ لا يعقل التأذّي من تأخر الوحي لو كان بيد غير الله تعالى، كما لا يرجح مدح الأقران إذا لم تكن الدعوة إلهية!

٦ ـ إن الله تعالى ضَمِن لنبيه استمرار الوحي، فهو من مستلزمات الدعوة ـ وخاصة عند وجود شأن للنزول أو سؤال من أحد ـ ولكن مع ذلك فإن الله تعالى قطع وحيه عن نبيه ﷺ إلى درجة شماتة الأعداء، أو تشويش بال النبي ﷺ ـ على كِلا التفسيرين ـ مما يُفهم منه أن الألطاف الخاصة ـ كالألطاف العامة ـ أمرها بيد المولى يجريها متى شاء، وقد روي أن النبي ﷺ قال لجبرائيل عليه السلام: «**ما جئت حتى اشتقت إليك، فقال جبرائيل: وأنا كنت أشدّ إليك شوقاً؛ ولكنّي عبد مأمور وما نتنزل إلاّ بأمر ربّك**»[1]!

فإنزال الآيات ليس عن هوى، كما أن الحبس ليس عن قلى.. ومن هنا لزم على المؤمن العمل بما يناسب زي العبودية دائما، وترك أمر الفيوضات وزمانها وكمّها وكيفها بيد المعطي المنان.

٧ ـ ينبغي للدعاة إلى الله تعالى أن لا يكون حرصهم على نجاح الدعوة، أكثر من حرص رب العالمين على ذلك!.. إذ يُخشى عليهم من

---

(١) مجمع البيان في تفسير القران: ج١٠ ص ٧٦٤.

تحوّل همّ فعلية التأثير، إلى شيء من تحقيق حظوظ النفس وإثبات إنّيتها بمعنى رغبة الداعي في هداية الخلق تحقيقا لذاته وتعظيما لنفسه، حتى لو كان الأمر في ثوب مقدس.

ومن هنا فإن الله تعالى لا يبالي أن يقطع وحيه عن نبيه ﷺ وإن استلزم ما استلزم من تهمة القلى وتوديع الله تعالى له، فهو الذي ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[1] ولكن البناء على الاختبار ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2] فمقتضى الأدب في محضر الربوبية، أن تكون عين الدعاة على أصل الدعوة لا على المدعويين؛ فإن الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ على ما أعطاه من الملكات والمعجزات قائلا ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[3].

٨ ـ إن دار الدنيا أضيق من أن تتجلى فيها كل المكرمات الإلهية لعباده المؤمنين، إذ إن الدار لا تتسع لها، لا أن كرم الله تعالى يضيق فيها.. ومن هنا قال الله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ فإن الله تعالى لم يقصّر في حق نبيه في دار الدنيا بشيء، حيث أمده بكل أنواع الكرامة: فعلّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه كبيرا، ورفع له ذكره.

ولكنه تعالى ادخر له جائزته العظمى ليوم القيامة وهي التي يرضيه حق الرضا، والتي كشفت عنها روايات أهل البيت عليهم السلام، ومنها ما روي عن

---

(١) سورة يونس: الآية ٩٩.

(٢) سورة هود: الآية ٧٧.

(٣)سورة القصص: الآية ٥٦.

الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال: **«رضا جدي أن لا يدخل النار موحد»**[١] وما روي عن الإمام الباقر (عليه السلام): **«أهل القرآن يقولون: أرجى آية قوله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[٢] وإنّا أهل البيت نقول: أرجى آية قوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ والله إنها الشفاعة؛ ليعطاها في أهل لا إله إلا الله حتى يقول: رضيت»**[٣].

٩ ـ إنه لمن الملفت حقاً في هذه السورة، أن رضا النبي (صلى الله عليه وآله) بالعطاء الإلهي لا يكون في دائرة نفسه وإنما في دائرة الأمة من حيث سعة الشفاعة، لتشمل أهل الكبائر من أمته!.. وهذا درس لعامة المؤمنين في أن يجعلوا همّهم في ما فيه صلاح الأمة، إذ إن طلب المزايا للذات ـ وهو نوع شرك خفي ـ يتنزه عنه خواص العابدين؛ ولكن طلب المزايا للنوع البشري لا يُعد شركا بل هو من لوازم التوحيد والحب الإلهي؛ لأنه مترشح من محبة العبد لبسط سلطان الله تعالى في أرضه.

١٠ ـ إذا كان حرص النبي (صلى الله عليه وآله) على الأمة متحققا إلى درجة لا يرضى معها بغير الشفاعة، وهو الذي تحمّل أذى الأعداء في هذا العمر المديد مكابدا ومجاهدا؛ فكيف بالرحمة الإلهية الغامرة والتي تتفرّع منها رحمة النبي وآله (صلى الله عليه وآله) بل رحمة كل مَن في الوجود؟!.. وقد ورد في بيان عظمة هذه

---

(١) مجمع البيان في تفسير القران: ج١٠ ص٧٦٥.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٣) شواهد التنزيل: ج٢ ص٤٤٧.

الرحمة، أنها عندما تنبسط في الآخرة فإنه يمتد لها عنق إبليس؛ فأيةُ رحمة هذه؟!

١١ ـ إن هذه الآيات يمكن الاستدلال بها على الشفاعة ـ مع قطع النظر عن الروايات ـ وذلك من جهة أن الله تعالى أمره ﷺ في الدنيا بالاستغفار فقال ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[1] والاستغفار هو طلب المغفرة، ومن طلب شيئا فلا شك أنه لا يرضى بالرد وإنما يرضى بالإجابة، وإذا ثبت أن الذي يرضاه الرسول ﷺ هو الإجابة، وثبت من ناحية أُخرى أن الله تعالى يعطيه كل ما يرتضيه؛ علمنا أن هذه الآية دالة على ثبوت الشفاعة في حق المذنبين، إذ ليست الشفاعة إلا إجابة الله تعالى لطلب الشافع.

١٢ ـ تجدر الإشارة هنا إلى أن رضا النبي ﷺ منسجم مع الرضا الإلهي:

- فهو كان يرضى بالقبلة المكية؛ ومن هنا قال تعالى عن نفسه ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[2].
- وكان يرضى بالشفاعة الشاملة؛ ومن هنا قال تعالى عن نفسه ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

وبكلمة جامعة: فإن رضا النبي ﷺ وإن كان حالة قائمة في نفس

---

(١) سورة محمد: الآية ١٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

النبي ﷺ؛ إلا أنها مطابقة في عالم الغيب لما يرضى به الله تعالى، ومن مجموع الآيتين يتبيّن حرص الله تعالى على إرضاء نبيه ﷺ بأعلى ما يمكن تصوّره وهذه عادة المحب مع حبيبه؛ فيا لها من درجة!

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

١٣ ـ إننا من خلال مراجعة مجمل سير الأنبياء عليهم السلام نرى أنهم ابتلُوا جميعا بالمحن والبلايا في مختلف مراحل حياتهم، بل كلفهم الله تعالى بما لا يتناسب مع عمل الأنبياء ـ بعنوانه الأولي ـ ليعيشوا معاناة الغير بما يوجب الشفقة عليهم، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما بعث الله نبيا قطّ، حتى يسترعيه الغنم؛ ليعلمه بذلك رعية الناس**»[1] إضافة إلى ما يوجبه من موجبات شدة الانقطاع إلى الله تعالى، ومن هنا صار البلاء للأمثل فالأمثل، وصار البلاء للولاء، وصار متناسبا طردا مع مستوى الإيمان ككفتي ميزان.

وفي كل ما ذكر أيضا تسلية لقلوب أهل البلاء وجبرٌ لها، إذ لو لم يكن البلاء لطفا لما وجهه الله تعالى إلى أنبيائه العظام عليهم السلام.

---

(١) علل الشرائع: ج١ ص٣٢.

١٤ ـ إن ما يمر على الإنسان من الضعف المالي كالفقر، أو النفسي كاليتم قد يصيب البعض ببعض الابتلاءات الباطنية من احتقار الذات، والإحساس بالتبرم، وعدم الرضا بما جرى عليه، ولكن يكون للبعض مدعاة لتحسس آلام من وقع فيها بعد اجتياز تلك المحنة، وهذا هو الذي أراده الله تعالى لأنبيائه العظام عليهم السلام فقيل عن يوسف عليه السلام أنه لم يكن ليشبع لئلا ينسى الجياع، ومن المعلوم أن فقر النبي صلى الله عليه وآله ويتمه يدخل في هذا السياق.

وعليه، فلا معنى للجزع عندما يمر على المؤمن فترة من فترات البلاء، فلعل ذلك أدب أراده الله تعالى له كما أراده لأنبيائه عليهم السلام.

١٥ ـ قيل في يتم النبي صلى الله عليه وآله وجوه من البركات، وإن كانت هذه الوجوه ممّا لا تقاس إلى جنب بركاته الأُخرى، والمتمثلة بالاصطفاء الإلهي وما يلازمها من البركات، فمنها:

- معرفته الوجدانية بحال اليتامى، فيكون أقدر على معايشة ما هم فيه.
- إنه أوجب الانقطاع إلى ربه منذ صباه، فعُوِّض عن حنان الأبوين بحنان رب العالمين، والذي يترشّح منه كل حنان في الوجود.
- إن اليتم لا يُعدّ مانعا لأية درجة من درجات الرقي، لا بحسب الخلق ولا بحسب الخالق.

- إن الله تعالى أراد أن لا يكون لأحد يد عليه ـ حتى في صغر سنه ـ إلا بالمقدار الذي يلزمه المعاش .

١٦ ـ إن لرب العالمين عناية خاصة في بيان لطفه بعباده وإظهارها لهم ، وفي القول بأنه لولا هذا اللطف ما زكى أحد من الخلق كقوله تعالى ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾[1] وفي هذا السياق يأتي ذكر عنايته بحبيبه المصطفى ﷺ وذلك بقوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أي كنت فاقدا لنعمة الهداية لولا هذه العناية الربانية ، وبعبارة أُخرى كنت ضالا مع قطع النظر عن هذه الهداية الملازمة منذ الصبا ، فهو في حكم قوله تعالى ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾[2] وكذا في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾[3] .. ومن هذا الباب أيضا قول موسى عليه السلام ﴿فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾[4] فالضلالة هنا إشارة لفقدان الهداية من جهة المصلحة في قتل ذلك القبطي .

١٧ ـ إن الله تعالى هو الذي أغنى نبيه من خلال أم المؤمنين خديجة عليها السلام ، وهو الذي آواه بعد أن فقد أباه وهو في بطن أمه من خلال جده عبد المطلب أولا ، وآواه بعد أن فقد أمه وهو في السادسة من عمره من خلال

---

(١) سورة النور : الآية ٢١.

(٢) سورة الشورى : الآية ٥٢.

(٣) سورة يوسف : الآية ٣.

(٤) سورة الشعراء : الآية ٢٠.

عمه أبي طالب ثانيا، لوضوح أن العالَم عالم السببية والتسبيب وإن كان الله تعالى هو الفاعل المطلق لما يشاء، فلا يتوقع عبد بعدها أن يُرزق من دون كد أو اعتماد على الغير.

وعليه، فلا معنى للدعاء بالاستغناء عن الخلق، بل المطلوب هو الاستغناء عن شرارهم!.. وهكذا الأمر في كل موارد سد الحوائج، وإلا فما الذي كان يمنع أن يظهر الله تعالى لنبيه ﷺ كنوز الأرض الخفية بدلا من مال خديجة عليها السلام؟

١٨ ـ إن من لوازم التأسّي بالنبي ﷺ هو عدم رد السائل مطلقا ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ سواء طلب مالا أو علما وسواء كان صادقا أو كاذبا[1]، فقد دلت الرواية على رد السائل إما برد جميل أو ببذل يسير، ودلت الآية على عدم قهر اليتيم ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ والتعبير بالقهر يشعر بنوع من التحقير مع الغلبة، وكأن صاحبه تسلط على عدوه قاهرا له؛ وعليه فإن صلة اليتيم لا تنحصر بإكرامه مادة فحسب وإنما رعاية نفسه وروحه، إذ إن ما فيه من الكسر الباطني لا يُجبر بالمال.

ومن الملفت أن النبي ﷺ عاش حالة الفاقة واليتم معا، ومن هنا كان شكر الإغناء والإيواء بالنسبة له هو العمل على إغناء الغير، وإيوائه لمن هو في حالته.

---

(١) الكافي: ج٨ ص ١٦٤.

١٩ ـ إن إجابة السائل قد تكون بعد السؤال، ولكن إكرام اليتيم قد لا يكون بعد سؤال بمقتضى صغر سنه وقصور بيانه؛ ومن هنا كان أبلغ تأثيراً!.. فروايات إكرام اليتيم مذهلة في المقام كقرن النبي ﷺ أصبعيه بيانا لموقعه منه في الجنة[1] وليعلم هنا أن الإكرام الأتم ما لم يكن بعد سؤال وإلا فما يريقه السائل من ماء وجهه أكثر من ما يعطيه المسؤول؛ فكيف إذا كان العطاء معه مَنّ وأذى ؟!.. ومن المعلوم أن ما قام به عبد المطلب وأبو طالب عليهما السلام ممّا يوجب مثل هذا الأجر العظيم ـ أعنى تكفل أعظم الخلق من دون سؤال ـ وخاصة مع ما سببته هذه الكفالة من الأذى البليغ، وهو ما وقع لعمه أبي طالب.

ونقول في هذا السياق: إن الله تعالى أولى من غيره للعمل بما ورد في هذه السورة، فهو الذي وجد عبده عائلا ويتيما وضالا، فكان وجدانه هذا كافيا للإغناء والإيواء والهداية ولو من دون سؤال.

٢٠ ـ إن التحدّث بالنعم الإلهية يكون تارة عن طريق البيان:

- بالكلام: وذلك بإظهار النعم تحبيبا للناس بالمنعم، فقد ورد أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «**حبّبني إلى خلقي، وحبّب خلقي إليّ، قال: يا رب!.. كيف أفعل؟.. قال: ذكّرهم آلائي ونعمائي؛ ليحبّوني**»[2] لأن تذكير العباد بذلك يجبر إحساسهم

(١) مجمع البيان في تفسير القران: ج١٠ ص ٧٤٠.

(٢) الأمالي: ص٤٨٤.

بما سلبهم الله تعالى من النعم لمصالح هو يعرفها، أضف إلى تشجيعهم على ذكر النعم؛ فإن نسيانها قد يوجب حالة من السخط عند بعض مكروه القضاء، فيقترب العبد من دائرة الكفر، أضف إلى ما في ذلك من سنّ سنة الاقتداء بعمل الصالحين فقد روي عن الحسين عليه السلام أنه قال: «**إذا عملت خيرا؛ فحدث إخوانك ليقتدوا بك**»[1] .

- بالعمل فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**إن اللهَ إذا أنعم على عبدٍ؛ أحب أن يرى أثر نعمتَه عليه**»[2] فإن من يظهر النعمة على نفسه كأنه يقول بلسان الحال: انظروا إلى ما انعم الله تعالى به على عبده ـ من دون عُجْب طبعا ـ وهذا بدوره تشجيع على العبودية المثمرة لهذه النعمة الظاهرة.

وقد يكون المراد هنا شيء آخر يختلف عن المعنى السابق تماما، ألا وهو التحدث مطلقا بما يقرب العباد إلى الله تعالى، وذلك استعانة بالنعم الإلهية في تحقيق ذلك، ومنها شرح الصدر وحُسن البيان.

---

(١) مفاتيح الغيب: ج٣١ ص ٢٠١.

(٢) الكافي: ج ١٣ ص ٢٢.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾﴾.

١ ـ إن هذه السورة بناء على ارتباطها بسورة الضحى ـ كما هو المستفاد فقهيا من لزوم الجمع بينهما في الصلاة ـ فيها صور متعددة من صور الامتنان على النبي الأكرم ﷺ فكأنّها في مقابل توهم القلى من انقطاع الوحي، وذلك عطفا على صور الامتنان في السورة السابقة من: نفي القلى، ثم بيان أن الآخرة محل تجلي الإكرام الإلهي له، وان العطاء يبلغ مبلغا يرضى معه، ثم ذكْر العناية الإلهية له في صباه يتيما حيث آواه، وفي كبره فاقدا للهداية الخاصة حيث هداه، وعائلا حيث أغناه، وأما في هذه السورة فإنها تستمر في تعداد النعم الإلهية لحبيبه المصطفى ﷺ متمثلة في: شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وتيسير العسر.

وبذلك يكون قد تكرر في السورتين ذكر النعم المتوجهة إليه ﷺ عشر مرات، أضف إلى ضمائر الخطاب الظاهرة والمستترة ـ إكمالا للدلال ـ والتي تكررت في هذه السورة إحدى عشرة مرة، فكانت الالتفاتة إليه مع ذِكر النعم إحدى وعشرين مرة بعدد آيات السورتين.

٢ ـ إن بيان النعم الإلهية لمن موجبات إحساس العبد بحالة التذلل والخضوع بين يدي المنعم، وإلا فليس من عادة الكريم أن يمنّ بعطائه إذا لم يجد حكمة في ذلك فكيف بأكرم الأكرمين؟!.. فذِكر المولى في أول السورة لمختلف النعم المتوجهة إلى حبيبه المصطفى ﷺ يدخل في هذا السياق.
وعليه، فإنه من المناسب جداً أن يذكّر العبد نفسه بما أنعم عليه مولاه؛ ليعمّق في نفسه مشاعر العبودية لله تعالى؛ كلما رأى فتورا في علاقته بربه.

٣ ـ إن شرح الصدر لمن المقامات التي ينبغي أن يطلبها كل مريد لمولاه كما طلبها موسى الكليم عليه السلام من ربه ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[1] وذلك لا لتحمّل أذى العباد فقط، وإنما لتلقي المعارف الإلهية الخاصة التي لا يُعطاها عامة العباد فضلا عن تحمّلها!
وهذا المعنى من الممكن تحققه لغير المرسلين، كما جرى مع لقمان الحكيم الذي تلّقى الحكمة الخاصة من رب العالمين[2]، ومما يدل على عظمة هذه المزية ما روي عنه ﷺ أنّه قال: «**لقد سألت ربّي مسألة، وددت أنّي لم أسأله.. قلت: أي ربّ إنّه قد كان أنبياء قبلي منهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى. قال، فقال: ألم أجدك يتيما فآويتك؟.. قال: قلت: بلى. قال: ألم أجدك ضالا فهديتك؟.. قال: قلت: بلى أي ربّ، قال: ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟.. قال: قلت: بلى أي**

---

(١) ﴿قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ سورة طه: الآية ٢٥.
(٢) ﴿وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ﴾ سورة لقمان: الآية ١٢.

ربّ»[١].

٤ ـ إن القائد الرسالي الذي يحمل همّ دعوة العباد إلى الله تعالى وتغيير ما فسد من البلاد، لا بُد وأن يمنّ الله تعالى عليه بشرح الصدر ليتحمل تبعات هذه المهمة؛ لأن عداوة أهل الباطل إضافة إلى تحريض الأبالسة، لمن موجبات الأذى الكثير الذي لا يتجرّعه، إلا مَن شرح الله تعالى صدره لذلك.

٥ ـ إن من آثار شرح الصدر:

- تلقّي الهداية الإلهية الخاصة التي تريه السبيل الأقوم، عند تشابه السبل.
- الكون على النور الخاص من ربه، والذي يرفع عنه الحيرة في كل مفترق طريق.
- تمكين العبد لأن يكون هاديا إلى الله تعالى، ومُخرجا للعباد من الظلمات إلى النور، بعد أن خرج هو من الظلمات إلى النور.

وعليه، فإن جميع هذه المزايا إنما تتحقق بفضل شرح الصدر الموجب لهذا النور.

٦ ـ إن نبي الله موسى ﷺ طلب من الله تعالى شرح الصدر بقوله

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٧٧٠.

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[(١)] ولكن نبينا الخاتم ﷺ أنعم الله تعالى عليه بهذه النعمة مباشرة حيث قال تعالى عنه ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ لتبقى بذلك درجات الأنبياء متمايزة.. ومن الطبيعي أن يكون صاحب الرسالة الخاتمة، هو صاحب شرح الصدر الأكبر!

٧ ـ إن شرح الصدر هبة عظمى من الله تعالى وذلك للسالكين في طريق الدعوة إليه، ولكن هناك علامات له يستشعرها العبد الملتفت إلى الهبات الإلهية، وقد أشار النبي الأكرم ﷺ إلى ذلك قائلا: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[(٢)].. وعليه، فمَن لم يجد هذا المعنى متحققا في نفسه، فلا ينبغي أن يعتقد أنه مستقر في هذه المرتبة، وإن رأى شيئا من الانشراح في قلبه.

٨ ـ إنه من الممكن القول: بأن قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ تأكيد وتوضيح لقوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[(٣)] فكيف يودّع الله تعالى عبدا شرح صدره، ورفع ذِكره؟!.. وفي هذا كمال المؤانسة بين الله تعالى وحبيبه ﷺ.

والقرآن الكريم مليء بالتعابير المُشعرة بكمال لطف الله تعالى به:

---

(١) سورة طه: الآية ٢٥.

(٢) الأمالي: ص ٥٣٢.

(٣) سورة الضحى: الآية ٣.

- فتارة يُقسِم بعمره الشريف قائلا ﴿لَعَمْرُكَ﴾[1] .
- وتارة يشفق عليه لِما أصابه في ذات الله تعالى قائلا ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[2] .
- وتارة يجعل أمر طلاقه وزواجه بيده قائلا ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[3] .

٩ ـ إن من آثار شرح الصدر الذي مَنّ الله تعالى على نبيه المصطفى ﷺ هو ذلك التعامل الذي لا نظير له مع قومه الذين آذوه وطردوه من وطنه، حيث قال ﷺ : «**اللهم!.. اهد قومي؛ فإنّهم لا يعلمون**»[4] ولو طلب الانتقام من ربه لاستُجيب له وما كان بذلك ملوما!.. وفي هذا درس لمـن أراد الاستنان بسنته، وذلك في النظر بعين الشفقة إلى المنحرفين عن طريق الله تعالى ؛ فكيف بالطائعين له؟!

١٠ ـ إن الآيات الأربع الأوائل، تشير إلى طبيعة تعامل المولى مع أنبيائه والهبات المعطاة لهم وخصوصا مع نبيه الخاتم ﷺ أي مرتبة شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، والتيسير بعد العسر.. ولكن كل هذه المزايا الكبيرة مرتبطة بالآيتين الأخيرتين من هذه السورة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ

---

(١) سورة الحجر : الآية ٧٢.
(٢) سورة طه : الآية ٢.
(٣) سورة التحريم : الآية ٥.
(٤) الاحتجاج للطبرسي : ج١ ص ٢١٢.

فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ إما :

- ارتباط العلة بالمعلول ؛ أي أن هذه المزايا نتيجة نصب النفس وإتعابها في العبادة ، والرغبة فيه تعالى لا في شيء سواه .
- أو ارتباط المعلول بالعلة ؛ أي أن مَن أوتي مثل هذه المزايا ، حقَّ له أن ينصب نفسه للعبادة ، وأن يرغب في ربه .

١١ ـ إن الثقل العظيم الذي وضعه المولى عن نبيه الأكرم ﷺ متمثل في مقارعة جفاة مرحلة الجاهلية ومعاندي مرحلة الإسلام ، ومنه يُعلم أن من أصعب التكاليف على العبد هي مواجهة أعداء الله تعالى ، ومن المعلوم أنه كلما صعب التكليف كلما اشتد القرب!

ومن هنا ، فإن الذين تركوا مشقة الدعوة ، وأنِسوا بلذة الطاعة في الخلوات ـ كالرهبان والعباد ـ إنما طلبوا راحة أنفسهم ولم يطلبوا ما يثقل عليهم وهو ما فيه رضا ربهم .

١٢ ـ ليس الحل الأمثل هو الفرار من العقبات وطلب الإعفاء ممّا يوجب الهم والغم ؛ وإنما الحل هو طلب ما يوجب تحمّل ذلك والمتمثل بشرح الصدر ، والذي إذا رُزق صاحبه ذلك صار كمثل البحر ، الذي يستوعب كل ما يُلقى فيه من دون أن يتبين ذلك فيه ، بخلاف الإناء الذي يطفح بأقل ما يُرمى فيه.

١٣ ـ إن رفع ذِكر الدعاة إلى الله تعالى وعلى رأسهم النبي ﷺ وآله ﷺ أثر لشيء ومؤثر لشيء آخر ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فمن ناحية :

- هي هبة ومنحة من آثار رشحات رب العالمين في الأنفس والآفاق، كما فعل من قبل مع خليله إبراهيم عليه السلام حيث جعل أفئدة من الناس تهوي إليه، إضافة إلى إلقاء المودة الخاصة بينه وبين ربه، وبذلك صار رفع الذِكر أثرا لهذا اللطف الإلهي.
- هي مزية وخاصية أيضا في إنجاح الدعوة، فمَن ارتفع ذِكره الحسن بين الخلق، صار أقدر من غيره في التأثير عليهم؛ لأن القلوب مجبولة على القبول ممن أحبته، وهذا يُفسِر سرّ تفاني أصحابهم عليهم السلام في ميادين الجهاد وغيرها، وبذلك صار هذا اللطف الإلهي مؤثرا في إنجاح العبد في الدعوة.

١٤ ـ إن هناك فرقا كبيرا بين مَن يسعى لرفع ذِكر نفسه، وذلك بجهده طلبا للعاجل، فهذا الإنسان قد لا يوفق لذلك وإذا وفق لا يدوم ذِكره، إذ إن الأيام يداولها الله تعالى بين الناس، وبين مَن أراد الله تعالى أن يرفع ذِكره فإن هذا الإنسان يبقى ذِكره متصلا بدوامه تعالى، وهذا ما تحقق لنبيه الأعظم صلى الله عليه وآله حيث قَرَن اسمه في الشهادتين، وفي الإقامتين، وفي تشهد الصلوات الواجبة والمستحبة، وهذا المعنى باقٍ إلى قيام الساعة.
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله في تفسير هذه الآية: «**قال لي جبرائيل عليه السلام: قال الله عزّ وجلّ: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي**»[(١)].

(١) مناقب ابن شهر آشوب: ج١ ص٣٠٢.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

١٥ ـ إن اليسر هو القاعدة العامة المتوافقة مع الرحمة الغامرة، وكأن العسر لا يُصار إليه إلا لغرض من أغراض التكامل.. ومن هنا أمكن القول بأن مع العسر الواحد يسرين، بناء على أن المعرفة إذا أعيدت ثانية في الكلام كان المراد منها عين المراد في الأولى، وقد ورد عن النبي الأكرم ﷺ: **«لن يغلب عسرٌ يسرين»**(١).

١٦ ـ إن العسر ملازم لليسر تلازم المعية ـ كما تذكره الآية الكريمة ـ لا أنه سابق له سبْق القبْلّية، وفي ذلك إراحة للمؤمن الواقع في العسر عندما يعلم أن اليسر مصاحب لعسره، لا أنه آت في المستقبل؛ ملتفتا أن ذلك كله بيد الحكيم الخبير الذي بيده أسباب العسر واليسر معا.
وقد ورد عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: **«واعلم أنّ الصبر مع النصر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسرا»**(٢).

١٧ ـ إننا من الممكن أن نعتبر آية ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾:

- علة لشرح الصدر، حيث إن من مصاديق التيسير هو شرح

---

(١) مجمع البيان في تفسير القران: ج١٠ ص٧٧١.

(٢) مشكاة الأنوار: ص٢٠.

صدر مَن ابتلي بالهم العظيم! .

- معلولة لشرح الصدر من جهة أُخرى ، بأن نجعل التيسير من آثار شرح الصدر ، فمَن شرح الله صدره ووضع عنه وزره فإنه يُيسر عسره أيضا.

١٨ ـ إن ذِكر النعم الإلهية ـ وخصوصا النعم المعنوية كشرح الصدر ـ لمن موجبات التفات العبد إلى ربه والرغبة إليه لقوله تعالى ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ ومن مشجعات العبد كي يُتعب نفسه في طريق طاعته ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ كما أشارت إليه الآيتان الأخيرتان من هذه السورة .

١٩ ـ إن المجاهدين في سبيل القرب من الحق لا يعرفون كللا ومللا في حركتهم الدائبة ، فهم بعد الفراغ من العمل بما أمروا في نشر الرسالة ، ينصبون أنفسهم للعبادة والدعاء بين يديه؛ استعدادا للمزيد من تحمل المشاق في تخليص العباد وتطهير البلاد.

وفي هذا أيضا درس بليغ للدعاة إلى الله تعالى، فإن انشغالهم بمواجهة الأعداء لا يغنيهم عن تفريغ أنفسهم للعبادة والالتجاء إلى الله تعالى، إلى درجة إتعاب النفس المستفاد من قوله تعالى ﴿فَانصَبْ﴾ طلبا للمزيد من الثبات والتوفيق .

٢٠ ـ إن الآيات الكريمة وإن ذكرت بعض صور الجزاء المادي في

الجنة كالحور والغلمان[١]، وأمرت بالمسارعة إلى جنة عرضها السماوات والأرض[٢]، إلا أن القرآن الكريم يحثّ الخواص لنيل بعض الرتب التي لا تُقارن بتلك النعم، ومنها نعيم الرضوان الذي هو أكبر من كل نعيم في الجنة، ومنها نعيم القرب والوصال الإلهي.

ومن الممكن أن يكون قوله تعالى ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ إشارة إلى رتبة (الرغبة فيه) تعالى لا في (جزائه) لأنه تعالى في هذه الآية هو متعلق الرغبة مباشرة؛ ومن المعلوم أن بين الرغبة في الحق والرغبة في ثوابه بونٌ شاسع!

---

(١) ﴿وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عينٍ﴾ سورة الدخان: الآية ٥٤ .

(٢) ﴿وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْض﴾ سورة آل عمران: الآية ١٣٣ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

١ ـ إن القرآن الكريم ينوّع في طريقة القَسَم تنويعا ملفتا، فينتقل من القَسَم بفاكهتين ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ إلى بلدين مقدّسين ﴿وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ إذ إن كل شيء منتسب إلى الله تعالى بنحو من الانتساب ـ فاكهة كانت أو بقعة مباركة ـ فهو مقدس يمكن القَسَم عليه، إذ إن شرافة العالي تسري إلى الداني إذا عُدّ شأنا من شؤونه، ولا غرابة في ذلك وهما مترشحان من عالم الأمر والخلق؟!

٢ ـ إن طور سيناء لم يكن موطنا لموسى ﷺ، بل محلا لمناجاته بخلاف باقي المدن المقدسة المذكورة في السورة؛ ممّا يدل على أن تشرّف العبد بذِكر مولاه ـ ولو في فترة قصيرة كأربعين ليلة ـ يوجب قدسية ذلك المكان الذي ناجى ربه فيه، بما يستحق أن يُقسم عليه.

٣ ـ إن إطلاق الأمان على مكة المكرّمة ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ يشير إلى قدسية هذا المكان الشريف، سواء فسّرنا الأمن هنا:

- بالمعنى الفاعلي أي الحافظ لما دخل في دائرة حمايته، فكأن هذا

المكان يجعل من دخله في حرزه الحريز ـ وهذا ثابت بحسب التشريع وإن خالفه البشر ـ فهو بلد يأمن فيه ما يمكن صيده من الحيوان، والحاج والمعتمر من البشر حتى لو كان مجرما .

- أو بالمعنى المفعولي كقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً﴾[1] أي أن الله تعالى قرر ذلك له، فمَن أخلّ بأمنه يكون قد تحدّى الله تعالى فيما شرّع وقرر، ومن هنا رأينا العقاب الأليم المتوجه لأصحاب الفيل، الذين حاولوا تدنيس هذه القدسية.

٤ ـ ينبغي الالتفات إلى تنوع النعم الإلهية في حياة العباد، وهذا بدوره يستلزم تنوع الشكر القولي والفعلي بإزاء كل نعمة من تلك النعم، فالبعض متنعم بمزايا عالم الأرض فينسى بركات عالم السماء كنعمة الإسلام والإيمان، والبعض يستشعر النعم المعنوية تاركا شكر نعمة الطعام والشراب مثلا، والحال أن عين المؤمن متوجهة إلى كل ما يصدر من مولاه، مادة كانت أو معنى.

ومن هنا فإن السورة جمعت بين ذِكر النعم المادية المرتبطة (بالمأكول) كالفاكهتين وبين (المعقول) كالإيمان، كما جمعت بين ما يوجب سلامة (الأبدان) من الفاكهة النافعة للبدن من التين والزيتون، اللذين قيل في حقهما الكثير من الخواص المذهلة، وبين ما يوجب سلامة (الأوطان) من تحقق الأمان ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٧.

٥ ـ إن الآيات الأولى من هذه السورة فُسّرت على أنها مواطن الأنبياء عليهم السلام فأشارت إلى :

- بلاد الشام المشتهرة بالتين؛ وهي مكان هجرة إبراهيم عليه السلام .
- فلسطين المشتهرة بالزيتون؛ وهي مكان ولادة عيسى عليه السلام ومنشؤه .
- طور سينين؛ وهو الموضع الذي نودي منه موسى عليه السلام .
- البلد الأمين؛ وهو بلد نبينا الخاتم صلى الله عليه وآله .

وهذه بمجموعها تدل على أن البقاع تكتسب شرافةً ممّن هو عليها، فلا يفتخر من عليها بما هو عليه من الأرض، لوضوح أن شرف المكان بالمكين ولا العكس!

٦ ـ إن الأمان التشريعي المجعول للبلد الأمين، إنما هو استجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام الذي طلب من الله تعالى الأمان له قائلا ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾[1] فكانت الاستجابة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾[2]؟!.. فكم هو أمر عظيم أن يحقق الله تعالى أمانا لبلد إلى يوم القيامة؛ استجابة لدعوة عبد من عباده المكرمين!

٧ ـ إن الله تعالى خلق الإنسان في أفضل قابلية للكمال المادي والروحي قائلا ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فإن :

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٥.

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٧.

- الجسم الإنساني بما له من الطاقات والقابليات، يمكنه القيام بعجائب الأمور، وهو ما نراه حاليا من التقدم العلمي في كل المجالات.
- الروح الإنسانية بما أراها الله تعالى من طريق الخير والشر ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(١) هي أيضا لها القابلية في العروج إلى أعلى درجات الكمال.

فكم من الظلم بعدها أن لا يحقق الإنسان هذا الكمال، مع وجود تمام القابلية فيه ليقال في حقه أخيرا ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾(٢)!

٨ ـ إن الله تعالى ينسب الخلقة في ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ إلى نفسه كما ينسب الرد إلى أسفل سافلين إلى نفسه أيضا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ بفارق أن:

- الأول: فعلُه المحض فهو كان مع العبد حين خُلق ولم يكن ﴿شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(٣).
- الثاني: فعلُه المترتب على فعل العبد، وهذا من باب الخذلان والعقوبة كأي قانون من قوانين عالم التكوين، فإن الله تعالى هو

---

(١) سورة البلد: الآية ١٠.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

(٣) سورة الإنسان: الآية ١.

المحرق ولكن عندما يشعل النارَ صاحبُها.

٩ ـ كم هو الفرق الشاسع بين قوس الصعود الذي يشير إليه قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1] وما روي من أنه **«لولاك؛ لما خلقت الأفلاك»**[2] وبين قوس النزول الذي يشير إليه قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وقوله ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[3]!
والملفت هنا أن التنقل بين قوسي الصعود والنزول يتم في هذه الحياة الدنيا، فهي على قصرها تحدد ذلك كله!

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

١٠ ـ إن القرآن الكريم ربط بين الإيمان والعمل الصالح فيما يقرب من خمسين مورد، ممّا يدل على أن النجاة لا تتم إلا بهما: فالذين ابتغوا غير الإسلام دينا، أو ابتغوا غير منهج النبي وآله ﷺ منهجا أخلّوا بالركن الأول، والذين انحرفوا عن الطريق القويم ولم يعملوا صالحا، أو خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فقد أخلّوا بالركن الثاني.

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب: ج ١ ص٢١٧.

(٣) سورة الإنسان: الآية ١٤٥.

والملفت : أن لحن الآيات الدالة على هذه الحقيقة متنوع بين :

- ما يذكر العمل الصالح بصيغة الماضي ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[١] الدال على الثبات .
- وما يذكره بصيغة المضارع الدال على الاستمرار ، مضافا إلى ذكر الإيمان كصفة للذات لا للفعل كقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِن﴾[٢] .
- ما يذكُره على نحو البشارة منتسبا إلى فرد من المؤمنين كقوله ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحات﴾[٣] أو إلى جماعة منهم ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحات﴾[٤] .

١١ ـ إن العطاء الأكمل هو ذلك العطاء :

- المتصل : إذ إن حزن ساعة المنع لا تجبره ساعات العطاء السابقة ، فمن البديهي أن الفرح المتصرّم لا يجبر الحزن الفعلي ، ومن هنا وصف الله تعالى الأجر في هذه السورة بأنه غير ممنون أي غير مقطوع .
- الذي لا يصاحبه المنّ : لما في ذلك من الأذى على الممنون عليه ،

---

(١) سورة طه : الآية ٧٥.

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٩٤.

(٣) سورة طه : الآية ٧٥.

(٤) سورة الإسراء : الآية ٩.

وهو أيضا ممّا قد يُفهم من كلمة غير ممنون .

- الذي يُفهم فيه بأن المعطَى له يستحق هذا الجزاء : فقد عبّرت الآية عن الأجر بأنه ثابت لهم ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فكأنّ هذا الأجر كان استحقاقا لازما لهم ، والحال بأن الله تعالى هو المتفضّل في (أصل الأجر) لأن ما قاموا به هو من لوازم العبودية وفي (حجم الفضل) لأن جزاء الخلود الأبديّ لا يقاس بالطاعة الفانية في الدنيا .

١٢ ـ إن القرآن الكريم يعلّمنا كيف نتعامل مع الخلق في جانب الإقناع النظري ، فبعد ذكر عجائب خلقته في عالم التكوين وإرساله للأنبياء العظام ، يطرح سؤالا تقريعيا حول ما يدعو الناس إلى التكذيب بيوم الجزاء قائلا ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ ففيه إشعار ضمني بأن هذا الأمر في غاية الغرابة ، وهذا أسلوب من أساليب تحريك العقول الجامدة.

ومن الممكن إرجاع الخطاب للنبي الأكرم ﷺ بما يكون تسكينا لخاطره الشريف ، وعليه يكون المعنى : فمَن يكذبك يا أيها الرسول بالدين بعد ظهور هذه الدلائل المحكمة؟!

١٣ ـ إن الله تعالى يلخّص في بعض الحالات أغراض السورة في جملة واحدة ، وتطبيقا لذلك فإنه يمكن القول بأن آية ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ كأنها تعبّر عن النتيجة المتحصّلة لكل ما قيل في صدر هذه السورة ، إذ إن : إبداع الخلق التكويني ، وتخصيص البعض بالنبوة ،

وإرجاع البعض إلى الدرجات السفلى، والأجر المتصل، وتهديد المكذّب بالدين؛ كل ذلك فرع حاكميته المطلقة في هذا الوجود.

١٤ ـ إن سياق هذه السورة يشابه سياق سورة العصر، وذلك في تقرير حقيقة مصيرية تخص كل فرد في هذا الوجود، تتمثل في بيان قاعدة الخسران والتي هي الأصل الأساس في حياة كل فرد، وأنه لا يمكن الخروج من هذا الأصل الأولي، إلا بالجمع بين الإيمان والعمل الصالح.
وعليه فإن المرء لو أعفى نفسه من الصعود إلى عالم ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فإن النتيجة القهرية هي التسافل إلى عالم ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ كتسافل كل جسم ـ بفعل جاذبية الأرض ـ إذا لم يتكلف الصعود.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

١ ـ إن هناك فرقا بين الأمر بالقراءة والأمر بالحديث، فيلازم الأول وجود ما يُقرأ منه؛ أي أن لكل قارئ مقروءًا، فيُفهم من الأمر بـ ﴿اقْرَأْ﴾ أن هناك ما يقرأ منه النبي ﷺ ألا وهو القرآن الكريم، كما في قوله تعالى ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاس﴾[1] وكأنّ قلبه بمثابة العرش الذي منه يتنزّل الوحي، وهذا التعبير مشعر بأنه لم يفت النبي ﷺ شيء من القرآن الكريم؛ فيا له من قلب عظيم تحمل الكتاب الإلهي دفعة واحدة في ليلة واحدة!

٢ ـ إن من المعلوم أن كل عمل لا يرتبط بالله تعالى فهو أبتر، ومن هنا أُمرنا بالتسمية قبل كل عمل ذي بال، وقد قيل ـ بناء على أبترية ما لم يُسمّ عليه ـ أن الأمر بـ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ هي القراءة مفتتحة بالتسمية، ولكن تشتد ضرورة ربط الأمور بالله تعالى بالنسبة إلى كل عمل دعوي، فإن الله

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

تعالى لا يرضى أن ينتشر هداه إلا من خلال من يرتضيه وبما يرضيه، لئلا تكون منّة لأحد من خلقه على دينه.

ومن هنا أمر الله تعالى نبيه المصطفى ﷺ أن يقرأ باسم ربه، ذلك الرب الذي تكرر ذِكره في أكثر من مورد في هذه الآيات، أضف إلى أن الله تعالى أمر نبيه بالاستمداد منه بالسجود والاقتراب منه في مواجهة من ينهى عن عبادته، فالنجاح في بدء الدعوة واستمرارها منوط بالارتباط بالمطلق.

٣ ـ إن القرآن الكريم كثيرا ما يربط بين الخالقية والربوبية، كما في هذه الآية ﴿رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وكأن فيه إشعارا بأن من موجبات الطاعة وإدانة العبد بالطاعة لربه هو الاعتقاد بخالقيته، فإن حق خالقيته يقتضي ذلك أولا ثم شكر هذا الحق ثانيا.

ومن موجبات الاعتماد على مبدأ الاعتقاد بالخالقية لترسيخ مبدأ الانصياع للربوبية: إن إدراك الأول لا يحتاج إلى كثير جهد، فهو اعتقاد ناشئ من التأمّل في مظاهر الوجود؛ ولكن الثاني مستلزم لأمر زائد من التبعية والطاعة.

ومن الملفت هنا أن الله تعالى ذكر الخلق أولا من دون متعلق قائلا ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ ثم ذكر خصوص خلقة الإنسان قائلا ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ممّا يُفهم منه خصوصية خلق الجنس البشري بين مخلوقات هذا الكون الفسيح، فانه أرقى ما خلق الله تعالى في هذا الوجود حيث عبر عنه ﴿لَقَدْ

خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١] .

٤ ـ إن القرآن الكريم يذكر بدء خلقة الإنسان من العلقة وهو الدم المتجمّد للتذكير بحقارة مادة الخلقة الأولى ، والتي يُعبّر عنها في آية أُخرى بالماء المهين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾[٢] وكان بالإمكان ذِكر المراحل المتوسطة أو الأخيرة من خلقة الجنين، إلا أن الآية اختارت أضعف المراحل وأحقرها ، حيث الدم الذي لا يظهر فيه أي معْلم من معالم البدن ، وفي هذا إشارة إلى كمال القدرة الإلهية في عالم (الأبدان) حيث خلق الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٣] من هذا البدء الذي لا يناسب الختام .
وهذه القدرة الخلاقة أعملها الله تعالى أيضا في عالم (الأرواح) فـ﴿عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ والواسطة في ذلك أيضا أمر بسيط ألا وهو القلم الذي تغطي مادته الأرض وهو الشجر ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ فمن مادة الدم والخشب وجد البشر والعلم، وتبعا لهما ظهرت كل هذه الحضارات على وجه الأرض .

٥ ـ إن تكرر ذِكر الرب في هذه السورة مسنداً إلى النبي الأكرم ﷺ فيه نوع تعظيم لنبيه في قوله ﴿وَرَبُّكَ﴾ كما أنه ذُكر مسندا إلى ربه أيضا

---

(١) سورة التين : الآية ٤.

(٢) سورة السجدة : الآية ٨.

(٣) سورة التين : الآية ٤.

كقوله تعالى في موضع آخر ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾[1] وقيل إن إسناد نبيه إليه تعالى أكثر شرافة من إسناده إلى نبيه ؛ لأنه في معنى قولك : (أنت لي) وهو أشرف من قولك (أنا لك)!

ومن الجدير بالتأمل : أن ذِكر الرب بقول مطلق في الأول ﴿رَبِّكَ﴾ يتبعه ذِكر الخلق وهو التجلي التكويني لله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ لكن ذِكر الرب بقيد الأكرمية في الثاني ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ يتبعه ذِكر التعليم وهو التجلي التشريعي له ، فهو ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ .

٦ ـ إن الحديث عندما يكون عن (الخَلق) فإن الله تعالى يصف نفسه بالكرم ، فيقول تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾[2] ولكن عندما يكون الحديث عن (العلم والتعليم) فإنه يصف نفسه بالأكرمية فيقول تعالى ﴿اقْرَأْ ورَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فكأنّ الخلق كله في كفة ، وتعليم الإنسان لما لم يعلم في كفة أُخرى مع تغليب الثانية على الأولى ، ولا غرابة في ذلك لأنه بهذا العلم ينفتح الطريق لمعرفة ما في الكفة الأُخرى من الخلق ، بل لمعرفة خالقه أيضا.

ولا يخفى ما في استعمال صفة الكرم من بين الصفات الإلهية في المقامين ؛ لأن الفيض في كليهما لطف محض من دون مقابل ، فلا يدخل في باب الأجور بل في باب التفضّل والإحسان .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١.

(٢) سورة الانفطار : الآية ٦-٧.

٧ ـ إن بعض المغرضين يتهمّ الإسلام بأنه دين (السيف)، والحال بأنه دين (القلم) كما نفهم من الآيات الأولى النازلة من القرآن الكريم، فهو جاء ليفتح القلوب بشعار ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[١] وهذا هو سر انتشار الإسلام في الآفاق!

وقد بلغ تقديس القرآن الكريم للعلم أنه أقَسَم بأداة الكتابة وهي (القلم) وما يسطر به وهو (الكتاب) كما جاء في سورة القلم جامعا بينهما حيث يقول تعالى ﴿ن * وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٢] ولم يقيّد المسطور بعلم من العلوم؛ تكريما لكل ما يُجريه الإنسان من قلمه من العلم، ولو لنفع دنيوي.

٨ ـ طالما نسب الله تعالى التعليم إلى نفسه فقال ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ و﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٣] و﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾[٤] و﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[٥] و﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[٦] و﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
(٢) سورة القلم: الآية ١.
(٣) سورة الرحمن: الآية ٢-٤.
(٤) سورة البقرة: الآية ٣١.
(٥) سورة المائدة: الآية ١١٠.
(٦) سورة يوسف: الآية ٦٨.

الْقُوَى﴾[١].

وعليه، فمن اختار طريق تعليم الخلق علما نافعا لهم، فإنه لم يختر طريق الأنبياء العظام فحسب؛ وإنما اختار طريق الله تعالى وتخلّق بأخلاقه، فحقّ له أن يمدّه بنوع من المدد الذي يمدّ به أنبياءه ﷺ جميعا!

ومنه أيضا يُعلم البون الشاسع بين عمل العلماء الذين اتصفوا بهذه الصفة الإلهية، وبين العبّاد الذين أهمّتهم أنفسهم.

٩ ـ لقد تكرر ذِكر التعليم في هذه السورة مطلقا تارة ﴿عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ ومقيّدا بالقلم تارة أُخرى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ولعل في ذلك إشارة إلى قسمي العلم: فمنه (اكتسابي) من خلال الأسباب الطبيعية من القلم والكتاب وصدور الرجال، ومنه (إلهامي) من خلال تخصيص خواص العباد بذلك، كما اتفق للخضر ﷺ حيث قال تعالى عنه ﴿وَعَلَّمْناهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[٢] ولقمان حيث يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ﴾[٣].

١٠ ـ لم تكن مشكلة المشركين في (خالقية) الله تعالى للكون لقوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٤] ولكن المشكلة في عدم خضوعهم لـ(ربوبية) الله تعالى،

---

(١) سورة النجم: الآية ٤-٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٦٥.

(٣) سورة لقمان: الآية ١٢.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦١.

وذلك بخضوعهم لغيره من عبادة الأصنام والآلهة البشرية.

وعليه، فإن المعترف بربوبيته من المسلمين مع طاعته لغيره ـ في مقام العمل ـ ملحق ملاكا بهذا الصنف، وإن لم يكن كذلك حقيقة.

ومن هنا أمرنا المولى تعالى في سورة الفاتحة أن نثني عليه بالربوبية أولا، ثم الاعتراف بالطاعة والعبادة له ثانيا، وفي هذه السورة أيضا تذكر الربوبية أولا ﴿رَبِّكَ﴾ ثم الخالقية ﴿خَلَقَ﴾ كوصف له تعالى.

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾.

١١ ـ إن هذه السورة ـ بعد الحديث عن العلم والقلم ـ تنتقل إلى ذمّ من رأى نفسه مستغنيا بالمال بقوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغى﴾ وكأنه إشعار بالتقابل بين العلم والمال، أو بين الدنيا والآخرة عموما، إذ هما ضرتان كما يُفهم من الرواية، فإن قلب المستغرق بحب الدنيا مشغول بما يلهيه عن الله تعالى، فلا يمكنه أن يتنعّم بنعمة العلم النافع له، كما لا يمكنه الارتداع بإنذار الأنبياء لأنه ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ﴾[1].

وقد ذَكر القرآن الكريم مثالا جليّا لمن طغى بالاستغناء والمتمثل بفرعون، حيث قال تعالى ﴿اذْهَبَا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[2] لتكون عاقبة هلاكه رادعة

---

(١) سورة يس : الآية ١١.

(٢) سورة طه : الآية ٤٣.

لمن طغى واستغنى!

١٢ ـ إن أساس الطغيان هو أن يرى الإنسان نفسه مستغنيا ـ وإن كان متوهما ـ فتنقطع صلته بصاحب الغنى الحقيقي وهو الغني المطلق، وإلا فإن الغنى ـ كحالة خارجية ـ من ممدّات التوفيق حيث إن الدنيا مزرعة الآخرة. وعليه، فإن الغنى الخارجي قد يكون مدعاة لتحقق الطغيان الداخلي وذلك إذا لم تتحقق مراقبة في البين، ومن هنا جُعل الموضوع في الآية هو الإنسان بلا قيد الإيمان، ولهذا حسُن أن يطلب الإنسان الكفاف من الرزق لئلا يُساق إلى الطغيان المُهلك.

١٣ ـ إن القرآن الكريم كثيرا ما يذكر الفئات التي واجهت دعوة الأنبياء، فضحا لهم وتحذيرا لغيرهم مثل:

- الملوك: في قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1].
- المترفين: في قوله تعالى ﴿وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفيها فَفَسَقُوا فيها﴾[2].
- كبار المجرمين: في قوله تعالى ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِميها لِيَمْكُرُوا فيها﴾[3].

---

(١) سورة النمل: الآية ٣٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٣.

- ملأ المستكبرين: في قوله تعالى ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْب﴾[١] .

وفي هذه السورة ـ وهي من أوائل السور النازلة ـ فإنها أيضا حذرت في أول الدعوة من (الأغنياء الطاغين) وهم الذين سخّروا أموالهم في مقارعة الأنبياء عليهم السلام كقارون قديما، وعتاة قريش في صدر الإسلام.

١٤ ـ إن الغنى إذا اقترن بالعلم صار سببا لنماء المجتمع البشري، وهو ما تحقّق للصدّيق يوسف عليه السلام حيث قال ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[٢] فصار مُلكه ـ وهو قِسم من الغنى ـ وعلمُه سببين لنجاة الناس من عبادة الآلهة من ناحية، والخلاص من تبعات قحط السنين من ناحية أُخرى.

ولو اجتمع هذان العنصر في أي حاكم وفي أي عصر؛ لكانت النتيجة هي نفسها، وهو ما سيشهده مستقبل البشرية من العدل والرخاء في زمان ظهور إمامنا المهدي عليه السلام .

١٥ ـ إن كلمة ﴿اسْتَغْنى﴾ بما فيها من سين الطلب قد تُشعر بأن هؤلاء الذين طغى بهم المال، يرون أن ما هم فيه من الغنى ـ إن كان غِنى حقيقة ـ إنما هو ثمرة جهدهم وطلبهم له في الدنيا؛ غافلين عن هذه الحقيقة: وهي أن الغِنى المتحقق ـ حتى للطغاة ـ إنما هو بتيسير من الله

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٨.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠١.

تعالى؛ لأن الأرض وما عليها تعود إليه، فهو القائل ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[١] ثم يعقبها بقوله تعالى ﴿إِنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ فكأنّ ذِكر القيامة والمحاسبة بين يديه تعالى، لمن موجبات كسر هذا الإحساس الباطني لمن كان قلب!

١٦ ـ إن أساس كل كمال روحي، هو الالتفات إلى حقيقتين:

- الاعتقاد بالرجوع إلى الله تعالى ﴿إِنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.
- رؤية العبد نفسه أنه بين يدي الله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى﴾[٢] فيورثه ذلك الخشوع في عالم الجوانح، والخضوع في عالم الجوارح، وتتولّد من مجموعهما (المحاسبة) لتذكر الحساب في الأُخرى، و(المراقبة) لتذكر الرؤية الإلهية له في الدنيا، ومن دون ذلك لا يصل العبد إلى كمال أبدا!.. وقد ورد في الخبر: **«اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[٣].

ومن الملفت: أنه ورد ذِكر هذا المبدأ التكاملي في عالم الأرواح، وذلك في أوائل البعثة قبل نزول جزئيات الشريعة، فلا يقبل قول من يقول: بأنه لا شيء وراء ظاهر الشريعة من أداء الواجب وترك الحرام فقط.

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٠.

(٢) سورة العلق: الآية ١٤.

(٣) الأمالي الطوسي: ص ٥٢٦.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

١٧ ـ إن الآيات الثلاث التي تبتدئ بـ﴿أَرَأَيْتَ﴾ تُبدي التعجّب من فعل الناهي لمن صلى، ومَن كان على الهدى وأمر بالتقوى؛ وذلك لبيان شدة قبح هذا العمل بما يثير استغراب الرب المتعال، وما يلزمه بعد ذلك من العذاب الأليم!

والملفت في الأمر: أن الله تعالى يذكر قاعدة لردع أمثال هؤلاء؛ ألا وهي استذكار حقيقة أن كل ذلك بعين الله تعالى في الحياة الدنيا؛ فإن ظاهر الخطاب متوجه للمشركين الذين ما أنكروا وجود خالقهم، فأرادت الآية أن تجعل لازمة هذا الاعتقاد هو الخوف من مراقبته، وهو يغني عن التهديد بالنار يوم الجزاء، فبذلك توجّه خطاب المراقبة حتى إلى هؤلاء، كما توجّه خطاب التزكية إلى فرعون حيث قال تعالى ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1].

١٨ ـ جرت عادة القرآن الكريم على التلميح بانفتاح أبواب التوبة في أسوأ حالات المخالفة ـ بعثا للأمل في النفوس المستغرقة في المعاصي والتي أسرفت على نفسها ـ ومنه ما في سورة البروج حين يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة طه: الآية ٤٤.

فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[1] فجعل تنجّز العذاب منوطا بعدم التوبة، حتى في مورد هذه الجريمة الكبرى.

ومنه ما في هذه السورة حيث لّمح بالتوبة أيضا، رغم أن السياق هو سياق التهديد لصاحب الناصية الكاذبة الخاطئة، المستمر في نهيّه عن الصلاة حيث عُبّر عنه بالفعل المضارع ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى﴾ فقال تعالى عنه ﴿كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ ففتح له بابا إلى الانتهاء، فكم هو حِلم أكرم الأكرمين، حيث يخلل التوبة والصفح في موارد التهديد أيضا!

١٩ ـ إن التوبيخ والتهديد وإن كان متوجّها لخصوص مَن نهى النبي ﷺ عن الصلاة، بقرينة ما في ختام السورة من الأمر له ﷺ بعدم الطاعة لعدوه والسجود والاقتراب لمولاه، إلا أنه يُفهم منه ـمِلاكاـ أن معاداة المؤمن لإيمانه ـوخصوصا من أجل إتيانه بصلاتهـ لمن موجبات الغضب الإلهي؛ إذ إن فيه تحدّيا لأشرف مخلوقاته في أشرف طاعاته، وهذا التحدّي بدوره يعود إلى الله تعالى، وهو أشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة!

٢٠ ـ إن هذه السورة ـبناء على أنها بجميعها أول ما نزل على النبي ﷺـ تدلّ على عظمة النبي قبل البعثة أيضا، من جهة وصفه بأنه

---

(١) سورة البروج: الآية ١٠.

كان على الهدى، وأنه أمر بالتقوى، وأنه كان يصلي وإن لم نعلم جزئيات صلاته، وإلا لا وجه للعتاب والتهديد في هذه الآيات إن كانت المذكورات ستقع مستقبلا؟!

ومن المعلوم هنا: أن عناد القوم وأذاهم للنبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، لم يكن متوجّها إلى عنوانه الشخصي بل لعنوانه الرسالي، ومن هنا عبّرت الآية عنه ﴿عَبْداً إِذا صَلَّى﴾ بدلا من ذِكر اسمه الصريح، وهذا أيضا وسام آخر من أوسمة الرب لحبيبه المصطفى ﷺ حيث وصفه بالعبد في حال كونه نكرة، والدال بطبعه على عظمة هذا الأمر!

٢١ ـ قرن الله تعالى بين الأمر بالتقوى والكون على الهدى في قوله ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى﴾ ومن المعلوم أن الذي يحق له الأمر بالتقوى من كان متلبسا به، فكيف يكسو العاري غيرَه لباس التقوى!

وينبغي الالتفات إلى أن الآية جعلت متعلق أمر النبي ﷺ هي نتيجة العبادات وهي التقوى ﴿بِالتَّقْوى﴾ لا نفس العبادة، فالمطلوب الغائي من الصوم ـ مثلا ـ ليس نفس عملية الكف عن الطعام والشراب؛ بل حالة التقوى الحاصلة من ذلك، ومن هنا ذُكرت الغاية من الصيام بقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] وهذا هو المطلوب من الدعاة إلى الله تعالى أن يحققوا النتيجة، لا إسقاط التكليف بذكر المقدمات فحسب.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

٢٢ ـ إن الله تعالى يتعمّد إذلال الطغاة يوم القيامة ، فهم يُحشرون يوم القيامة على مثل الذر ، تطؤهم الأقدام إلى أن يفرغ الله تعالى من حساب الخلق ، وفي هذه السورة نقل لصورة أُخرى من صور الإذلال، ألا وهو الأخذ بالنواصي وهو شعر مقدّم الرأس بجذب شديد ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ فيُجعل المجرم في قبضة من يسوقه في كمال الذلة، وهذا يستلزم طأطأة رأسه والذي به قوام الاعتزاز والشموخ عادة.

وليُعلم أن هذه النواصي متصفة بـ ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ فخصّت الآية الكذب قبل ذِكر عموم الخطيئة ؛ لأن الكذب منشأ لكثير من الشرور وهو من أقبح الخطايا!

وعليه ، فإن المؤمن المستضعف عندما ينظر في الدنيا إلى نواصي الطغاة في دار الدنيا ـ وهي التي تحمل ما تحمل من الرتب الزائفة ـ فإنه يتذكّر ما سيؤول إليه أمرهم عما قريب ، وهذا الإحساس بدوره يهبه شيئا من العزة باطنا ، والصبر خارجا .

٢٣ ـ إن الوعيد والتهديد من مستلزمات نجاح الدعوة مقترنا طبعا بالوعد والتبشير ، وقد وردت صيغ من التهديد في هذه السورة بالنسبة للطغاة المترفين كقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ و﴿لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴾ و﴿سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾.

وليعلم أن هذه الصيغة من التعامل لازمة لإزالة الموانع في طريق الدعوة إلى الله تعالى ، فالذي لا يملك الحسم والعزم في الدعوة إلى الله تعالى، لا يكون

على منهاج النبي ﷺ الذي قامت دعوته على التولّي والتبرّي والمفهومة من:

- شهادة الإسلام بشقّيها من (النفي والإثبات) في قول: لا إله إلا الله.
- ما يُفهم من (النهي والأمر) في قوله تعالى ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

٢٤ ـ إن الكفار طوال العصور كانوا حريصين على جمعهم واجتماعهم ـ سرا كان أو علنا ـ لمواجهة المؤمنين الذين كان أملهم بالله تعالى، إذ لم يعلّقوا مواجهتهم للكفار على تشكل ناد لهم يجتمعون فيه كاجتماع الكافرين، ولكن القرآن الكريم يستهزئ بمثل هذه المجالس التي تلاشت في الآخرة قائلا ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ﴾ ووجه الاستهزاء:

- أنّى لهم بمثل هذا الاجتماع في نار جهنم وهم في قبضة المنتقم الجبار.
- أنّى لهم بمواجهة جمع الزبانية وهي الملائكة الموكلة بالنار، إذ لا وجه يومئذ للمقارنة بين نادي الكفر والإيمان.

وعليه، فإن على المؤمن تذكّر مثل هذه العاقبة ـ وهو في الحياة الدنيا ـ ليعطيه عزما وثباتا في مواجهة خطط أهل الباطل، والتي لا تخلو من حنكة ومكر كما هو الملاحظ في هذه الأيام.

٢٥ ـ إن نوادي وأحزاب الكفار ـ على تعدّدها وتنوّعها طوال

العصور- إنما هي من لون واحد، فالنادي الذي كان يجمع أبا لهب وأبا جهل كدار الندوة بمكة المكرمة، هو بجوهره يمثل رؤساء الكفر والضلالة في كل العصور.

وعليه، فإن القانون الذي سرى على تلك النوادي من الاندثار والمحق سيجري على هذه النوادي أيضا فهو الذي يهلك ملوكا ويستخلف آخرين!

وكذلك فإن آية ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1] تشير إلى هذه الحقيقة أيضا، فهي دالة على خسران جبهة الباطل في كل العصور أيا كان صاحبها، وهو ما عبر عنه الله تعالى أيضا من الهلاك والتباب عن فرعون أيضا قائلا ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾[2] فاجتمع التعبير بـ﴿تَبَّتْ﴾ و﴿تَبَابٍ﴾ لعَلمين من أعلام الكفار طوال التاريخ.

٢٦ ـ قيل: إن المراد بالسجود في ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ كناية عن الصلاة لمقابلة نهي الناهي عن الصلاة، وذلك تحدّيا له وعدم اكتراث بنهيه ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ولكن من الممكن أن يكون السجود هنا مرادا بنفسه ـ بناء على مطلوبية السجود وإن كان خارج الصلاة- سواء بمعنى السجود العام، أو السجود عند تلاوة هذه السورة المشتملة على السجدة الواجبة.

والروايات مستفيضة حول أهمية السجود، وأن العبد أقرب ما يكون إلى

---

(١) سورة المسد: الآية ١.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٧.

ربه وهو ساجد[١]، وقد عطفت الآية الكريمة الاقتراب من المولى ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ على السجود ﴿وَاسْجُدْ﴾ لأنه من أهم المواضع التي يتقرب فيه العبد إلى ربه .

٢٧ ـ إن الالتجاء إلى الله تعالى هو سمة جميع الأنبياء حين دعوتهم الناس إلى الله تعالى ؛ وذلك لكثرة المشاق في هذا السبيل ، وفي هذه السورة أيضا جاء الأمر بأن تكون القراءة ـ وهي سمة من سمات الدعوة إليه ـ متحققة باسم الرب الخالق المعلّم بالقلم.

فعليه لا بُد أن (تبدأ) الدعوة من خلال التوجّه إليه تعالى ، وفي سورة الشرح جاء الأمر بأن (تنتهي) الدعوة أيضا بالتوجّه إليه تعالى قائلا ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ فالرغبة إليه تعالى وإتعاب النفس في عبادته ، أمر لازم في شروع الدعوة وحينها وبعدها ، وهذا هو سرّ نجاح دعوة المصطفى ﷺ ومن تبعه من آله الكرام إلى يومنا هذا .

٢٨ ـ إن من مميزات هذه السورة كأول ما نزلت على النبي ﷺ أنها تؤكد على حقيقة :

- اعتقادية : تتمثل في التأكيد على ربوبية الله تعالى للكون بعد خالقيته ، مع الالتفات إلى لوازمه من الطاعة والانقياد .
- علمية : تتمثل بدعوة الإنسان إلى العلم والتعلّم ، سواء ما كان

---

(١) الكافي : ج٣ ص٣٢٤.

منه بالقلم ، أو بتعليم الله تعالى مباشرة كالعلوم اللدنية .

- أخلاقية : تتمثل باستشعار محضرية الله تعالى في الوجود ، وأنه يرى كل ما يصدر من العبد خيرا كان أو شرا .

- عملية : تتمثل بالأمر بالصلاة أو بخصوص السجود ، كأهم فرع من فروع الدين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾.

١ ـ لقد وردت في هذه السورة صور عديدة من صور التأكيد على عظمة القرآن، منها:

- التعبير بالضمير دون التصريح بالاسم، وكأنه معلوم بالبداهة.
- إن الله تعالى اختار ظرفا زمانيا هو من أشرف الظروف، والمتمثّل بليلة القدر.
- كما اختار له قلب أشرف الكائنات ليتلقاه دفعة واحدة بمقتضى قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ إذ كما أن المُلقى وهو القرآن الكريم شُرِّف بالمتلقّي وهو النبي الأكرم ﷺ فإن المتلقّي أيضا شُرِّف بالقرآن الكريم.
- صار التعبير بضمير الجمع الدال على التفخيم، كقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾[1] و﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[2].

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) سورة الكوثر: الآية ١.

٢ ـ إن هناك حقيقة ملفتة في هذه السورة، وهي أنها تبدأ بذِكر إنزال القرآن الكريم، وكان السياق الطبيعي أن يستمر الحديث عنه، وإذا بالسياق يتوجّه دفعة إلى ليلة القدر، كما لو قلت: أنزلت ضيفا عظيما في المكان الفلاني، وبدلا من ذِكر عظمة الضيف، تذكر خصوصيات ذلك المكان!

وعليه، فلو صدر مثل هذا القول من قائل حكيم لاستُفيد منه أن الغرض الأولي كان متعلقا ببيان عظمة المكان، لأنك اخترت ضيفا عظيما للنزول فيه، وهذا ما حصل في هذه السورة؛ لأن السورة أرادت أن تقول: إن من موجبات عظمة ليلة القدر، أنها أصبحت ظرفا زمانيا لإنزال القرآن الكريم.

٣ ـ لا يخفى أن الليل له مزية من بين الأزمنة، ومن هنا صار ظرفا لتلك الليلة المباركة دون النهار، ففيه يتوجّه الله تعالى إلى خاصة أوليائه، ليغشّيهم بأنوار جلاله.

وممّا يلاحظ في القران الكريم أن الله تعالى أقسم بالفجر والعصر مرة واحدة، ولكنه أقَسَم بالليل في سبعة مواضع كقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾(١) ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾(٣) وقد ذَكر تعالى

(١) سورة التكوير: الآية ١٧.
(٢) سورة المدثر: الآية ٣٣.
(٣) سورة الفجر: الآية ٤.

أوصاف المؤمنين في الليل إذ ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١] ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾[٢] وهم ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾[٣] ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[٤] و﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٥] وقد واعد الله تعالى كليمه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[٦] كما أسرى بحبيبه ليلا[٧].. كل هذه الأمور تدل على قابلية الليل لتحمل كل هذه البركات.

٤ ـ إن القرآن الكريم غالبا ما يستعمل صيغة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ في الأمور الغائبة عن الحس من مفردات يوم القيامة: كذِكر ﴿سَقَرُ﴾[٨] و﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾[٩] و﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾[١٠] و﴿الْقَارِعَةُ﴾[١١] و﴿ما الْحُطَمَةُ﴾[١٢] و﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[١٣].

---

(١) سورة الذاريات: الآية ١٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٣.

(٤) سورة الإنسان: الآية ٢٦.

(٥) سورة المزمل: الآية ٢.

(٦) سورة البقرة: الآية ٥١.

(٧) سورة الإسراء: الآية ١.

(٨) سورة المدثر: الآية ٢٧.

(٩) سورة المرسلات: الآية ١٤.

(١٠) سورة الانفطار: الآية ١٧.

(١١) سورة القارعة: الآية ٢.

(١٢) سورة الهمزة: الآية ٥.

(١٣) سورة القارعة: الآية ١١.

وعليه، فإن ذِكر ﴿لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ في هذا السياق، يجعل تلك الليلة كأنها ملحقة بعالم الغيب رغم أنها من عالم الشهود، وذلك لعدم قدرة الخلق على استيعاب حقيقة تلك الليلة، كعدم قدرتهم على استيعاب حقائق البرزخ والقيامة الغائبة عن الحس.

٥ ـ إن عظمة ليلة القدر تتجلى في أمور، منها:

- أنها ظرف زماني لنزول القرآن الكريم، وهي بدورها أيضا مظروف لأفضل الشهور؛ أي شهر رمضان المبارك.
- أنه قد تكرر ذِكر ليلة القدر ثلاث مرات في السورة الواحدة، بدلا من الاكتفاء بالضمير الراجع إليها.
- مخاطبة المولى لنبيه الأكرم ﷺ بقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أي لم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها، فكان الأمر خارج عن فهم عقول عامة الخلق!

٦ ـ إن الله تعالى أراد ـ برأفته الغامرة ـ أن يعوّض الأمة الخاتمة بسبب قصر أعمارها وتقاعس بعض أفرادها تعويضا جزيلا، فجعل لهم ليلة هي خير من ألف شهر، فقد روي أن رسول اللهّ ﷺ رأى أعمار الناس، فاستقصر أعمار أمته[1]، وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغته سائر الأمم، فأعطاه اللهّ تعالى ليلة القدر؛ وهي خير من ألف شهر لسائر الأمم!

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ج٣٢ ص ٢٣١.

وليس من المعلوم أن تكون الآية بصدد المساواة بين تلك الليلة والألف شهر بل قد تفوقه الفضل، فقد ذَكر الله تعالى أن هذه الليلة هي خير، ولم يبين قدر الخيرية ومقدار مضاعفتها، بل جعل الحد الأدنى لمقدار التفاضل هي الشهور الألف.. وهذا كقول النبي صلى الله عليه وآله عن ضربة علي عليه السلام عند مبارزته لعمرو بن عبد ود: «**لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق؛ أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة**»[(١)].

٧ ـ إننا سواء جعلنا القدر هنا بمعنى:

- الشرافة: كقوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[(٢)].
- تقدير الأمور فيها: كقوله تعالى ﴿جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾[(٣)].
- الضيق: إذ تضيق الأرض بملائكة السماء كقوله تعالى ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾[(٤)].

فإنه يدل إجمالا ـ بأيٍّ من المعاني المذكورة ـ على عظمة تلك الليلة من: جهة ذاتها، ومن جهة الملائكة النازلة فيها، ومن جهة المقدّرات التي تنجز فيها.. ومن المعلوم أنه من مجموع ذلك تُفهم عظمة الخالق وكرمه، الذي يمنّ

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب: ج٣ ص ١٣٨.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٧.

(٣) سورة طه: الآية ٤٠.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٧.

بمثل هذا العطاء في سويعات قليلة من ليلة واحدة .

٨ ـ إن التعبير عن ليلة القدر بأنها ﴿لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[١] يُفهم منه أن الله تعالى يُنزل فيها من البركة ما يمنح الحياة الباطنية للعبد في تلك الليلة ، كما يهب الحياة الظاهرية للأرض الميتة بقوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً﴾[٢] فالمحروم هو الذي لم يتعرّض لهذه البركة الغامرة في الوجود ولم ينتفع منها.

ولعل هذه المباركة الإلهية هي السر في دبيب النشاط في عامة العباد تلك الليلة ، رغم تكاسلهم في باقي الليالي حتى من الشهر الكريم .

ولا يخفى أن البركة ذات درجات فما ينزل مثلا من البركات على صاحب الأمر عليه السلام لا يعقل أن ينزل على غيره، فلا تنبغي القناعة بدرجة من درجات التوفيق في تلك الليلة المباركة .

٩ ـ إن من موجبات تحقق شرافة ليلة القدر ، أن الله تعالى ـ وهو الذي تحققت مشيئته على تنزيل القرآن الكريم تدريجيا طوال فترة الدعوة ـ تعلقت إرادته أيضا بإنزال هذه المعاني العظيمة كلها في ليلة واحدة على قلب المصطفى صلى الله عليه وآله ويا له من قلب عظيم !.. إذ تحمّلَ نزول هذا القرآن بأكمله دفعة واحدة ، وهو الذي كان يكابد نزول آية واحدة ؛ إلى درجة كان يُرى أثر ذلك في وجوده الشريف .

---

(١) سورة الدخان : الآية ٣.

(٢) سورة ق : الآية ٩.

١٠ ـ إن طبيعة البركة متعدية إلى ما يجاورها ، فهو تعالى يقول عن نبيه عيسى عليه السلام ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[١] وعن موسى عليه السلام ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٢] وشهر رمضان المبارك ـ بالإضافة إلى بركته كشهر لله تعالى ـ فإنه قد بورك أيضا بليلة القدر لأنها صارت جزءاً منه ، فتعدت البركة منها إلى الشهر الكريم.

وقياسا عليه نقول : إن بركات ليلة القدر تتعدى أيضا إلى ذوات المؤمنين ، وذلك لمن كان أهلا لتلقّي ذلك الفيض الأعظم .

١١ ـ إن خيرية ليلة القدر قياسا إلى ألف شهر ، قد تكون بلحاظ الأعمال ـ كما قيل غالبا ـ وقد تكون بلحاظ الذوات وهو الأهم ، فتتعلق البركات بنفس الفاعل لا إلى ذات الفعل فحسب!

بمعنى : إن الفرد قد يكتسب من القرب إلى الحق والكمال في عالم الأرواح ، ما لا يكتسبه في ألف شهر من المجاهدة والسعي ، وفي هذا كمال الإغراء لأهله الذين يبحثون عن كمال الذوات لا الأفعال .

١٢ ـ إن تقدير الأمور في ليلة واحدة كما يُفهم من آية أُخرى أيضا وهي ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٣] لمن موجبات اضطراب العبد الذي يريد السلامة في الدين والدنيا ، وهذا بدوره من موجبات شحذ الهمة

---

(١) سورة مريم : الآية ٣١.

(٢) سورة النمل : الآية ٨.

(٣) سورة الدخان : الآية ٤.

للعمل على جلب خير المقدرات لنفسه، قبل جفاف قلم التقدير في ساعة الفجر، وخاصة عند اللحظات الأخيرة من انتهاء ليلة القدر الكبرى.

وعليه نقول: إن المقدرات الإلهية ـ وإن كانت نازلة من الغيب ـ إلا أن للعبد دورا في تغييرها أو تبديلها لما فيه الصلاح والإصلاح، وهذه القاعدة تجري في كل موارد ذِكر (من يشاء) في القرآن الكريم، فقد يراد من الفاعل فيها هو (العبد) كما في قوله تعالى ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[1].

١٣ ـ إن ممّا يثير التساؤل عند ذِكر مضاعفة الأجر ليلة القدر، هو أنه كيف يتم الجمع بين هذه الآية وبين ما نعلمه من أن الأجر على قدر المشقة؛ فأين عبادة ألف شهر من عبادة ليلة واحدة؟!

والجواب عنه هو ما نجيب به عند تفسير البركات الكبيرة لكل منتسب صغير إلى الله تعالى مثل: تابوت موسى ﷺ، وقميص يوسف ﷺ، وحجارة الكعبة، وشهر رمضان المبارك، فنقول: إن الانتساب إلى الله تعالى يغيّر ماهية الأشياء والأفعال، وبما أن الله تعالى ـ وهو جاعل الخواص في الأشياء ـ جعل بلطفه هذه الخاصية المذهلة في ليلة واحدة؛ فلا غرابة بعدها أبدا وهو الفعال لما يشاء.

١٤ ـ إن ليلة القدر ليست مصيرية للبشر فحسب، بل لعامة الكائنات، فقد قيل: إن الله تعالى يقدّر فيها ما يكون في كل تلك السنة من

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

مطر، ورزق، وإحياء، وإماتة.

وعليه، فإن التقدير في تلك الليلة المباركة يتعلق بالحوادث الكونية بناء على أن القدر الإلهي يلفّ كل ما خلقه الله عز وجل، بمقتضى قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1] ولهذا يمكن القول بأن الذي يبالغ في الدعاء تلك الليلة، فإنه من المحتمل أن يكون دعاؤه دخيلا في تغيير مقدرات الكون من الزلازل والكوارث وغيرها، أضف إلى مقدرات الخلق من أخوانه المؤمنين، بل من عامة البشر الخارجين عن ملته أيضا.

١٥ ـ إن الله تعالى كان بإمكانه أن يمنّ علينا بتعيين ليلة القدر في ليلة واحدة، ليريحنا من هذا التحيّر في كل عام، ولكنه أخفاها ـ بحكمته البالغة ـ بعثا للعباد على الاجتهاد والعمل في أكثر من ليلة وقلوبهم بين الخوف من تفويتها، والرجاء بإدراكها، فلا يصاب مَن أدركها بالغرور والعجب، كما لا يصاب مَن فوّتها باليأس والقنوط، إضافة إلى ما في إبهام تلك الليلة من إضفاء شرافة زائدة، فإن ما غلا ثمنه لا يكون مبذولا متاحا لكل مريد!

وليُعلم: أن حكمة الإخفاء نراها في أمور أُخرى فهو تعالى أخفى:

- رضاه في الطاعات؛ حتى يرغبوا في كل الصالحات.
- غضبه في المعاصي؛ ليحترزوا عن كل الخطايا.
- وليّه فيما بين الناس؛ حتى يعظموا كل العباد.

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٩.

- الإجابة في الدعاء؛ ليبالغوا في كل الدعوات.
- الاسم الأعظم؛ ليعظموا كل الأسماء.
- الصلاة الوسطى؛ ليحافظوا على كل الصلوات.
- قبول التوبة؛ ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبات.
- وقت الموت؛ ليخاف المكلف من مفاجأة الموت له.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

١٦ ـ إن ظاهر قوله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ﴾ يقتضي نزول جميع الملائكة بمقتضى ذِكر الجمع المحلى بالألف واللام، وقد وقع المفسرون بعدها في حيرة حول كيفية اجتماع هذا الجمع العظيم من الملائكة في ليلة واحدة، فمن قائل[1]: بأنها لا تنزل إلى الأرض وإنما تبقى في السماء الدنيا، ومن قائل[2]: إنها تتعاقب على الأرض أفواجا؛ فصح إطلاق نزول جميعها في ليلة واحدة.

ومن المعلوم: أن تصوّر هذا الحشد من الملائكة، يوجب انبهار العبد وسعيه في أن يكون أفضل عامل في تلك الليلة، إذ قد يحظى بسلام كل هذا الجمع بل بدعائهم.

---

(١) التبيان في تفسير القران: ج١٠ص٣٨٦.

(٢) مفاتيح الغيب: ج٣٢ ص٢٣٣.

١٧ ـ إن عطف الروح على الملائكة، يُشعر بقانون التفاضل في عموم الخلق، فكما أن الله تعالى فضّل الرسل بعضها على بعض؛ فإنه أيضا جعل التفاضل بين سكنة العرش، فجعل الروح معطوفا مستقلا على الملائكة، واختُلف فيه فقيل عنه أنه :

- ملَك عظيم لا شبه له .
- طائفة خاصة من الملائكة لا تنزل إلا ليلة القدر .
- جبرائيل الذي وصِف بقوله تعالى ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾[1] .
- إشارة إلى المسيح عليه السلام حيث قال الله تعالى عنه ﴿عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْه﴾[2] ليطّلع على أعمال أمة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله ؛ فيرى عظيم العمل الصادر من أتباعه، وعلى رأس تلك الأعمال عمل خاتم الأوصياء المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف .

١٨ ـ إن هناك ارتباطا وثيقا بين هذه السورة وبين مبدأ الولاية، وذلك لأن ليلة القدر ثابتة في كل العصور ـ كما هو المحقق ـ ويترتب عليه تنزل الملائكة فيها بالمقدرات، ومن المعلوم : أن لكل متنزِّل متنزَّلا عليه، ومَن يكون ذلك سوى مَن لولاه لساخت الأرض بأهلها والمتمثل

---

(١) سورة النحل : الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الإنسان : الآية ١٧١ .

بالمعصوم عليه السلام في كل عصر؟!

ومن هنا أمكن أن نعد هذه السورة من سور الولاية، وجوهرها إرجاع الأمة إلى الثقل الآخر للقرآن الكريم.

١٩ ـ إن نزول الملائكة إلى الأرض رغم كونه راجحا في بحد ذاته، إلا أن الأمر لا بُد له من إذن إلهي، وهذه طبيعة الملائكة التي لا تسبق ربها بالقول ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1] وقد لا تخلو الآية من إشارة إلى أن الملائكة وكأنها مشتاقة لزيارة الصالحين من هذه الأمة، وعلى رأسهم الولي الأعظم عجل الله فرجه كما هم شوق آخر لزيارتهم في الجنة قائلين ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[2] فطبيعة الزائر القاصد للزيارة تلازم الشوق للقاء المزور، وإن كان ذلك بأمر مَن لا يمكن مخالفته.

٢٠ ـ إن جميع العناصر الدخيلة في قوام ليلة القدر مرتبطة بالله تعالى بنحو من أنحاء الارتباط: فإنها واقعة في شهر الله، والذي أنزل فيه كتاب الله، وذلك على رسول الله، على يد ملك من ملائكة الله، لهداية عباد الله تعالى.. فعناصر هذه الليلة مصطبغة كلها بألوان إلهية، ومن هنا اكتسبت هذه المزية والشرافة.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٧.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٤.

٢١ ـ إن عظمة القرآن الكريم، تتجلى في احتمال كلماته ـ بل حروفه ـ لمعان متغايرة، ومنها ما اختلف فيه العلماء حول تفسير ﴿مِن﴾ في قوله تعالى ﴿مِن كُلِّ أَمْرٍ﴾.. فقيل:

- إنها بمعنى (باء الملابسة) ففيها بيان لما ينزل في تلك الليلة.
- إنها بمعنى (السببية) أي أن هذا النزول بسبب كل أمر إلهي، ويفسره قوله تعالى ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾[1].
- إنها بمعنى (التعليل) أي لأجل تدبير كل أمر من الأمور الكونية الحادثة[2].

٢٢ ـ إن ما يُبطل أثر السِلم والسلامة في حياة العبد هي النفس الأمارة من جهة، والشيطان الغوي الرجيم من جهة أُخرى، ومن المعلوم أن دورهما يتحجّم في ليلة القدر:

- فأما الشياطين: فهي مغلولة عموما في الشهر الكريم وخصوصا في ليلة القدر، إذ لا مجال لبسط سلطانها مع بسط سلطان الملائكة، التي تملأ الآفاق في تلك الليلة.
- وأما النفس: فهي أيضا مُروّضة بالصيام في مجموع الشهر وفي خصوص ليلة القدر، فإنها محاطة بهالة من التقديس الإلهي الذي يلاحظه عامة الخلق في أنفسهم، ومن هنا كانت تلك

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠ ص ٣٣٢.

الليلة سلاما إلى مطلع الفجر .

٢٣ ـ إن السلام في ليلة القدر قد يكون باعتبار :

- نفس الليلة : فوصفت بالسلام لما فيها من السلامة من الآفات المانعة من قبول الأعمال ، ولا يخفى ما فيه من التأكيد كقولنا : فلان عدل ؛ للتأكيد على أنّه عادل .

- تسليم الملائكة على بعضها أو على المؤمنين ، أو أنها تأتي لتسلّم على النبي صلى الله عليه وآله وخليفته المعصوم.. وقد روي عن علي عليه السلام : **«أنهم ينزلون ليسلّموا علينا ، وليشفعوا لنا ، فمن أصابته التسليمة ؛ غُفر له ذنبه»** [١] .

---

(١) مفاتيح الغيب : ج٣٢ ص٢٣٣.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

١ ـ إن كلمة ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ إنْ كانت بمعنى :

- التبيين : أي تبيين جماعة الكافرين ؛ فإن الآية تكون ناظرة إلى حالهم قبل الدعوة ، فهم جميعا كفار سواء كانوا ممّن قبلوا كتابا سماويا ظاهرا حال كونه محرفا واقعا ، أو لم يقبلوا بكتاب أصلا كعبّاد الأوثان .

- التبعيض : فإنها تكون ناظرة إلى حالهم بعد الدعوة ، فالآية موبخة لذلك القِسم الذي بقي على كفره وضلاله .

٢ ـ اختلف التعبير عمن أُنزل إليهم الكتاب ، فعُبّر عنهم بـ﴿أَهْلِ الْكِتابِ﴾ تارة ، وبـ﴿أُوتُوا الْكِتابَ﴾ تارة أُخرى ، وعندئذ يقال في الفرق

بين التعبيرين:

- بأن المراد من أهل الكتاب هم أتباع الديانات السماوية المعهودة، ومن هنا عطفهم على المشركين وهم عباد الأوثان.
- وأن المراد بـ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ مَنْ أُنزل إليهم الكتاب بمعنى: توجّه الخطاب إليهم كما في قوله تعالى ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ وأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُم﴾[١] فالحديث فيها إنما هو عن عامة الناس الذين أُرسل إليهم الرسل.

ولكن النتيجة عند عدم تقبّل الهدى الإلهي كانت واحدة، ألا وهو التفرّق عن الهدى، سواء كان هذا التفرق في ضمن ديانة سماوية واحدة كما في قوله تعالى ﴿وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ولِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي ورَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾[٢] أو لم يكن في ضمن ديانة واحدة كما في قوله تعالى ﴿وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٦٣-٦٥.

بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ومِنْهُمْ مَنْ كَفَر﴾[1] .

٣ ـ إن من الموارد التي كثُر فيها الاختلاف بين المفسرين، هي الآية الأولى من هذه السورة إلى درجة قيل: إنها من أصعب الآيات القرآنية نظما وتفسيرا!.. ومن هنا لزم للمتأمل في القرآن الكريم، أن يكون واجدا لدرجة من الفطنة والتسديد لحل مشكلاتها.

وليعلم أن كلمة ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ هي التي أثارت هذا الغموض، وذلك لعدم ذِكر متعلقها أولا، ثم لو جعلنا متعلقها هو (الكفر) كما يظهر، فمعنى الآية: أنهم سينفكون عن كفرهم بعد مجيء البينات، والحال أنهم بقوا على كفرهم بعدها، بل ازدادوا عنادا ومواجهة للرسالة كما قال تعالى في آية لاحقة ﴿وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ فقيل في الجواب عن ذلك وجهان:

- الأول: إن المراد منها هو عدم الانفكاك عن القاعدة العامة السارية في الأمم، والتي يبينها قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[2] و﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[3] وتفسير البينة بإرسال الرسول المشار إليه في الآية اللاحقة يتم في هذا السياق، إذ كانت الحجة

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٥.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٥.

تامة عليهم بإرسال ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ ولكنهم بعد إتمام هذه الحجة تفرّقوا بعدها بين منكر ومعترف، ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾[١].

- الثاني: إنهم كانوا يدّعون عدم انفكاكهم عما كانوا عليه، إلا إذا جاءتهم البيّنة الصارفة لهم عمّا هم فيه، ولكن بعد مجيء البيّنة تفرّقوا عن الإيمان الموعود به، وبعبارة أُخرى: بعد تحقق واقع ﴿جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وبعد أن علّقوا الإيمان بمجيئها ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ لم يلتزموا بإتباع هذه البيّنة، بل تفرّقوا عنها.

٤ ـ إن الحديث عندما يكون عن النبي ﷺ فإنه حديث عمّن يحمل صفتين:

- الأولى: وهي أنه صاحب ﴿الْبَيِّنَة﴾ الواضحة، وهي ملازمة للحجة المنجّزة، فصارت كل أقواله وأفعاله واقعة في هذا السياق.
- الثانية: أنه يتلو ﴿صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ والتي لا يصل إليها الباطل من تحريف البشر ومس الشياطين، والمشتملة على التعاليم

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٩.

المكتوبة على العباد مثل قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[(١)] و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾[(٢)] و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾[(٣)] و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾[(٤)] والتي تقوم بمصالحهم خير قيام بتمامه وكماله ـ كما تفيده تاء المبالغة في كلمة القيّمة ـ قيام القيّم بأمر اليتامى .

٥ ـ إن الآية عدَلت عن تسمية أهل الكتاب باليهود والنصارى وإنما ذكرتهم بقيد إيتاء الكتاب ، ليكون ذلك مزيدا من الإدانة لهم ، فلا عذر لهم بعدما تمت عليهم الحجة من خلال كتبهم السماوية غير المحرفة ، والتي من ضمنها البشارة بنبي آخر الزمان ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[(٥)].

وينبغي الالتفات إلى عظمة النبي ﷺ المتجلية من خلال هذه الآيات ، إذ يستفاد منها أن مَن لم يؤمن به ﷺ كان في عداد مَن لم يؤمن بالله تعالى أصلا أو جعل له شريكا ؛ فمصيرهم جميعا إلى النار ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

وهذا هو السر أيضا في عدم ذِكر الاسم الصريح للنبي ﷺ بل ذُكر

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٠ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٧٨ .

(٥) سورة الصف : الآية ٦ .

بوصف الرسالة ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فهذا تعظيم له، كما كان قيد إيتاء الكتاب إدانة لغيره.

٦ ـ إنه من الممكن القول بأن السر في عدم ذِكر المشركين عطفا على ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في آية (التفرّق) بينما ذكروا في صدر السورة: هو أن الحديث إنما هو عن التفرّق والتحزّب شِيَعا وفِرَقا، وهذا ممّا يعقل تحققه في أصحاب الفكر والدين المدوّن ـ ولو كان باطلا ـ وأما المشركون فهم دون هذا المستوى من الانقسام إلى فئات وجهات، لبساطة معتقدهم بل لسخافته، فلا معنى لذِكر تفرقهم على ما لا قوام له!

٧ ـ إن هناك فرقا بين مَن يعبد الله تعالى (طمعاً) في جنته أو (خوفاً) من ناره، وبين مَن يعبد الله تعالى (مخلصاً) له، طالباً رضاه وإن علم لاحقا أن جزاءه عند ربه ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فمثَله في ذلك كمَن يغتسل لله تعالى وإن كان يعلم أن أثره إزالة الغبار عن بدنه، فالعلم بالأثر لا ينافي الإخلاص في العمل، بل المنافي هنا إنما هو قصد الأثر.
وليُعلم أنه قلّ مَن وصل إلى هذه الدرجة التي عَبّر عنها الله تعالى بصفةٍ اسمية قائلا ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ولم يعبّر عنها بحركةٍ فعلية أي يخلصون.

٨ ـ إن روح الديانات السماوية إنما هي روح واحدة، تتمثل ـ بعد الإيمان بالله تعالى وبالنبي المرسل في كل عصر ـ بالعبادة المتصفة بقيدين:
- الإخلاص ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فما كان لغير الله تعالى لا يُسمى عبادة حقا، وإن كان مشتركاً مع العبادة الصحيحة في

صورتها.

- مجانبتها للإفراط والتفريط وهو معنى ﴿حُنَفَاءَ﴾ أو من لوازمها إن فسّرناه بالاستقامة، فإن الرهبان في النصرانية جانبوا الاعتدال، فأفرطوا في العبادة المدّعاة لأنفسهم، تاركين ما عليهم من الواجبات تجاه الغير: كمقارعة الظالمين، وخدمة المحرومين.

ومن المناسب أن نعلم أنه قد روي عن النبي صلى الله عليه وآله في نفي مثل هذه الرهبانية: «**إن لكل أمة رهبانية، وإن رهبانية أمتي: الجماعات، والجمعات، وتعليم بعضهم بعضا شرائع الدين**»[1].

٩ ـ ما من ريب أن جزئيات الشريعة تختلف من شريعة إلى شريعة، ولكن المشترك فيما بينها ـ على ما يُفهم من آيات القرآن الكريم ـ هي الصلاة والزكاة كقوله تعالى ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ وقوله تعالى ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[2] طبعا مع اختلاف الشرائع في جزئيات تلك العبادتين.

ولعل السر في هذا الاشتراك: إن الصلاة تنظم العلاقة بين العبد وربه، والزكاة تنظم العلاقة بينه وبين خلقه، والصلاة فيها مجاهدة باطنية من التوجه القلبي إلى الله تعالى، والزكاة فيها مجاهدة خارجية من قطع التعلق

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص١١٥.

(٢) سورة مريم: الآية ٣١.

بالمال، ويجمعهما الانقطاع إليه في كل ما أمر المولى به، ليكون العبد كالطريق المعبّد الذي لا يعيق السائر فيه.

وليعلم أن مجموع ما في الشرائع، ينطبق عليه التعبير بـ ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾، سواء بمعنى:

- دين الكتب القيمة: فيكون إشارة إلى كل الكتب السماوية.
- خصوص دين النبي الخاتم ﷺ: لأن شرائعه قائمة بمصالح العباد.
- أن الدين ذو قيمة: لما فيه من المعاني السامية.

١٠ ـ إن روح الآيات الواردة في هذه السورة المباركة شاهدة على عالمية الدعوة الإسلامية، وأن الأديان السابقة وإن كانت حجة على أهلها قبل ظهور الإسلام، إلا أنه مع إرسال النبي الخاتم والشريعة الخاتمة، لم يبق مجال لأي دين غير الإسلام.

ومن هنا لا ينبغي الانبهار بأي إنجاز ديني أو إنساني خارج إطار الإسلام الحنيف، لما ورد من قوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[1] فإن قبول الأعمال منوط بالتقوى، ولا معنى للتقوى إذا كانت الحركة في غير الجادة التي أرادها الله تعالى، وإن كان الفعل حسنا في ظاهره.

١١ ـ ينبغي التأسي بخُلُق من أخلاق الله تعالى ممّا هو مذكور في هذه

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.

السورة؛ ألا وهو عدم مؤاخذة الغير إلا بعذر: فلا نؤاخذ الجاهل أولاً، وإن آخذناه فإننا نؤاخذ المقصر من الجاهلين، وإذا آخذنا المقصّر منهم أخرجناه من جهالته.

وذلك أن الله تعالى لم يؤاخذ عباده إلا بعد إتمام البيّنة الواضحة من صحف مطهرة نزلت بتعاليم قيّمة، بمعنى: (قائمة بمصالح العباد)، أو بمعنى: (الاستقامة بلا اعوجاج) عكس ما عليه الشرائع البشرية والقوانين الوضعية، لما فيها من مخالفة الفطرة السليمة، وتفويت مصالح العباد الواقعية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

١٢ ـ إن الله تعالى في هذه السورة، قدّم الوعيد على الوعد، فذكر جزاء ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ثم أردفها بجزاء ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ولعل السر في ذلك: أن مصب الآيات في أول السورة، ما كان عليه أهل الكتاب والمشركين من الباطل، فكان الأنسب في مقام بيان الجزاء ذِكر ما هو متعلق بصدر السورة.

أضف إلى أن منزلة الوعيد بالنسبة إلى الوعد، كمنزلة الدواء إلى الغذاء:

فلا بُد من الردع ممّا يضر أولا ، ثم الحث على ما ينفع ثانيا .

١٣ ـ إن العبد إذا جمع ـ من خلال مدرسة الأنبياء ـ بين الإيمان والعمل الصالح ، صار ممّن يقال في حقه بصدق : إنه خير مَن خلق الله تعالى على أرضه ، بناء على أن وصف البرية شامل لكل مخلوق بما في ذلك الملائكة لأنها من ضمن من برأه الله تعالى ، والمستفاد من النصوص أن بعض الخلق خير من الملائكة ، وقد يكشف عن ذلك أمر الله تعالى بالسجود لآدم ﷺ ولم يُبعث بعدُ بالرسالة ، وذلك لما كان فيه من قابلية التكامل والصعود إلى مرحلة تفوْق الملائكة!

ومن الممكن أن نجعل آية الإشارة إلى خير البرية وشرها ، تنويها على قوسي الصعود والنزول في الخلق ، نظير ما ورد في سورة التين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[١] .

١٤ ـ لا يخفى ما في التعبير بـ(عند) من لطف في قوله تعالى ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وذلك لأن ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ هم الذين حصروا طمعهم فيمَن عنده مثل هذا الجزاء ، ولا يعنيهم ما عند غيرهم من الجزاء الفاني!

كما يمكن تفسيرها بمعنى : أن جزاءهم بمثابة الوديعة عند أمين ، يُرجعها لهم في وقت يكون صاحبُها في أشد الحاجة إليها!

وهذا الإحساس بـ(عندية) الجزاء عند الله تعالى ، يبعث حالة من الارتياح

---

(١) سورة التين : الآية ٤-٥.

عند المؤمن، فلا يستعجل في الدنيا ثمار عمله ـ ولو كانت مزية معنوية ـ لعلمه بأن ما هو المدّخر له عند ربه؛ يغنيه عن كل مزية عاجلة.

١٥ ـ إن من أهم مقوّمات الجنة هي صفاتها المتمثلة بـ﴿عَدْنٍ﴾ أي الاستقرار والإقامة ﴿خالِدِينَ﴾ و﴿أَبَداً﴾ والدالة بجميعها على الخلود فيها، وهناك آيات أُخر تؤكد على هذه الحقيقة، وهي ﴿لا يُخْرَجُونَ مِنْها﴾ و﴿وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ﴾[1] و﴿لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا﴾[2] بل قيل: إن الخلود خير من الجنة، إذ قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الخلود في الجنة خير من الجنة!.. ورضا الله خير من الجنة**»[3]؛ لأنه لولا هذا الخلود لما تهنّأ متهنئ بها، إذ إن ألم العلم بانتهاء أمد النعمة لا يجبره عظيم لذتها!

١٦ ـ كما أن الإنسان مخلوق من جسد وروح، ولكل منهما حظه في الدنيا، فإن لهما أيضا حظا في الآخرة، فحظ الجسد فيها هو الجنة الموصوفة في هذه السورة وغيرها بأنواع النعيم الحسي من الحور والقصور، وأما حظ الروح فيها فهي رضا الرب المتعال ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ والمتمثل بجنة القرب الإلهي.

والملفت هنا: إن الله تعالى لم يذكر صفة الربوبية عند ذكر رضاه عمّن وصفهم بـ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ بل ذَكر لفظ الجلالة والذي يُعدّ من أعظم الأسماء

(١) سورة الحجر: الآية ٤٨.
(٢) سورة الكهف: الآية ٤٨.
(٣) مفاتيح الغيب: ج٣٢ ص٢٥٢.

دلالةً على الهيبة والجلالة، فهو الاسم الدال على الذات والصفات بأسرها؛ أي صفات الجلال والإكرام.

١٧ ـ إن غاية الكمال تتمثل في الوصول إلى مرحلة يرضى فيها العبد عن ربه، ويُرضى العبد فيها ربه عنه؛ وهي مرحلة (النفس المطمئنة) التي أشير إليها في قوله تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[1] وقد ذكرت آية ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أن الطريق إلى ذلك الرضا المتبادل بين العبد وربه، هي خشية الرب وهو الخوف المقترن بالتعظيم، كما قال تعالى عن الملائكة ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[2].
وقد ورد التعبير نفسه بالنسبة إلى العباد المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[3] وهذه الخشية مترشحة من العلم، لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[4] إذ إن الإحساس بعظمته ومراقبته هي الرادعة عن كل قبيح، وباعثة لكل خير.
وليُعلم: إن هذه الحالة من الرضوان هي خير نعيم في الجنة بل رحيقها، وهو جزاء مستقل في قبال الجنات، حيث ذُكر قبال الجنة في قوله تعالى ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ﴾

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٧-٢٨.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ٥٧.
(٤) سورة فاطر: الآية ٢٨.

ومن المعلوم أن مَن كان واجدا لهذه الصفة في الدنيا ، كان متنعما في الدنيا بأعلى نعيم في الجنة ولو بدرجة من درجاته!

١٨ ـ عندما يسند القران الكريم الخشية إلى العلماء في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١) فانه يستعمل لفظ الجلالة المشير إلى مقام الذات بكل أبعاد الجمالية والكمالية ، وهو المناسب لمقام العلم الذي به تدرك الأوصاف والمقامات الربوبية ، ولكن عندما يسند الخشية إلى عامة المؤمنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كما في هذه السورة ، فانه يشير إلى صفة الرب وذلك في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ إذ أن للربوبية القاهرة والمدبرة دورا في إيصال هؤلاء إلى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وبذلك كانت خشيتهم مرتبطة بمقام ربوبيته .

---

(١) سورة فاطر : الآية ٢٨.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.

١ ـ إن التركيز على القيامة وما يجري فيها من الأهوال هو سمة من سمات القرآن الكريم، وذلك عندما يُراد سوق العبد إلى العمل الصالح ليتمّ الربط دائما بين العمل في الدارين، وهذه السورة واقعة في هذا السياق حيث تبتدئ بذِكر القيامة وأهوالها، ثم تُختم بذِكر تجسّم الأعمال في تلك النشأة، ليكون العبد على حذر في أول الطريق لئلا يفاجأ بالخواتيم.
والمطلوب في المحصّلة النهائية لهذه السورة هو انبعاث العبد نحو العمل الدؤوب، فلا يستصغر قليلا من الخير ـ ولو بمقدار ذرة ـ فلعله هو المنجّي، ولا يستصغر قليلا من الشر فلعله هو المُهلك، إذ به قد ترجح كفة السيئات كما هو الحال في عالم المثاقيل والموازين.

٢ ـ إن الزلازل ـ في نظر عامة البشر ـ من أهم المخوّفات الأرضية من جهة الدمار الذي يخلّفه في ثوان معدودة، ومن هنا استعمل القرآن الكريم خصوص هذه الظاهرة لبيان ما يجري يوم القيامة، كأول حدث من

أحداث خروج البشر من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[١] و﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾[٢]!

ولكن التعبير عن هذا الزلزال كان بـ﴿زِلْزالَها﴾ المشعر بأنه زلزال خاص متعلق بالأرض ادّخره الله تعالى لذلك اليوم، وهو لا يختص ببقعة من البقاع كما في زلازل الدنيا، بل هو منسوب إلى الأرض أجمع؛ فكان أبلغ في بيان الهول والفزع!

٣ ـ إن ما في جوف الأرض من كنوز أو أبدان أو الأعم منها ـ على اختلاف التفاسير للأثقال ـ لا يعدو كونه ثقلا في جوف الأرض، بلا فرق بين الكنوز الصامتة، وبين الأبدان التي كانت من أدوات التحكّم في هذه الأرض يوما ما، وكم يرتاح حامل الثقل عندما يُلقي ثقله جانبا، مُخرجا إياه كما في قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها﴾!

ولا يخفى ما في هذه العبارة من الدلالة على أن المعاد جسماني أيضا، ولا يختصّ بالأرواح كما قد يذهب إليه البعض.

٤ ـ إن البعض جعل التعجّب المستفاد من قوله تعالى ﴿ما لَها﴾ خاصّا بغير المؤمنين، نظير ما في قوله تعالى ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا﴾[٣] والحال أن أحداث ذلك اليوم توجب فزع كل من يخرج دفعة واحدة من القبر إلى

---

(١) سورة القمر: الآية ٧.

(٢) سورة القارعة: الآية ٤.

(٣) سورة يس: الآية ٥٢.

أرض المحشر وفيها ما فيها من الأهوال، وهو ما يناسب التعبير بـ﴿الإنسان﴾ عمّن يتساءل عن زلزال الأرض.

ولكن هذا كله لا ينافي ارتفاع الفزع عن بعض الخواص مطلقا، أو في بعض مواقف المحشر، حيث يقول تعالى ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[١].

٥ ـ قيل في تفسير آية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها﴾ وجوه: فمن قائل بأنها بلسان الحال، ومن قائل بخلق الصوت مقارنا لها، ومن قائل بأنها تتحدث حديث ذوي الشعور، وهو ظاهر الآية المؤيدة بآيات أُخرى كقوله تعالى ﴿وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٢] وقوله ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٣].

ومن المعلوم ـ على كل الوجوه ـ أنه لا شبهة في شهادتها، إذ إنه لا يعقل أن تجر الأرض نفعا إلى نفسها أو تدفع ضررا عنها، كما هو المتوقّع في بعض شهود الدنيا، أضف إلى أن شهادة الأرض تبع لشهادة من أحاط علمه بكل شيء.

ولنا أن نتساءل هنا: بأنه إذا كانت الأرض لها قابلية الاستلهام وتلقي الوحي إلى درجة الحديث عن تفصيل الحوادث؛ فكيف بقابلية البشر إن أراد الله تعالى له ذلك؟!

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٣) سورة فصلت: الآية ٢١.

٦ ـ إن التعبير بـ﴿تُحَدِّثُ أَخْبارَها﴾ فيه إشعار بأن الحديث فيه شيء من التفصيل، وليست الشهادة على إجمالها، فإن الأرض ـ مثلا ـ لا تشهد على أصل إقامة صلاة المصلي عليها، وإنما على دفعاتها، وأين كانت، وكيف كانت!

ومن هنا أُمرنا بالصلاة في مواطن متعددة، فقد روي عن علي (عليه السلام) أنه قال: «**صلوا المساجد في بقاع مختلفة؛ فإن كلّ بقعة تشهد للمصلّي عليها يوم القيامة**»[1]، وعنه (عليه السلام) أيضا حينما كان يفرغ من تقسيم بيت المال يصلي ركعتين ويقول: «**اشهدي أنّي ملأتك بحق، وفرّغتك بحق**»[2].. وقد روي أيضا أن النبي (صلى الله عليه وآله) قرأ يوماً قول الله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال: «**أتدرون ما أخبارها؟.. قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أخبارها: أن تشهد الأرض على كل عبد أو أَمَةٍ بما عمل على ظَهْرِهَا، فتقول: يا رب!.. لقد عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا**»[3].

ومجموع هذه الأحاديث توجب خجل العصاة يوم القيامة؛ لأن ما كان ـ بنظرهم ـ جامدا صار شاهدا على من يُفترض أنه خليفة الله تعالى في الأرض.

---

(١) وسائل الشيعة: ج ٥ ص ١٨٨.

(٢) لئالئ الأخبار: ج٥ ص٧٩.

(٣) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٧٩٨.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

٧ ـ إن صدور الناس أشتاتا يوم القيامة تابع لما ورد في آية أُخرى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾[(١)] ومن المعلوم أن تشتت الناس يوم القيامة، لا يعني أنهم جميعا في حالة واحدة، لوضوح أنه ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[(٢)] فلا مانع من خروجهم متفرقين، ولكن تحت رايات مختلفة بحسب مَن تولوا في الحياة الدنيا؛ فإن مَن تولى حجرا حشره الله تعالى معه.

ولا يخفى ما في التعبير بـ ﴿يَصْدُرُ﴾ من اللطف، وهو الذي يُطلق على انصراف الإبل عن الماء بعد وروده، فكأنهم في دار الدنيا كانوا على غدير ماء، والآن تركوا هذا الغدير، ليُعلم مَن ارتوى من ذلك الغدير ممّن مكث عنده عاطشا، وهذا يُؤيد بما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أيها الناس!.. إن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل**»[(٣)].

٨ ـ إن الشرط عند البيان يُساق لبيان جوابه، وللتأكيد على ذلك الجواب في بعض الحالات، فيكون وزانه وزن القَسَم في ذلك، وقد يُحذف الجواب والقَسَم لإثارة التأمّل ثم البحث عنهما، لعناية المتكلم بمورد

---

(١) سورة الليل: الآية ٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧١.

(٣) الكافي: ج ٨ ص٥٨.

القَسَم والشرط، وهذا واقع في القرآن الكريم وفي هذه السورة أيضا.

فهناك مَن يقول بحذف جواب الشرط في ﴿إِذا زُلْزِلَتِ﴾ وقد دل عليه السياق يعني ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾[1] مثلا، وبين مَن يقول إن الجواب هو ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً﴾ وبين مَن يقول أنه ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها﴾.

٩ ـ إن آية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ فيها من صور التخويف والردع ما لا يخفى على المتأمّل، وقد روي عن النبي ﷺ أنه عَبّر عن هذه الآية بالجامعة[2]، فالآية فيها:

- إطلاق يشمل جميع المكلفين حتى الأنبياء؛ لأن الموضوع فيه (مَنْ) الموصولة المنطبقة على كل مكلف.
- جعلت الموضوع في العمل ما تناهى في الدقة وهي الذرة، وهو ما يُرى في شعاع الشمس من الهباء، وتقال لصغار النمل أيضا.
- جعلت المداقة في جانب الخير والشر معا، وكرم الكريم وصفحه لا ينافي تلك المداقة، وذلك لئلا يتجرأ المتجرؤون على المعصية.
- جعلت النتيجة رؤية العمل إما بنفسه ـ بناء على تجسّم الأعمال ـ أو بجزائه، فعدل عن التعبير بالإعلام إلى الإراءة في هذه الآية،

---

(١) سورة الواقعة: الآية ١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٨ ص ٤٤٠. ومسند أحمد: ج٢ ص١٦٩.

كما عدل عن التعبير بالعلم إلى الوجدان والرؤية في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوء﴾[١].

١٠ ـ لا منافاة بين هذه الآية الناطقة بمطابقة الجزاء للعمل ولو كان بمقدار مثقال ذرة، وبين ما يدل على حبط العمل في جانب محو الحسنات ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٢] وكذلك ما يدل على التكفير في جانب محو السيئات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[٣] وذلك لأن الآية تذكُر القانون العام في محاسبة الخلق، ولا ينافيه جعْل قانون آخر يتحقق به الاستثناء، فهو ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[٤].

ومن الممكن القول كتوجيه آخر في المقام: إن إحباط الله تعالى عمله في الآخرة، كاشف على أنه لم يفعل الخير أصلا؛ لأن الخير هو ما استقر في خيريته إلى يوم الجزاء، لا ما كانت فيه صورة الخير بنظر القاصرين من العباد!

١١ ـ إن تذكّر أهوال يوم القيامة، يكفي للردع عن المعصية لمن كان له

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٣) سورة هود: الآية ١١٤.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

كمال اليقين بغيب الآخرة، ومن هنا عُبّر عن الموت بـ(**هادم اللذات**)[1] فكيف بما هو أعظم من الموت؟!.. وقد روي: «**أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إلى النَّبِيّ عليه وآله فَقَالَ: عَلِّمْني مِمّا عَلَّمَك اللهُ. فَدَفَعَهُ إلى رَجُل يُعَلِّمهُ؛ فَعَلَّمَهُ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ -حَتَّى إِذَا بَلَغَ- ﴿فَمَنْ يَعْمَل مِثْقَال ذَرَّة خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَل مِثْقَال ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ﴾ قَالَ: حَسْبِي!.. فَأُخْبِرَ النَّبِيّ عليه وآله فَقَالَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ قَدْ فَقِهَ**»[2].

---

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام: (**أكثروا ذكر الموت؛ فانه هادم اللذات**) الأمالي للصدوق: ص٢٦٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٢ ص١٠٧.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

١ ـ إن محور القَسَم في هذه السورة المباركة، هي حالات وحركات مركب المجاهدين من الخيول العادية من جهة: أصواتها عند العدو، وما توريه حوافرها من النار، ومباغتتها للأعداء صباحا، وإثارتها للغبار عند ركضها، ودخولها وسط القوم عند إغارتها.

وحينئذ نقول إذا تحقق القَسَم بمركب يركبه المجاهدون في سبيل الله تعالى؛ فكيف بذواتهم؟!.. أوَ هناك تقدير أعظم من هذا التقدير؛ أي القَسَم بما يركبه مَن يُراد تعظيمه؟!

٢ ـ إن سراية العظمة من العظيم إلى بعض متعلقاته الفاقدة للعظمة بذواتها لولا انتسابها، لها شواهد متعددة في القرآن فمنها: قميص

يوسف ﷷ ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾[١] وتابوت موسى ﷷ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٢] وناقة صالح ﷷ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾[٣] ومنها ما في هذه الآية من خيول المجاهدين، إلى درجة يُقسِم الله تعالى فيها بحافر ذلك المركوب الذي تنقدح منه النار عند الجري ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾.

٣ ـ إن مدح صفة الإغارة صبحاً ـ لكونها في سياق القَسَم ـ يدل على مطلوبية مباغتة العدو فإن الحرب خدعة.. ومن المعلوم أن من سبل المباغتة هي الإغارة الصباحية : فلا هو ليل دامس ؛ لئلا يرى الإنسان عدوه، ولا هو صبح مسفر ؛ ليكون العدو على أهبته!

إلا أن الأمر لا ينحصر بهذا المصداق من الاستعداد لقهر العدو، إذ لا بُد من السعي لكل ما يوجب الغلبة على الأعداء، ومنه إعداد القوة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[٤] ولا يخفى أنه لا خصوصية للخيول المذكورة في هذه السورة، بل المراد كل قوة يواجه بها الأعداء ولو لم يكن خيلا، وهو الواضح أيضا من عدم إرادة رباط الخيل، في آية إعداد

---

(١) سورة يوسف : الآية ٩٦.

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٤٨.

(٣) سورة الشمس : الآية ١٣.

(٤) سورة الأنفال : الآية ٦٠.

القوة المذكورة.

٤ ـ ذهب البعض إلى أن المراد بما أقسَم عليه في هذه الآيات، هي إبل الحجاج المتنقّلة ما بين عرفات ومنى والمزدلفة، وهو مروي عن أمير المؤمنين عليه السلام[1]، وعلى هذا التفسير فإن الآيات تبيّن عظمة الحجاج من ناحية، وعظمة هذه البقاع من ناحية أُخرى، فبذلك تحقق قَسَم بمركوب يحمل راكبا شريفا في بقعة شريفة.. ومن هذا المورد وأشباهه، يُعلم أن القرآن حمّال ذو وجوه.

٥ ـ إن وجه الارتباط بين القَسَم والمُقْسَم عليه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ خفي نوعا ما، فمن الممكن القول: إن وجه المناسبة بين كفورية الإنسان وخيول المجاهدين، هي:

- المقارنة بين فئة تبذل أغلى ما عندها ـ وهي النفوس ـ في خدمة الدين، وبين مَن يستأثر بمال الله تعالى الذي أُودع عنده أمانة إلى حين الرجوع إليه، حال كونه كنودا كافرا به وبأنعمه، فصار تكريم خيول هؤلاء ـ بالقَسَم عليه ـ تعريضا بهم، وكأنهم دون هذه الخيول بمراتب في الفضل عند الله تعالى!
- إن تشريع الجهاد لمواجهة أصحاب هذه النفوس السقيمة المترديّة بكفرها، فصارت هذه الآيات تحقيرا لهم، حيث

(١) تفسير نور الثقلين: ج٥ ص ٦٥٦.

تعرضوا لإذلال الفاتحين لهم بالنصر عليهم، بسبب ما هم عليه من النقص والضلال.

٦ ـ إن هناك مجموعة من الصفات المرتكزة في باطن الإنسان قد ذكرها القرآن الكريم مثل: الظلم والجهل ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾[١] والهلع ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[٢] والجزع ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾[٣] واليأس والكفر ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾[٤] والطغيان ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾[٥] والضعف ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[٦].

وقد ذكرت هذه السورة خصلة من هذه الخصال الباطنية، وجعلت الموضع لها هو الإنسان بما هو إنسان لم يتربَّ بتربية الأنبياء عليهم السلام؛ ألا وهي (الكفران) مسبوقة بأداة التأكيد (إنّ) وكذلك اللام المؤكدة.

ومن المعلوم أن مثَل هذه الخصال في النفوس، كمثل البذور في الأرض التي تنتظر ما يُنبتها، فمن دون مجاهدة وسبر لغور النفس، وتصفيةٍ لها ممّا هي فيها؛ فإن هذه الخصال منابت لسيئات الأعمال بمقتضى طبيعتها.

٧ ـ إن من موجبات تشديد مؤاخذة العبد يوم القيامة؛ علمه بما هو

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

(٢) سورة المعارج: الآية ١٩.

(٣) سورة المعارج: الآية ٢٠.

(٤) سورة هود: الآية ٩.

(٥) سورة العلق: الآية ٦.

(٦) سورة الإنسان: الآية ٢٨.

فيه من الشرور لقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ بناء على ارجاع الضمير إلى العبد لا إليه تعالى، فكأن هذا الكفور الكنود تجاهل ما هو فيه من العيب مجاراة لهوى نفسه، وذلك لأن المشي على خلاف ما تقتضيه تلك الصفة ـ كالبخل مثلا ـ يحتاج إلى مجاهدة ليسوا هم من أهلها، وبذلك كانت الحجة عليهم أبلغ!.. ونظير هذه الآية في بيان حقيقة علم الإنسان بنفسه قوله تعالى ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[١].

٨ ـ إن هذه السورة فيها حقائق تمسّ عالم الباطن من: كنودية الإنسان، وحبه الشديد للخير، وأن العبد عالم بها في نفسه وإن كابر وأنكر.. كما تمسّ عالم الغيب من جهة أُخرى، وهو: انكشاف خبيرية الله تعالى للعباد يوم الجزاء.

ومن هنا ناسب أن يكون هناك: قَسَم في البين لتقبّل هذه الحقائق غير الظاهرة للحسّ، وتأكيدٌ في كل هذه الموارد بكلمة (إنّ) والجملة الاسمية وحرف (اللام) التي تفيد التأكيد.

٩ ـ إن الآية عبّرت عن المال بأنه خير، كما في قوله تعالى في موارد أُخرى ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾[٢] وقوله ﴿وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾[٣] وهذا التعبير قد يكون بلحاظ:

---

(١) سورة القيامة: الآية ١٤-١٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٣) سورة المعارج: الآية ٢١.

- ادعائهم، وذلك بالقول بأن المال هو الخير لهم؛ فكل استمتاع في الدنيا إنما يتحقق بهذا المال.
- الواقع، فإن المال بنفسه ـ بل الدنيا بأكملها ـ لا عيب فيها بل هو مادة للخير، وإنما يتحقق الشر من وراء حبه ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾(١) فيلهيه عن الله تعالى، فيصبح فتنة ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(٢) وعدوا ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾(٣).

والدليل على إن الإلهاء ليس من ذاتيات المال: إن نبي الله سليمان عليه السلام أوتي المال الكثير، ولكن من دون أن يوهن عزمه في طريق العبودية لله تعالى، وسيؤتَى المهدي الموعود عجل الله فرجه أيضا من المال ما لا يخطر بالبال، حيث تُخرج الأرض كنوزها، وتُنزل السماء قطرها.

١٠ ـ إن الحديث عن أبدان الخلق في عالم القبور، يشبه الحديث عن الجمادات فيها، ففي آية ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(٤) نستشعر أن الأبدان شأنها شأن باقي دفائن الأرض، تلفظها الأرض وكأنها استراحت منها!.. وقد ورد في هذه السورة أيضا التعبير بـ﴿بُعْثِرَ﴾ وهي إثارة الأرض

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٨.

(٣) سورة التغابن: الآية ١٤.

(٤) سورة الزلزلة: الآية ٢.

لإخراج ما فيها، كما يعمل الفلاح لإخراج ما نبت في باطنها.

وعليه، فإنه من الممكن القول: إن هذه الأبدان لا شرافة لها بنفسها، وإنما المعوّل على الأرواح المصاحبة لها، فهي كالبذرة في السنابل تُراد بنفسها، وإلا فبعد خروجها منها بالحصاد، فإن القشرة تُرمى جانبا تذروها الرياح أو تحرقها النيران.

١١ ـ إن الله تعالى خصّ الصدور بالذكر عند الحساب ﴿وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ﴾ ولم يذكر الجوارح؛ لأن نسبتها إلى الصدور نسبة المعلول إلى العلة، فكانت الصدور أولى بالذِكر.

ومن هنا نقول: بأن المنجي واقعا يوم القيامة ـ والذي عليه مدار الحساب ـ هو القلب السليم كما ذُكر في قوله تعالى ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١].

وعليه، فإن مَن يزيّن جوارحه بالطاعات، ولا يصلح جوانحه بالملكات الصالحات؛ سوف يرى أن المحصّل من صدره ـ على ما وعدت به الآية ـ ليس ممّا يُسر به العبد يوم القيامة!

ومما يؤيد محورية العمل الجوانحي قوله تعالى ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[٢] فجعل موطن الإثم هو القلب، وقوله تعالى ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[٣] فجعل مرض القلب سببا لإثارة الشهوة عند التعامل مع

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٨٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

النساء، وقوله تعالى ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾[(١)] وإلا فما قيمة الدماء المسالة في منى إذا لم يحقق التقوى؟!.. وقوله تعالى ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[(٢)] فالقلب المتقي يصدر منه الورع الجوارحي، ومنه تعظيم الشعائر الإلهية بكل صورها وقوله تعالى ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(٣)] فجعل ثمرة الصيام رجاء تحقق التقوى، ومن المعلوم ان التقوى أيضا حالة في القلب.

١٢ ـ إن الله تعالى عالم خبير بكل أفعالنا حين صدورها بل قبل صدورها بمقتضى علمه بالغيب، وعلمنا بهذا العلم الإلهي لمن موجبات إتقان العمل، إلا أن الآية الكريمة ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ تجعل ظرف هذا العلم الإلهي مرتبطا بيوم القيامة، والحال بأن علمه تعالى لا زمان له، فكيف يتم التوفيق بين الآية والواقع ؟!

والجواب عن ذلك ـ بعد القول إن الآية لا تنفي العلم في غير ذلك الوقت ـ هو إن القيامة ليست ظرفا لأصل العلم؛ وإنما لتجلي أثر هذا العلم المتمثل بالجزاء، ومن المعلوم أن الربط بين هذا العلم في دار الدنيا وأثره في دار الآخرة من موجبات الارتداع عن المعصية إن وجد إيمان راسخ باليوم الآخر!

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٧.

(٢) سورة الحج: الآية ٣٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

ونظيره في ذلك قوله تعالى ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[١] والحال أن ملكه أبدي لا زوال له فكيف ارتبط بذلك اليوم ؟! فنقول فيه أيضا : إن المراد هو المُلك المحقّق الذي يقرّ به جميع المماليك.

وينبغي الالتفات إلى أن متعلق العلم الإلهي؛ هي ذواتهم ﴿بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ لا أفعالهم وهذا أبلغ في بيان الإحاطة؛ لأن من أحاط بالذات أحاط بالفعل، وليس العكس!

---

(١) سورة غافر : الآية ١٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾.

١ ـ إن سياق الحديث عن القارعة التي تقرع القلوب والأسماع يوم القيامة، تشبه سياق الحديث في سورة الحاقة حيث يقول تعالى ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾[1] ففيها استفهامان: الأول بنحو بسيط يعني: السؤال عن حقيقة هذا المبتدأ الذي ذُكر أولا لإثارة الانتباه، والآخر بإضافة كلمة ﴿أَدْرَاكَ﴾ يعني: وأي شيء يدريك ما حقيقة هذا المبتدأ؟!.. فكان أبلغ في بيان التفخيم، وكأنّ ما ورد في هذه السورة وأمثالها لا يكفي لبيان الحقيقة كما هي.

٢ ـ ورد التعبير بـ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ في أكثر من عشرة مواضع من القرآن

---

(١) سورة الحاقة: الآية ١-٣.

الكريم، وورد التعبير بـ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ في ثلاثة مواضع، وقيل في الفرق بينها: إن الأول في مواضع يريد الله تعالى أن يُدري نبيه ﷺ ما أثار السؤال حوله، وأما في الثاني: فإنها في موارد أراد الله تعالى أن يطوي عنها، ويعرض عن الإجابة عنها، فكان تصريحا حقيقة بعدم الدراية بها وإدراك العقول لها، كما في مورد الحديث عن القيامة قائلا ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[1].

والملفت حقا في عموم القرآن الكريم: إن الله تعالى لم يخاطب العقول بشكل مجرد من أدوات الإثارة، وهذا درس لنا نحن أيضا في عدم الاكتفاء بالخطاب المباشر، الخالي من أي مثير وجداني.

٣ ـ إن الآية الكريمة ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ تصف أهوال القيامة، والمتمثلة في كون الناس كالفراش أو الجراد على التفسيرين:

- إما من جهة (ضعف) هذه المخلوقات؛ فهما معدودان من الحشرات، فلا يعبأ بعددها وإن كان مبثوثا أو منتشرا ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[2] وهو الغوغاء الذي يركب بعضُه بعضا.
- أو من جهة (عشوائية) هذه الحشرة حتى قيل: كتهافت الفراش في النار، في أنها لا تقصد عند طيرانها جهة بعينها ولو إلى النار!.

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٧.

(٢) سورة القمر: الآية ٧.

فأهل المحشر يحشرون كغوغاء الجراد في حال ضعف، ومن دون هدف بعينه.. والطامة الكبرى أن المشبّه به في هذه الآية ـ وهي الحشرات التي لا يُعبأ بها ـ أحسن حالا من كثير من الناس الذين ما حققوا الهدف من خلقتهم!

٤ ـ أشارت آيتا وصف الناس بالفراش المبثوث، والجبال بالعهن (أي الصوف الملون) المنفوش (أي المندوف) إلى حالة زوال الاستقرار الذي يراه الناس في الحياة الدنيا.. وعليه، فإن الإشارة تكون إلى حالة طبيعية وأُخرى اجتماعية:

- فالأولى: متمثلة بالجبال الرواسي ذات الألوان المختلفة، لقوله تعالى ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[1] فيزول استقرارها بأن تتحول إلى عهن منفوش.
- والثانية: متمثلة بالمجتمع البشري المستقر والمتحكم بجوانب الأرض، وإذا بالقارعة التي تقرع البشر تزيل استقرارهم فتحولهم إلى فراش مبثوث.

وفي هذا درس للجميع لعدم التعلق بما هو زائل، ولخصوص المؤمنين لعدم الاعتداد بما سواه والذي يؤول إلى ما ذِكر، ويجمعهما التعبير بـ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2].

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٧.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٦.

٥ ـ جرى الحديث عن القيامة في قالب القَسَم وغيره في سبعين مورد في القرآن الكريم، وفيه دلالة واضحة على مصيرية الاعتقاد به كأصل من أصول الدين أولا، والالتفات التفصيلي إليه في حركة الحياة ثانيا كعنصر مُذكر باللقاء الإلهي!

وذلك لأن مشكلة القرب إلى الله تعالى تتمثل في الغفلة تارة، وغلبة الهوى تارة أُخرى؛ وكلاهما يرتفعان أو يحددان بتذكر النهاية المشتركة المحتومة لكل البشر، حيث تنتهي كل اللذات وتبقى كل التبعات، ومنها ما في هذه السورة من صور التأكيد.

٦ ـ إن الثقل والخفة لا توصف بهما الأوزان وما يوزن به فحسب، بل إن كل ما له شأن وقدر من الممكن أن يُجعل معيارا في عالم الأوزان، ومن هذه الأوزان (الحق) كما قال تعالى ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١] فصار الحق وحدة من وحدات ما يوزن به العمل.

وعليه، فإن ما ورد في هذه السورة من ذِكر الثقل في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ﴾ يفيد أن أصحاب العيشة الراضية، هم ممّن كان سعيهم في دائرة الحق.. لذا، ينبغي للعبد اجتناب كل ما ينطبق عليه الباطل سواء في تعامله مع نفسه كالغناء مثلا، أو مع غيره كأكل ماله بالباطل، وبعبارة جامعة: فإن الحق هو كل ما تعلق بالله تعالى، والباطل هو كل ما ارتبط

(١) سورة الأعراف: الآية ٨.

بسواه ﴿ذلك بِأَنَّ اللّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِل﴾[١] .

٧ ـ ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام أن ما يوجب ثقل الموازين يوم القيامة (الصلاة على محمد وآل محمد) وهي تدخل في سياق مودة ذوي القربي، أضف إلى أنها من مصاديق الدعوة المستجابة، فأي دعاء أقرب للإجابة من طلب إنزال البركات على أشرف الخلق؟
وليُعلم أن الموازين في هذه السورة يمكن إطلاقها على نفس الأعمال أي الموزون، لا على ما يوزن به وهو الميزان، ومن هنا ناسب التعبير عنها بصيغة الجمع .

٨ ـ إن الإسلام دين الواقعية لا المثالية، فلا يراد من أحدنا أن يتمحض أعماله في الخير محضا، فهذا لا يناله إلا المعصوم عليه السلام ، إذ إن لازمة تركّب الإنسان من النفس اللوّامة والأمارة أن يستقيم تارة، ويخرّ أُخرى.
ومن هنا عُبّر عن الجزاء يوم القيامة بوصف الميزان خفة وثقلا ﴿وأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ الذي فيه كفة راجحة وأُخرى مرجوحة، فالمهم في ختام الأمر أن تثقل كفة الحسنات ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ﴾ كما عبّرت عنه الآية الكريمة .

٩ ـ إن ما يوجب هناءة العيش، هو أن يكون صاحبها راضيا عن عيشته رضاً بحق، ومن هنا وصف الله تعالى به أهل الجنة، لأن سخط

---

(١) سورة الحج : الآية ٦٢.

الإنسان على نفسه أو على عيشته من أشد العذاب النفسي على صاحبه، فهو يوجب ملامة لا تنقطع أبدا، ومن المعلوم أن ما يوجب هذه الحالة في الآخرة هو سلوك العبد في الدنيا.

وعليه، فإن ما يعيشه أهل الجنة غدا من العيشة الراضية ـ باعتبار صاحبها ـ يعيشها المؤمن فعلا في دار الدنيا لأنه لا يرتكب فيها ما يوجب سخط ربه، وبذلك يعيش ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ في الدنيا والآخرة.

١٠ ـ إن التعبير عن جهنم بـ﴿فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾ يوحي وكأنها بمثابة الأم لأصحابها من جهة:

- الانتساب العميق لأهل جهنم إليها، فهؤلاء كأنهم أولاد النار خرجوا من بطنها فعادوا إليها.
- ومن جهة أن الولد يأوي في الشدائد إلى أمه، وهؤلاء لا ملجأ لهم يومئذٍ إلا أمهم المتمثلة بالنار.

هذا إذا فسرنا الهاوية بجهنم باعتبار من يهوي فيها، وأما إذا جعلناها وصفا لأم رأس الذي يهوي في نار جهنم، فيكون المعنى: إن صاحبه يهوي بدماغه في نار جهنم وهو أبلغ في الإذلال، لأنه يسقط بأشرف جزء من جسده، أضف إلى ما في كلمة الهاوية من معنى التردّي.

ومن الممكن أن نجعل ارتباطا بين أم الرأس وبين الناصية الكاذبة؛ أي يكون الكذب والخطيئة من موجبات هذا الهويّ في نار جهنم.

١١ ـ إن الآيات الأولى من هذه السورة بدأت بـ﴿وَما أَدْراكَ﴾ لذِكر

أهوال يوم القيامة، إلا أنها أعادت التعبير نفسه بالنسبة إلى خصوص جهنم، فقالت ﴿وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ﴾ فكان الأمر تعظيما في ذِكر تعظيم؛ أي تعظيم أمر جهنم في ضمن ذكر عظائم يوم القيامة.

ومن الملفت هنا إن الآية تصف النار بأنها حامية، وهو أمر بديهي لكل أحد إذ لا يُعقل سوى ذلك، ولكن الآية كأنها تريد أن تقول: بأن النار الحامية حقيقة، هي هذه النار الأخروية قياسا إلى نار هذه الدنيا، وكأنها غير حامية!

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

١ ـ إن القرآن الكريم جعل فاعل الإلهاء هو التكاثر، وكأن التكاثر صار بمثابة المتحكم في الوجود الإنساني، فبدلا من أن يكون الإنسان هو السائق لنفسه في الجهة التي يريدها، فإن الأمور الاعتبارية ـ كتوهّم الجاه بالأولاد والأموال ـ تصبح سائقة له!

وعليه فإن الحل الجامع، هو مجاهدة النفس لإخراجها من دائرة سيطرة الأوهام والعقد، إلى حالة الزهد بما هو في الخارج ـ وهو المورث للعزة الباطنية ـ بدلا من تركه، وقد روي أنه: «**ما من رجل تكبّر أو تجبّر إلا لذلة وجدها في نفسه**»[1].

٢ ـ إن طلب الكثرة ثم الفخر بما طلبه المتكاثِر، يكون عادة في

---

(١) الكافي: ج ٢ ص٣١٢.

الأموال والأولاد، ولكن النفس ـ التي لا تشبع ـ من الممكن أن يتعلق حب كثرتها في أمور أُخرى: كالعمر ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١] والمسكن ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾[٢] والأطعمة ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[٣].

وبعبارة جامعة: فإن الآية الأولى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أبهمت متعلق التكاثر، ليشمل كل صور الالتهاء بالدنيا ممّا ذكر وغيرها، وإن كانت الآية الثانية ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ تشير إلى خصوص التكاثر بالأولاد.

٣ ـ إن على المعتقد بيوم الجزاء، تجنّب كل ما يلهيه عن التزوّد لذلك العالم الآخر، فإن حقيقة المُلهي هو ما يشغلك عما هو أهم، ولازمة هذا التعريف: إن الانشغال عن الأهم بالمهم يُعدّ أيضا في دائرة اللهو وإن لم يلتفت صاحبه إلى ذلك، لعدم وضوح اللهوية فيها.

وكم ينطبق هذا التعريف على كثير من النشاط الدائب لأهل الدنيا في دنياهم ـ وإن لم يشعروا بذلك ـ ما دام ذلك السعي لا يرتبط بالأبدية والخلود!.

٤ ـ إن التكاثر المذموم في هذه السورة، قد يكون ناظرا إلى:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٩٦.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١١٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٦١.

- نفس التكاثر في جانب الأولاد والأموال فتكون الكثرة بنفسها مذمومة؛ لأنه من مصاديق الالتهاء بنفس المتاع، طبعا خرج من ذلك مَن لم يلهه شيء عن ذِكر الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1].
- التفاخر والتباهي بالكثرة المدعاة ولو لم تكن متحققة؛ فيكون الذم لهذه الحالة النفسية التي يعيشها هذا الواهم، فيلتهي بذلك أيضا عن آخرته، فملاك الالتهاء فيهما واحد، سواء تحقق شيء في الخارج أم لم يتحقق.

٥ ـ قيل[2] في تفسير قوله تعالى ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أن مفهوم الخطاب الإلهي، هو أن التكاثر ألهاكم في هذه الدنيا إلى ساعة الموت، حيث زرتم فيها المقابر بمعنى زيارة مَن يُراد دفنه، ولكن الأجلى من هذا التفسير: هو أن البعض شغله التكاثر والفخر بالرجال إلى درجة أخذ يذهب إلى المقابر، ليضيف الأموات إلى عداد الأحياء؛ تكثيرا للعدد عند تحدّي الغير!

فكم هو سخيف بني آدم عندما يجعل ملاك التفاضل في الموهوم؛ إذ إن كمال الحي لا علاقة له بكمال حي آخر، فكيف إذا كان صاحبُ الكمال ميتا؟!.. وكيف إذا لم يكن في البين كمال أصلا كتفاخر أهل الجاهلية، كما

---

(١) سورة النور: الآية ٣٧.

(٢) الميزان في تفسير القران: ج٢٠ ص٣٥١.

قيل[١] في شأن نزول هذه الآيات؟!

٦ ـ إن ترك ذِكر المتعلق في قوله تعالى ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وإبهامه، يدل على عظمة ما سيعلمه المتكاثر من الجزاء يوم القيامة، وفي هذا كمال التخويف لصاحبه، وخاصة إن الله تعالى كرر الردع بـ﴿كَلاَّ﴾ أكثر من مرة في هذه السورة المباركة!
وليُعلم أن الآية ذكرت جزاء ولكن بنحو الإجمال، فقالت ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ من دون تفصيل لأنواع العذاب، كما في باقي السور الكريمة، وهذا أبلغ في التهديد كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾[٢] حيث لم يذكر ما يجري عند الوقوف على الله تعالى في هذه الآية.

٧ ـ إن الآية الكريمة جعلت الموجب للردع عن الالتهاء بالتكاثر، هو ذلك العلم اليقيني الذي لا يخالطه ريب، وقيل في تعريفه: «**إنه الاعتقاد الجازم المطابق الثابت الذي لا يمكن زواله، وهو في الحقيقة مؤلف من علمين: العلم بالمعلوم، والعلم بأن خلاف ذلك العلم محال**»[٣].
وعليه، فإن ما عدا هذا العلم لا يكفي لأن يكون رادعا كعبادة الجاهلين، فإن من لا علم له لا خشية له، ومن هنا ارتفعت درجة العلماء على العُبّاد

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠ ص ٣٥٣.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٠.
(٣) الميزان في تفسير القران: ج ٢٠ ص٣٥١.

والزهاد.

٨ ـ إن العلم ـ وخاصة إذا وصل إلى مرحلة عالية من اليقين ـ يكون حجة على صاحبه، فإنه من أهم البواعث على التخلص من مكدرات الباطن.. لذا فقد عدّه المولى ـ في ختام السورة ـ أداة لكسر حالة التكاثر والتفاخر المذكورين في صدر هذه السورة، فإذا لم يحقق هذا العلم مثل هذه النتيجة صار موجبا للحسرة والندامة غدا، ومن هنا جاء وصف يوم القيامة بـ﴿ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾[1].

وليُعلم أن العامل في الدنيا وغير العامل فيها ـ عند الحسرة على حد سواء ـ ومثاله في ذلك كمثل مَن كان مع ذي القرنين لما دخل الظلمات فوجد خرزا، فالذين كانوا معه أخذوا من تلك الخرز، وعندما خرجوا من الظلمات وجدوها جواهر، فالذين أخذوا منها كانوا في غمٍّ إذ قصروا في الأخذ منها، والذين لم يأخذوا كانوا أيضا في غم إذ لم يأخذوا منه أصلا!.. فهكذا تكون أحوال أهل القيامة، عند النظر إلى ما فاتهم من الخير أيام الحياة الدنيا.

٩ ـ إن الرؤية في قوله تعالى ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ من الممكن أن نقول عنها بأنها رؤية القلب الذي من الممكن أن يرى حقائق هذا الوجود:

- إجمالا: كما يقع لعامة المؤمنين الذين يصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام)

---

(١) ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ سورة مريم: الآية ٩٦.

عند وصف يقينهم بالله تعالى قائلا: «**لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان**»[١].

- وتفصيلا: كما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام حيث يقول الله تعالى عنه ﴿وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ والْأَرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٢].

ويؤيد هذا التفسير: إن الله تعالى عطف على هذه الرؤية ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ تلك الرؤية الأُخرى في القيامة قائلا ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ وهي رؤية الحسّ بعدما كانت رؤية الباطن.

١٠ ـ إن لليقين درجات مترددة بين: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، ومثلوا لذلك: برؤية الدخان، ثم رؤية النار، ثم ملامستها.. فاليقين حاصل في الحالات الثلاث ولكن بتفاوت واضح في البين، وهذه الدرجات المتفاوتة لليقين منطبقة على اليقين بالآخرة: ففرق بين اليقين به في الدنيا ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ واليقين بها في الأُخرى ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.

فالمطلوب من أهل اليقين أن يصعّدوا من درجة يقينهم إلى ما يقرب من عين اليقين، وهو ما وقع للمتقين على ما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام قائلا: «**فهم والجنّة كمن قد رآها؛ فهم فيها منعّمون.. وهم والنار كمن قد رآها؛**

---

(١) نهج البلاغة: ٢٥٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٧٥.

فهم فيها معذّبون»[١].

١١ ـ إن الخطاب بـ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ وإن كان في سياق ذِكر أهل التكاثر، إلا أنه عام يشمل جميع من أنعم الله تعالى به على العباد وإن خصّه البعض بالنعم المعنوية؛ لأن الله تعالى أجلّ من أن يسأل عما ـأعطاه مثلاـ من الطعام والشراب، فإن هذا ينافي ما عليه كرماء أهل الدنيا، ويؤيد ذلك ما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال: «**الله أكرم وأجلّ من أن يطعمكم طعاما فيسوغكموه، ثم يسألكم عنه، ولكن يسألكم عما أنعم عليكم بمحمد وآل محمد** (صلى الله عليه وآله)»[٢].
والدليل على ذلك: إن سؤال خزنة النار من أهلها يوم القيامة، إنما هو عن أمر معنوي، ألا وهو إتيان النذير ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[٣].

١٢ ـ إن البعض ينظر إلى ما أُعطي من المتاع فيراها نعمة محضة، من دون أن يلتفت إلى أن نعمتية النعمة إنما تتم إذا صُرفت في طاعة الله تعالى، وإلا تحوّلت إلى نقمة على صاحبها، لأنها من موجبات المعاتبة أو المعاقبة بعد السؤال عنها يوم القيامة، حيث يقول تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

---

(١) نهج البلاغة: ٣٠٣.

(٢) الكافي: ج ٦ ص ٢٧٠.

(٣) سورة الملك: الآية ٨.

ومن المعلوم أن الطريق الأمثل لشكر هذه الأنعم، هو ما بيّنته الشريعة من خلال تشريعاتها المتعلقة بـ(الأبدان) كالصوم و(الأموال) كالزكاة أو (الأرواح) كالصلاة المعراجية أو (الحقوق) كصلة الأرحام مثلاً.

فعدم الالتفات إلى ما في الشريعة من أحكام قد يُوقع العبد في عكس ما ذُكر، ومن هنا كان الشاكرون لأنعم الله تعالى، هم الأقلون عددا ﴿قَلِيلًا ما تَشْكُرُون﴾[1]!

١٣ ـ إن البعض قد يتوهم وجود حالة من التنافي بين هذه الآيات الناهية عن التفاخر بالمال والولد وغيرهما، وبين الآية الدالة على التحدث بالنعم كقوله تعالى ﴿وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2].

والجواب عن ذلك: إن التحدث بالنعم ـ سواء بإظهارها خارجا أو الحديث عنها ـ يكون بهدف راجح: إما بإظهار الشكر عملا، أو لتشجيع الغير على التأسي به فيما أنعم الله تعالى عليه، وهذا يجانب تماما الفخر والتباهي الذي يعود إلى إتّباع الهوى، لا طاعة الهدى.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٠.

(٢) سورة الضحى: الآية ١١.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

١ ـ إن في هذه السورة ـ على قصرها ـ صورا من التأكيد، فهي تبتدئ بالقَسَم وهو من أجلى صور التأكيد، أضف إلى التأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ ثم التأكيد باللام، ثم استعمال الجملة الاسمية، ولعل السر في كل ذلك: إن المُقْسَم عليه في غاية الخفاء عند عامة الناس؛ ألا وهو حقيقة الخُسر المطبق على كل الخلق إلا مَن خرج بالدليل.

وعليه، فمَن لم يرَ في نفسه إيمانا وعملا صالحا كاملا بنحو القطع واليقين، اندرج تحت عموم الخُسر.

وبكلمة جامعة: فإن الخُسر لا يحتاج إلى دليل بخلاف عكسه، فمن شك في الاستثناء لزمه الخُسر الدائم ويا له من تخويف لمن كان له قلب!.

٢ ـ اختلفت الأقوال كثيرا في تفسير ﴿الْعَصْرِ﴾ بين مَن يقول:

- إنه وقت العصر من النهار، وهذا قَسَم في ضمن القَسَم بالأوقات الأُخرى المستوعبة لساعات اليوم الكامل من: (الفجر)، (والصبح)، (والنهار)، (والليل)، (والضحى).

- إنه إشارة إلى عصر زمني متميز، يتمثل بعصر النبي ﷺ وعصر الإمام المهدي ؑ؛ ففي الأول بدأت الدعوة، وفي الثاني يتجدد الدين بعد اندراسه.
- إنه إشارة إلى صلاة العصر، لكونها هي الصلاة الوسطى التي خُصّت بالذكر من بين الصلوات جميعا في قوله تعالى ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾[1].
- إنه إشارة إلى مطلق الزمان، وهو الظرف التي يتحقق فيه العمل وهو بدوره منشأ لكل خير وشر، كما أن ﴿لَعَمْرُكَ﴾[2] إشارة إلى خصوص زمان حياة النبي ﷺ.

٣ ـ لا يصح أن نطلق عنوان الخُسر على ما عدا الإنسان، فإن كل المخلوقات من البهائم وغيرها مسخرة لأمر شاءه خالقها لها، وهي تسير على هداها مصداقا لقوله تعالى ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[3] حتى لو كانت لدغة من أفعى، أو نهشة من سبُع ضار.

ولكن هذا العنوان لا ينطبق إلا على الإنسان الذي قد ينحرف عما رُسم له من طريق العبودية فيقع في الخُسر كما عبّرت عنه الآية، وبهذا يتنزل عن مستوى البهائم التي لا خسران في سعيها على كل حال.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣٨.

(٢) سورة الحجر: الآية ٧٢.

(٣) سورة طه: الآية ٥٠.

٤ ـ إن استعمال الحروف في القرآن الكريم تابع لأهداف القرآن ـشأنها في ذلك شأن الاسم والفعلـ والمتمثلة في تربية الإنسان تربية ربّانية، وهذا لا يتم إلا بالزجر والتخويف والوعد والوعيد؛ كل ذلك بحسب مقامه!

والملاحظ في هذه السورة ـبناء على هذه القاعدة في الحروفـ أن الله تعالى يعبّر عن الإنسان بأنه ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ فكأنه يشبّه الإنسان بمظروف منغمس في إناء الخُسر، فيحيطه الخُسر في كل مكان إحاطة ماء الإناء بما فيه، وهذه مبالغة في بيان الخسارة، ويا لها من مبالغة!

٥ ـ إن الخُسر ـكما فُسِّر في اللغةـ هو انتقاص رأس المال، ومن المعلوم أن رأس مال الإنسان يتمثّل في عمره، وهو في انتقاص دائم منذ أن ولدته أمه وهذه حقيقة بديهية.. فما تحوّل منه إلى زاد في آخرته، فإنه رأس مال ينتقل من عالم إلى عالم آخر، فلا خُسر في البين أصلا.

وأما لو فنيت ساعات العمر في ما يُسخط الله تعالى، ليشمل ساعات المعصية وترك الواجب؛ بل في غير ما يرضيه ليشمل ساعات الغفلة واللهو؛ فإنه هدرٌ لهذا المال لا نقلٌ له.. فكم هي بديهية الخسران المدلول عليه في هذه الآية؟!

٦ ـ إن هناك آثارا جليّة للإيمان والعمل الصالح ـويجمعها جميعا عنوان النجاة من الخُسرـ فمنها أن يحيا الإنسان حياة طيبة في الدارين لقوله

تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[1] والود عند الخالق والمخلوق ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[2] والدخول في الرحمة الإلهية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾[3].

٧ ـ إن النتائج في عالم الطبيعة لا تتحقق إلا بعد اجتماع جميع مقدماتها ؛ كالإحراق المستلزم لوجود النار والحطب وانتفاء مانع الإحراق ، والأمر كذلك في عالم الأرواح فإن الفوز فيه أيضا لا يتحقق إلا من خلال اجتماع هذه العناصر جميعا ، وهي ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا﴾ فأي خلل في أيّ من هذه المقدمات يوجب الخسران.

وعليه ، فإن الذي آمن وعمل صالحا بإطلاق الكلمة ، ولكنه ترك التواصي بالحق والصبر ؛ فإنه أخلّ بركن من أركان الخروج من الخسران.

ومن هنا ، فلا ينبغي لأهل العبادات في الخلوات ، والتاركين لأمر إصلاح العباد أن يُعجبوا بأعمالهم ؛ لأنه لا فرق في تخلّف الأثر عند ترك أي جزء من أجزاء ذلك المركب ، كما في مثال الإحراق .

٨ ـ كما أن هناك خسرانا وربحا نسبيين في تجارة الدنيا : فيُعد أحدهم رابحا قياسا لخاسر آخر ، وخاسرا قياسا إلى رابح اكبر ، فكذلك الأمر في

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٧.

(٢) سورة مريم : الآية ٩٦.

(٣) سورة الجاثية : الآية ٣٠.

تجارة الآخرة: فمَن يعمل ببعض الصالحات ويترك بعضها الآخر ـ كفسّاق المؤمنين ـ فإنه لا يحقق الفوز الأكمل، بل هو في خُسر نسبي قياسا إلى تارك جميع الصالحات، وهذا الاعتقاد من الممكن أن يحثّ البعض على العمل بباقي الصالحات، ليخرج من هذا الخُسر النسبي إلى فوز أكمل!

ولا يخفى أن هذه النسبية لا تتأتى في الإيمان، فمن له خلل في أصل إيمانه كمنكر النبوة ـ مثلا وإن اعتقد بالتوحيد ـ فإنه لا يُعد فالحا أبدا ويؤيده قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[1].

٩ ـ إن هناك فرقا بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين التواصي بالحق المأمور به في هذه السورة، فالأول قد يكون واقعا بين المؤمن والفاسق، كما قد يكون جهة واحدة: فهناك فرد آمر وناه، وهناك فرد آخر مأمور ومنهيٌّ.

ولكن التواصي قد يكون بين المؤمنين أنفسهم بل قد يكون بين خواصهم، فكل واحد منهم آمر ومأمور في الوقت نفسه، وذلك لأن العبد مهما بلغ من الكمال فإنه بحاجة إلى من يذكّره، والله تعالى هو القائل ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ومن الممكن القول في هذا المجال: إن التواصي له شعبتان:

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٠-١٥١.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٥.

- شعبة تتعلق بما يرتبط بالعلاقة مع الخالق، ويناسبه التواصي بالصبر على الطاعة والمعصية والبلاء.
- وشعبة تتعلق بالعلاقة مع المخلوق، ويناسبه التواصي بالحق لئلا يضيع حقٌ من أي ذي حق.

١٠ ـ إن النجاة من الخُسر تحتاج إلى عناية من الله تعالى؛ وذلك أن كل آنٍ من آنات الحياة لهي مفردة يمكن أن تتصف بالفوز أو الخسران، وأن العبد مهما بالغ في المراقبة والمحاسبة، فإنه لا يمكنه الانفلات من الغفلة في جميع هذه الآنات وخاصة مع الشياطين المتربصة بقلب بني آدم والحائمة حوله، والتي تلتقمه بمجرد الغفلة عن الذكر، وتخنس عند ذِكره لربه كما يفهم من بعض الروايات، ومن هنا لزم تحقق الفضل المتوجه إلى العبد ليبطل أثر هذه الغفلة، فإن وجود بعض آنات الغفلة يحقق عنوان الخسر ولو بلحاظ تلك الآنات القليلة.

ولذا، جاءت هذه الآيات مؤكدة على هذه الحقيقة ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1] ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾[2] ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

(٢) سورة النور: الآية ٢١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٦٤.

ومن المعلوم أنه بموازاة هذا الفضل الإلهي في دفع الخسران ، هناك التواصي بين العباد لدفع ذلك أيضا ، وهو ما ورد ذكره في هذه السورة .

١١ ـ ما من شك أن التواصي بالحق والصبر يندرج تحت العمل الصالح ، ولكنه خُصّ بالذِكر في هذه السورة لأنه يوجب تخفيف الخسران في الأعمار ، وهو أفدح من الخسارة في الأموال!

كما أن التواصي بالصبر يندرج ضمن التواصي بالحق ، إلا أنه خُصّ بالذكر لما في الصبر أيضا من ضمان لتقبّل الوصية بالحق ، فإن الوعظ والوصية ثقيلة على نفوس العباد ، وذلك لمنافاتها لمقتضى إنّية النفس وعدم الاعتداد برأي الغير .

١٢ ـ إن هذه السورة القصيرة تبيّن لنا فلسفة الوجود برمتها ، وذلك بالإشارة إلى :

- حركة الإنسان في الحياة ، وإنها في خُسر مستمر رغم أن ظاهر حركته هو التقدم والنمو .
- إن الخروج من هذا الأصل الأولي ، لا يكون إلا بالقرْن بين الإيمان والعمل الصالح في علاقة الإنسان مع نفسه .
- إنه لابُد من القرن بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر ؛ ليُضاف إلى وازعية دعوة الأنبياء للأمة وازعية الفرد لنفسه ، ثم وازعية المجتمع بعضهم لبعض ، وبذلك يتحقق التكامل البشري.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾.

١ ـ تكرر في القرآن الكريم ذكر كلمة (ويل) بصيغة النكرة، للدلالة على تعظيم التهديد والتوبيخ في سبعة عشر موردا، ويجمع متعلقها في جميع الموارد عنوان: الشرك والكفر كقوله تعالى ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1] والمخالفة الأخلاقية كالكذب والهمز واللمز كما في هذه السورة. والعبرة المستفادة من ذلك: إن الله تعالى يستعمل كلمة الويل ـ الدالة على التقبيح على أرذل الأمور الباطنية كالكفر ـ وذلك في الرذائل الخارجية المتمثلة بالمعاصي المذكورة في هذه السورة، والتي يستسهلها العصاة لكونها من مقولة الألفاظ كالهمز واللمز!

وعليه، فلا ينبغي الركون والارتياح إلى النفس عند التخلص من الخبث

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢.

الباطني مع وجود الخبث الخارجي.

وبعبارة جامعة نقول: إن التخلق بأخلاقيات الشريعة جزء أساسي منها كالالتزام بعقائدياتها، ومن هنا كان التهديد بالويل مشتركا فيهما.

٢ ـ قيل وجوه عدة في التفريق بين الهمز واللمز، ولكن الجامع بينهما هو ذِكر عيب الغير عموما، فينطبق على كل موارده ممّا كان بنحو الجد أو الاستهزاء، وسواء كان في أمر الدين أو الدنيا، وسواء كان بالقول أو بالفعل، وسواء كان بالحضور أو الغيبة.

والمفهوم إجمالا من هذه الآية وآية الغيبة[1]: إن مراد المولى هو التشنيع على مَن يذكر عيوب الناس من دون مسوّغ؛ لأنه يوجب الوهن في الغير، وتذكي روح العدوان في النفس، وتشغله عن إصلاح أمرها.

٣ ـ ما من معصية في الخارج إلا وتعود جذورها إلى الداخل: فالمتكبر لا يتكبر ـ كما روي ـ إلا لذلة يجدها في نفسه، والمطفف الذي أسند إليه الويل لا يأكل مال الغير إلا لحبه لجمع المال والمتاع، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الهماز اللماز الذي لا يلج في أعراض الخلق إلا لخسة ودناءة في نفسه، فإنهما والمغتاب قد لا يعود إليهم نفع في الدنيا، ومع ذلك يعرّضون أنفسهم لانتقام رب العالمين.

ومن الممكن أن نجعل عذاب المغتاب متوجها للهماز واللماز وكذلك

---

(١) ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوه﴾ سورة الحجرات: الآية ١٢.

العكس؛ لأن معصيتهم من سنخ واحد وهو تتبّع عيوب الآخرين وذكرها، وما من شك أن ذِكر النار وأهوالها من موجبات الارتداع عمّا ذُكر، لِـمن كان بناؤه على الارتداع، وهو ما خُتمت به هذه السورة المباركة.

٤ ـ إنه بالإضافة إلى الذم لعامة اللّمز ـ كما في هذه السورة ـ إلا أن الله تعالى أدان اللمز في خصوص أشرف الخلق ﷺ وذلك في أجلى صفاته عند الناس متمثلة بالأمانة، إذ تجرأ البعض باللمز في حق النبي ﷺ فكانوا من الذين قال عنهم الله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[1] بل دافع المولى عن المؤمنين المطوعين أيضا فقال عنهم ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[2].

وليُعلم أن هذه الصفة ـ البارزة في المنافقين ـ لو وجدت في غيرهم من المؤمنين لتحقق فيه ملاك القبح نفسه، وخاصة أن الآية صريحة في التعميم حيث استعملت كلمة ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ وكم هو أمر قبيح أن تكون في المؤمن صفة من صفات المنافقين: كصفة ذِكر عيوب الغير، وكصفة الكسل إذا قاموا للصلاة؟!

٥ ـ إن جمع المال من دون تصريفه بالإنفاق الراجح مذموم في حد

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧٩.

نفسه، فإنه ـ وإن لم يكن حراما بالمعنى الفقهي ـ قد يكون مقدمة لمفاسد أُخرى، ويكفي أنه ذكر في عداد الهمز واللمز!

ومن المعلوم أن القلب إذا تلوّث بحب الدنيا؛ نسي خالقه أو أنساه الخالق ذكره ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1] وحينئذ صار من السهل أن يخوض في كل أنواع الباطل، لما يرى في نفسه من الاستعلاء على الغير ممّا يستسهل معه انتقاصه، فإن «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»[2]، وقد روي عن الرضا عليه السلام: «**لا يجتمع المال إلا بخمس خصال: بخل شديد، وأمل طويل، وحرص غالب، وقطيعة رحم، وإيثار الدنيا على الآخرة**»[3].

٦ ـ إن المال المكتسب إذا كان بعد ذِكر الله تعالى فإن فيه كل الخير والبركة، بل يندب القرآن الكريم لجمعه كقوله تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4] ولكنه إذا كان في قبال ذِكر الله تعالى؛ فإنه عاد مذموما كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[5].

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٩.

(٢) الكافي: ٢ج ص١٣٠.

(٣) الخصال: ج١ ص٢٨٢.

(٤) سورة الجمعة: الآية ١٠.

(٥) سورة الجمعة: الآية ١١.

وجمع المال المذموم في هذه السورة إنما هو في هذا السياق، إذ لا يجمع المال ويعدّده إلا من عشق المال لنفسه، لا بغية إنفاقه فيما خوّل الله تعالى عبده فيه.

٧ ـ إن من موجبات الردع عن الباطل في القرآن الكريم هو تحقير أصحابه، إذ ورد في هذه السورة ـ إضافة إلى ذكر الويل الدال على التحقير والتقبيح ـ التعبير بـ:

- ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ في حقهم، وهو قذف الشيء وكأنه أمر محقور يُراد التخلّص منه.
- ﴿الْحُطَمَةِ﴾ عن النار التي تحطم، وتهشم ما يقذف فيها.

أضف إلى كل ذلك تحقير نفوسهم التي لا تدرك أبسط الحقائق، حيث حسبوا أن المال من موجبات الخلود، وهو أسخف ما يكون عليه الفكر!

٨ ـ إن التعبير بـ﴿وَما أَدْراكَ﴾ يستعمل عادة في وصف القيامة وأهوالها كالحاقة[١] والقارعة[٢]، والإتيان بها في هذه السورة مع وصف النار بالحطمة ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ لمن موجبات الردع الشديد عن هذا المنكر والذي قد يكون متعارفا عند كثير من الناس.

وعليه، فإنه لا بُد من اجتناب كل أنواع الحرام الذي لا يُعلم ملكوته إلا

---

(١) ﴿وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ سورة الحاقة : الآية ٣.

(٢) ﴿وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ﴾ سورة القارعة : الآية ٣.

عند الورود في ذلك العالم، ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾[1] ولا تخفى المناسبة بين النار الحاطمة في الآخرة وبين أفعال أصحابها؛ لأن كلماتهم أيضا حاطمة للنفوس في الدنيا.

٩ ـ إن جعلنا تعريف الكبيرة هو: (ما أوعد الله تعالى عليها النار في كتابه) فإن هذا التعريف منطبق بأوضح صوره على معصية الهمز واللمز، والمشكلة في مجمل المعاصي القولية ـ كمثل هذه المعصية ـ أن أصحابها يستسهلونها، لعدم تحقق شيء معيب بحسب زعمهم في الخارج؛ خلافا للزنا والسرقة والقتل مثلا!

والحال أن المعاصي القولية منشأ لكثير من هذه المعاصي: كالقتل عند إثارة الغضب بهذه المعاصي القولية، وكالزنا عند إثارة الشهوة بها أيضا.

١٠ ـ إن العذاب المذكور في قوله تعالى ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ وإن فُسّر بإحراق الباطن إضافة إلى إحراق الجلود، ولكن من الممكن القول: إن العذاب يصل إلى الباطن الحقيقي المتمثل بالنفوس الحية، لا إلى باطن الأبدان فحسب؛ فإن هذا الباطن هو المنشأ لكل الشرور.

ومن هنا نرى انعكاس هذه الحالة الحارقة في بواطن العصاة وذلك في دار الدنيا أيضا، إذ يحترقون بنار بواطنهم وهي الموجبة للضيق والتبرم كما يصفها القرآن الكريم بقوله ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٣.

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[١] وهذا ما يُفسِّر تماديهم في أنواع المتع والتلذذ للخلاص ممّا هم فيه من الضيق والضنك.

١١ ـ إن آخر أمل للمحبوس في دار الدنيا هو الفرار من حبسه، والقرآن الكريم يسد هذا الباب الموهوم على أهل النار في آيات مختلفة، حيث يستفاد منها أن أبواب جهنم محكمة الغلق ومطبقة على أهلها، فمنها قوله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ ومنها ما في قوله تعالى ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾[٢] ومنها ما في هذه السورة ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾.

ومن المعلوم: أن إحساس مَن هو في العذاب بأنه لا يمكنه الفرار منه، لمن موجبات الأذى الباطني، إضافة إلى ما هو فيه من الأذى الخارجي، ومن هنا أضيفت كلمة (الغمّ) ضمن العذاب المتوجّه في النار في قوله تعالى ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾[٣].

١٢ ـ إن الأمر الملفت في هذه السورة هي المقابلة بين صاحب المال الذي يحسب أنه مخلّد به ﴿أَخْلَدَهُ﴾ وبين النبذ في ﴿الْحُطَمَةِ﴾.. فكيف هي خيبة الأمل عند من رأى ماله ـ الذي كان يحسبه من موجبات الخلود ـ قد صار من موجبات القذف والنبذ في النار؟!

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

(٢) سورة السجدة: الآية ٢٠.

(٣) سورة الحج: الآية ٢٢.

كما أنه من الملفت أيضا المقابلة بين المال الذي ﴿عَدَّدَهُ﴾ وبين عمد النار الـ﴿مُمَدَّدَةٍ﴾ إذ بعدد المال المُعّدد امتدت أعمدة النار في الجحيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾.

١ ـ إن التعبير بـ﴿أَ لَمْ تَرَ﴾ بدلا من (ألم تعلم) للدلالة على وضوح الأمر إلى درجة وكأنّه يُرى بالحواس الظاهرة، ومن المعلوم أن واقعة الفيل زامنت ولادة النبي ﷺ فكأنّها ـ لتحقق وقوعها ـ صح أن يُستفهم عنه وكأنه عاصرها ورآها بعينه!

وهذا التعبير يناسب غرابة هذا الحدث، وسنخ عقوبة أصحابه بما لم يمرّ نظيره في التاريخ، فلزم مثل هذا الاستفهام التقريري، وهو ما ورد في القرآن الكريم تارة بالنسبة للمحسوسات الواضحة عند البشر ﴿أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاء﴾[1] وتارة للأمور الخافية عنهم كقوله تعالى ﴿أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْض﴾[2].

والمطلوب عموما هو أن يصل العبد إلى درجة انكشاف الحقائق الغيبية له،

---

(١) سورة الحج : الآية ٦٣.

(٢) سورة الحج : الآية ١٨.

كانكشاف الحقائق الشهودية لديه .

٢ ـ إن الله تعالى في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ﴾ يطلب من المخاطب أن يتأمّل في كيفية الفعل لا في أصل صدوره ؛ فإن النظرة البلهاء لما جرى من إهلاك أصحاب الفيل ، لا تستتبع في حد نفسها تأثرا واعتبارا ، حيث إن الناظر غير الناطق يشترك مع الناطق في أصل رؤية الأفعال.

ولكن المطلوب من ذوي الألباب هو التحليل والتجزيء ، وتسرية الحكمة فيما جرى إلى ما سيأتي ، وهو الهدف الأساس من نقل قصص الغابرين كما في قوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1] فجاء الأمر بالسير أولا ، ثم النظر ثانيا ، ثم الاعتبار بكيفية العواقب ثالثا .

٣ ـ ورد التعبير بالرب مسندا إلى المخاطبين من الأنبياء وغيرهم في القرآن الكريم في أكثر من مئتي مورد ، مع إنه تعالى منسوب إلى الوجود برمّته وهو الأوفق بمقام الربوبية ، فإن النسبة إلى الكل أوجه من النسبة إلى الجزء ، ولا يُعدل عن ذلك إلا لوجه وجيه ، ومنها ما في مثل هذه السورة ، فإن المقام فيها ذِكر لعظمة الرب المنتقم من أعدائه بما لا يخطر على بال أحد ، فكانت نسبة الرب بهذه الصفة القاهرة إلى النبي صلى الله عليه وآله من موجبات تثبيّت فؤاده ومن معه من المؤمنين .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١١ .

ولا يخفى ما فيه أيضا من الدلال؛ لأن توجيه الخطاب ـ من بين كل الموجودات ـ إلى نفسه الشريفة، فيه من اللطف والعزة ما يزيل عنه كل هموم الدعوة إلى الله تعالى.

٤ ـ إن كلمة الصاحب تُطلق عادة في موارد التجانس في الخلقة؛ كالإنسان مع بني جنسه: سواء اتفق معه في ملّته ﴿فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فتَعاطى فَعَقَر﴾[1] أو كان مجانبا له في ذلك ﴿قالَ لَهُ صاحِبُهُ وهُوَ يُحاوِرُه﴾[2] ولكن إطلاق الصحبة على غير العاقل في علاقته بالإنسان ﴿بِأَصْحابِ الْفِيلِ﴾ لا تصحّ إلا للدلالة على معنى بليغ، وهو المراد في هذه السورة: حيث إن راكب الفيل لطغيانه صار كمثل ذلك الحيوان في بطشه، بفارق أن الأول أراد هدم البيت عن قصد وعمد، والثاني أراد ذلك بمقتضى خلقته التي خلقها الله تعالى عليه وذلّلها لعباده، وإن قيل: إنها أبت هدم البيت.

٥ ـ إن التعبير بـ﴿بِأَصْحابِ الْفِيلِ﴾ يُشعر بأن معتمد هؤلاء الطغاة على أسبابهم المادية، ومنها اصطحابهم للفيلة الجامعة بين القوة والهيبة؛ فكان ركوبهم إليها مصححا لإطلاق أنهم أصحابها.

والحال بأن معتمد المؤمنين في سرّائهم وضرّائهم على العزيز المقتدر، وهو مفاد قوله تعالى ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللّهَ مَوْلَى الَّذينَ آمَنُوا وأَنَّ الْكافِرينَ لا مَوْلى

---

(١) سورة القمر: الآية ٢٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ٣٧.

لَهُم﴾[١] وشتان بين مولى حقيقي يدافع عن أوليائه، وبين من لا مولى له، أو له مولى لا مولوية له!

٦ ـ إن التعبير عن فعل الكفار بالكيد ـ كما ورد بالنسبة إلى أبرهة وجنوده ـ يُشعر بحالة من الخبث الباطني؛ لأن الكيد هي المواجهة بحيلة وغدر، خلافا للمواجهة العلنية في الميدان، وبهذا كان قبح الفعل فيه أشنع! ومنه يُعلم أن الأمر لم ينحصر في هدم البيت، بل كان لهم من خبث النوايا ما لا يعلمه إلا الله تعالى، ومنها: ما عُلم من أنهم أرادوا تحويل زائري البيت الحرام إلى كعبة مضاهية له، بناها أبرهة في اليمن.

٧ ـ إن مكر الكفار ليس بالأمر الهيّن حيث يصفه القرآن الكريم قائلا ﴿وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾[٢] وهو لشدّته ممّا قد يوقع الوهن والخوف في نفوس المؤمنين، فكان لا بُد من ذِكر ما يُزيل هذا الوهن كقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾[٣] و﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٤] و﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُم﴾[٥] و﴿قَدْ مَكَرَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِد﴾[٦] و﴿وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[١].

---

(١) سورة محمد: الآية ١١.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٦.

(٣) سورة الفجر: الآية ١٤.

(٤) سورة الحج: الآية ٣٨.

(٥) سورة محمد: الآية ٧.

(٦) سورة النحل: الآية ٢٦.

ومنها ما في هذه السورة : من أن مكرهم في تضليل أي في ضياع لا يصل إلى هدفه، فلا تجري الأمور على وفق مرادهم رغم دقة مكرهم، كما أن دعاءهم في نار جهنم أيضا لا يصل إلى هدف الإجابة لقوله تعالى ﴿وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾[٢].

والملفت هنا : إن الضلال نُسب إلى فعلهم، وقد ورد التعبير نفسه بالنسبة إلى ذواتهم وذلك في قوله تعالى ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[٣] فالضال لا يترشّح منه إلا الضلال : في الفعل والقول، وفي الحال والمآل معا.

٨ ـ لقد جمع القرآن الكريم في هذه السورة بين تعبيرين تنحلّ بهما عقدة نسبة الأفعال إلى غير الله تعالى في جنب نسبته إليه، وذلك بالتفريق بين الأصيل والوكيل، إذ إن الله تعالى يسند ـ في أول السورة ـ الفعل إلى نفسه قائلا ﴿وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم يردفه بالقول ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ فيسند الفعل إلى الطير، ومن المعلوم أنه لا منافاة بين التعبيرين، لعدم المنافاة بين الوكيل والأصيل، وهذه القاعدة تسري في كل الموارد التي يحقّق فيها العبد فعلا بإذن الله تعالى، ومنها قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[٤] والذي يجتمع مع قوله تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٥]

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٠.

(٢) سورة الرعد : الآية ١٤.

(٣) سورة الفاتحة : الآية ٧.

(٤) سورة الزمر : الآية ٤٢.

(٥) سورة السجدة : الآية ١١.

بل إن الأمر أصرح في قوله تعالى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[١] فصار التصريح بنفي أثر الفعل أصالة من الرامي ، وإن صدر منه الفعل.

ومن مجموع ما ذُكر : ترتفع الغرابة فيما يصدر من عباد الله الصالحين من غرائب الأمور ، فإنها بمنزلة ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ بعد ﴿وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾ .

٩ ـ إن هناك مقابلة طريفة بين الفيل والطير الأبابيل ـ وهي الجماعات المتفرّقة من ذلك الطير المهاجم ـ فصارت المقابلة بين طائر صغير وبين أكبر الحيوانات السائرة ، فلم يشفع لها كبَر حجمها ، ولا ما عليها من الجنود المجنّدة ، ما دامت المشيئة الإلهية استقرت على الإهلاك.

وفي هذا أيضا درس في جميع المواجهات بين المؤمنين وغيرهم طوال التاريخ ، فلا ينبغي الاعتداد بعددهم وعدتهم ، إذا أراد الله تعالى إهلاكهم بأبسط الأسباب كالريح ، والصاعقة ، والطير .

١٠ ـ إن قريشا كانت عاكفة على عبادة الأصنام منذ زمن بعيد ، وهذا الموقف الاعتقادي ليس بأقل من الموقف الخارجي من إرادة هدم البيت ، ومع ذلك لم ينزل عليهم مثل هذا العذاب ، ولعل الفارق في الأمر هو تحدّي أصحاب الفيل لصاحب البيت لا عن جهل وقصور ، أضف إلى أن الأمر تعدّى إلى حقوق المخلوقين أيضا ـ ولو كان فيهم من العصاة ـ وذلك لأنهم

---

(١) سورة الأنفال : الآية ١٧.

في حمى الأمن الإلهي ، فكانت لهم حصانة بذلك ، فكيف وفيهم من العباد الصالحين كعبد المطلب ، الذي فوّض أمر البيت لحاميه قائلا :

لا هُمَّ إنَّ المَرْءَ يَمْنَعُ رِحلَهُ فَامنَعْ حَلاَلَكْ

لا يغلِبَنَّ صَلِيبُهُم وَمُحَالُهُمْ عَدْواً مُحَالَكْ

١١ ـ إن الرمية المُهلكة التي قامت بها الطير لم تكن بالأمر الهيّن البسيط ، فمن أين جاءت بالسجيل؟!.. وكيف سدّدت رميتها بها جعلتهم كالعصف المأكول؟!.. ومن أين خرجت هذه الأسراب ، وإلى أين عادت؟! ومن مجموع هذه التساؤلات نعلم أن هناك شعورا والتفاتا بإلهام من الله تعالى لهذه الموجودات ، شأنها في ذلك شأن باقي الطيور التي وصفها الله تعالى قائلا في كتابه الكريم ﴿أَ لَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ في جَوِّ السَّماءِ﴾[١].

وكم من القبيح بعدها أن يكون الطير مسخرا لله تعالى ، دون ابن آدم الذي يتمرد على ربه متحديا له!

١٢ ـ إن الهجوم على البيت وهدمه لم يتوقف على جلب الفيلة إلى أرض مكة ، إذ كانت تغنيهم إغارة الخيول ثم الهدم بالمعاول مثلا ، ولكن القوم أرادوا إدخال الرعب في قلوب أهل مكة ، بحيوان لم يألفوه من قبل ألا وهي الفيلة ، وهذا يدخل في سياق الحرب النفسية المعهودة في الحروب.

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٩.

ولكن الله تعالى أهلك جند الكافرين ؛ مع ما كان لهم من قوى غير مألوفة لإرعاب أهل مكة ، ولهذا لا ينبغي الاعتداد بما هم عليه من القوة ما دام الاعتقاد قائما على أن ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[١] وهذا سارٍ في العصور جميعا.

١٣ ـ إن الانتقام الإلهي في الدنيا متناسب مع عظمة الجريمة ، حيث ينوّع الله تعالى أنواع العقاب في قوله تعالى ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ومِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ومِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ومِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢] وكان حاصل العذاب أن الأبدان المُعذبة كانت تأخذ أشكالا مختلفة : فمنها ما كانت كالنخلة المقتلعة من الأرض كما يقول تعالى ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾[٣] ومنها من مات أصحابها في داره بلا حراك ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾[٤].

ولكن عندما يصل الحديث إلى أصحاب الفيل ، فإنه تعالى يذكُرهم بوصف لا نظير له أي ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ وهو قشر الزرع الذي تعصف به الرياح بعدما أُكل حبه أو أكلته الدودة ، فلا تبقى له باقيه وهذا خلافا لمن مات جاثما في داره.

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٥.

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٠.

(٣) سورة الحاقة : الآية ٧.

(٤) سورة الأعراف : الآية ٧٨.

ولعل السر في هذه العقوبة النادرة ـ حين نزول العذاب وبعد العذاب ـ هو ما كان عليه جيش أبرهة ، من التحدّي لقدسية بيته الحرام ، فأزال الله تعالى وجودهم كما حاولوا هم إزالة رمز توحيده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾.

١ ـ إن المجتمع المتآلف البعيد عن النزاعات لهو مجتمع قريب إلى تحقيق السعادة الاجتماعية والإيمانية، ولهذا فإن النبي الأكرم ﷺ ما كان يمكنه العمل في ترسيخ الدعوة الإلهية في المدينة إلا ضمن هذه الألفة الاجتماعية.

ومن هنا مَنّ الله تعالى بذلك حيث قال ﴿وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَميعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم﴾[1] وحذّرهم من الفرقة اللاحقة إلى يوم القيامة حيث قال ﴿وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُم﴾[2].

ومن المعلوم أن التناحر والتخالف ـ عدا أنه آفة في حدّ نفسه ـ فإنه من موجبات تسلّط الأعداء المتربّصة بالأمة.

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٣.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٦.

٢ ـ بناء على تحقق ارتباط بين هذه السورة وما قبلها[١] ـ كما يُستفاد من الحكم الفقهي بالجمع بينهما في قراءة الصلاة ـ فإن إهلاك أصحاب الفيل صار مقدمة للألفة بين قريش والأرض التي يعيشون عليها، إذ لولا هذا الدفع الإلهي وزوال الخوف، لانتشروا في البلاد طلبا للرزق والأمان، وصاروا كاليهود ﴿وَ قَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾[٢] وبذلك تزول عنهم تلك المكانة والشرافة التي اكتسبوها من خلال خدمة البيت الحرام.

أضف إلى أنها مقدمة لنعمة أُخرى أيضا، وهي أسفارهم بأمان صيفا إلى الشام وشتاء إلى اليمن، إذ لولا هذا الأمان لما تجرؤوا على ترك الديار، وغور الفيافي والقفار طلبا للمعيشة، وكان من الممكن أن يستوطنوا تلك الديار طلبا للأمان، فتفوتهم بذلك بركات مجاورة البيت.

٣ ـ إن الانتقال والارتحال في مختلف الفصول لكسب المعاش لهو أمر راجح، وإلا لما منّ الله تعالى على قريش بذكر هذا التنقل بأمان، وذلك في قبال المنّة عليهم بتثبيتهم في جوار بيته الحرام، المتوقف على الغنى والأمان.

وحينئذ نقول: إذا كانت قريش محتاجة إلى هذه الألفة لأمر دنياها من رحلة الشتاء والصيف ـ طلبا للغنى والثروة ـ فإن الأمة أحوج إلى الأمن وارتياح البال لأمر آخرتها، وتوسيع رقعة الإسلام في النفوس، كما إن الفرد أيضا أحوج لذلك لتحقيق القرب إلى الله تعالى.

---

(١) سورة الفيل.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٨.

٤ ـ إن تعداد النعم الإلهية من موجبات التنبّه والالتفات إلى المنعم، وهذا الأمر مغروس حتى في الدواب الصامتة إذ تتعلق بإحسان عالفها، وفي هذا السياق نرى بأن الله تعالى جعل توجّه النعم إلى قريش من: الألفة، وتيسير رحلة الشتاء والصيف، والإطعام والأمان؛ مقدمة للدعوة إلى عبادة رب البيت.

ومن الممكن الاعتماد على هذا المبدأ في تعامل الخلق مع بعضهم، فما المانع أن يعدّد الأب نعمه على ولده بداعي دعوته إلى البرّ؛ لا لمنّة له واستعلاء عليه؟!

٥ ـ إن البيت الحرام له شرافة متميزة عند الله تعالى، فهو تارة ينسبه إلى نفسه قائلا ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾[1] وتارة ينسب نفسه إليه قائلا ﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ وفي هذا التنويع في النسبة دلالة على عظمة البيت.

ولا تخفى المناسبة لِذكر البيت في هذه السورة، حيث أن الرب الذي دفع البلاء عن هذا البيت ومَن حوله، هو المستحق لأن يُعبد حصرا، فعاد الأمر إلى باب شكر النعمة الذي تألفه عامة النفوس، لا التعبّد المحض الذي يألفه الخواص من العباد.

٦ ـ إن العقل حاكم على أن دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة، والله تعالى بيّن لقريش كيف أنه دفع الضرر عنهم: أولاً بإهلاك أبرهة ومن معه،

---

(١) سورة الحج: الآية ٢٦.

وأنه جلب لهم منفعة الأمن والإطعام ثانيا، وبهذا يتحقق الترتب المنطقي بين السورتين.

وعليه، فإن تمام النعمة من العبد الكريم -تأسيًا بمولاه- هو أن يجمع بين دفع الضرر عمّن يراد إكرامه، وأن يجلب المنفعة له.

٧ - إن قريشا على كفرها وسوء عملها من القتل، والإغارة، وأذاها للنبي ﷺ حتى بعد سنوات طويلة من الدعوة، فإن الله تعالى أكرمها بما ذُكر في هذه السورة من الإطعام والأمن:

- إعظاما لبيته الحرام، لأنهم سكنوا بفنائه حتى قيل عنهم أهل الله.
- وإعظاما لمن كان فيها أمثال عبد المطلب، فإن الله تعالى يكرم بلدا بعبد صالح، أو يدفع الأذى عنهم به.
- واحتراما لمن سيُولد بينهم لاحقا، وهو نبي من أنفسهم.

فما المانع أن يُكرم الله تعالى السابقَ وذلك كرامة للاحق؟!.. وهكذا كان علي عليه السلام يمنع سيفه عمّن يرى نورا في نسله.

٨ - إن عبادة الله تعالى تحتاج إلى نفس مستجمعة لقواها، آمنة في معيشتها، واجدة لقُوْتها، ومما ينافي ذلك اختلال أمر المعاش من الجوع والخوف، ومن هنا طالب الرب الحكيم عباده بالعبودية -في هذه السورة- بعد أن تفضّل عليهم بنعمة الإطعام والأمان، ليرفع عنهم كل عذر في هذا الطريق.

ومما يؤيد ذلك ما نقله الإمام الصادق عليه السلام عن سلمان: «**أو ما علمتم يا جَهَلة!.. أنّ النفس قد تلتاث** [أي تحتبس عن الطاعة] **على صاحبها، إذا لم يكن لها من العيش ما يُعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت، فأما أبو ذر، فكانت له نويقات وشويهات، يحلبها ويذبح منها، إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف**»(١).

٩ ـ إن أصل الإطعام صفة محمودة جعلها الباري تعالى معطوفة على أصل الخلقة حيث قال تعالى ﴿قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ والْأَرْضِ وهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾(٢) وهي أيضا صفة من صفات أوليائه، فما من نبي ولا ولي إلا وهو في غاية الإكرام إطعاما وغيره، إلا أن الأمر يتأكد إذا كان ذلك عن جوع وفاقة وهو ما خصّته الآية الكريمة ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ وخاصة مع الالتفات إلى صيغة النكرة في الخوف والجوع الدالة على التعظيم، وهو أيضا ممّا جعله القرآن الكريم اقتحاما للعقبات حيث قال ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾(٣).

١٠ ـ إن الجوع والخوف صور من صور البلاء عموما، كسُنّة من سنن الخلق حيث قال تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾(٤) وهنا

---

(١) الكافي: ج ٥ ص٦٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤.

(٣) سورة البلد: الآية ١٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٥.

لا بُد من الالتفات إلى أنهما قد يتوجّهان تارة إلى العباد في سياق العذاب والانتقام كما وقع للقرية الآمنة المطمئنة، والتي كفرت بأنعم الله تعالى ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[١] وقد يتوجّهان في سياق الإيقاظ لعبادة الله تعالى، فإن طبيعة النفس قائمة على الغفلة والسهو، فكان هذا النوع من البلاء سبيلا للردع والاستقامة، ومنه ما في هذه السورة حيث قال تعالى ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فكان الخلاص من الجوع والخوف مقدمة لعبادة رب البيت.

١١ ـ إن نعمة الأمان وخلّو النفس من خوف ما يُخشى منه، لمن أهم النعم التي يختصّ بها الله تعالى عباده في الدنيا وكذا في الآخرة؛ لأن القلب الفارغ من كل مُشغل، لهو القلب السليم الذي يمكن أن يكون محطّا لأنوار الجلال والجمال الإلهي، ويؤيد ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢]: «**القلب السليم الذي يلقى ربه، وليس فيه أحد سواه**»[٣].

فأما الشاهد على توجه هذه النعمة للمؤمنين في الدنيا فهو قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم

(١) سورة النحل: الآية ١١٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٨٩.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ١٦.

مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١] وأما في الآخرة فقوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٢] فالبشارة بالأمن والأمان صارت مشتركة في النشأتين.

١٢ ـ إن دعوة الأنبياء عليهم السلام عندما تُستجاب لهم، فإنها تمتد إلى قرون متمادية ومنها دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام لأهل مكة حيث قال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[٣] وهو ما ذكرته هذه السورة استجابةً لدعوته، حيث لم يخصّ الصالحين منهم برزق الثمرات، بل عمّت النعمة لتبلغ الحجة.

فما المانع من تأسي الداعي بإبراهيم الخليل عليه السلام لا في تعميم الدعاء لأهل العصر المعاصرين له، بل لأهل كل العصور القادمة؟!

---

(١) سورة النور: الآية ٥٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٨٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

١ ـ إن الاستفهام بـ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يُفيد التعجّب ممن جمع بين التكذيب العقائدي والانحراف العملي، وكأنّ هذا الموجود شاذّ من بين مخلوقات الوجود، فيستحق أن يُشار إليه بصيغة التعجب وكأنه موجود نادر!.. والحال أن عامة الناس ـ لاعتيادهم على صور الانحراف ـ أنسوا بها ولم يروا قبحها، ومن هنا ورد التأكيد الشديد على مقاطعة أهل الكفر، وعدم السكنى في بلادهم عندما يُخشى فيها على أصل الإيمان أو على ثباته.

٢ ـ إن الدين في ﴿يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ قد يُراد به الإسلام؛ حيث حصر الله تعالى الدين القويم به عندما قال ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[(١)] ولكن قد يراد به الجزاء كما في قوله تعالى ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[(٢)] وهو

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٢) سورة المدثر: الآية ٤٦.

صريح في القيامة إذ يتحقق فيه الجزاء، وقد ورد في القرآن الكريم استعمال هذا الاشتقاق في الجزاء كما في قوله تعالى ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[1].

ووجه التخصيص بهذا الأصل من أصول الدين ـ في سياق الذمّ لمنكره ـ هو أن تكذيب يوم القيامة يجعل المرء في حلّ من كل قيد، لأنه لا يرى جزاء على فعله، وهذا يدعوه لارتكاب كل موبقة، وخاصة عند انطماس فطرته وموت وجدانه.

٣ ـ إن المقصّر في حق الله تعالى وهو المنعم الأعظم ـ بل لا منعم حقيقة سواه ـ يقصّر في حق المخلوقين بطريق أولى؛ لأن من انطمست بصيرته عن رؤية ذلك الحق الحقيق، كيف يمكنه الالتفات إلى ما هو دونه؟!

ومن هنا ربطت الآيات بين ترك الصلاة وعدم إطعام المسكين كما في قوله تعالى ﴿قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[2] كما ربطت بين عدم الإيمان بالله تعالى وعدم الحضّ على طعام المسكين ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[3] ويأتي في هذا السياق أيضا ما ذُكر في هذه السورة من عدم الإيمان بالمعاد، مقترنا بعدم الحضّ على

---

(١) سورة الصافات : الآية ٥٣.

(٢) سورة المدثر : الآية ٤٣-٤٤.

(٣) سورة الحاقة : الآية ٣٣-٣٤.

طعام المسكين .

٤ ـ لا ينبغي للعبد أن يستهين بأية طاعة ، كما لا ينبغي أن يستهين بأية مخالفة وأن استحقرها ، فإن رضا الله تعالى وسخطه ووليه ، قد يكون فيما لا يتوقّعه العبد ـ كما يُفهم من بعض الأخبار ـ ولهذا عندما يُسأل أهل النار عما سلكهم في سقر ؛ فإنهم يذكرون في الجواب ترك طاعة خفية ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[1] وفعل مخالفة خفية أيضا ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[2] ومنها ما في هذه السورة من ترك الحضّ على طعام المسكين ﴿ولا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾ وهو أخفى من ترك أصل الإطعام، عند بيان صفات المكذّب بالدين ﴿ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينِ﴾ .

٥ ـ إن القرآن الكريم يذكر في موارد عديدة أن المال مال الله تعالى ، وقد جعل العبد مخوّلا في إنفاقه كقوله تعالى ﴿وَ أَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فيه﴾[3] و﴿وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذي آتاكُم﴾[4] ولازم ذلك أن من منع عيال الله ما أمر الله تعالى بإنفاقه صار خائنا للأمانة ، وقد روي في حديث قدسي : «المال مالي ، والفقراء عيالي ، والأغنياء وكلائي ، فإن بخل

---

(١) سورة المدثر : الآية ٤٤.

(٢) سورة المدثر : الآية ٤٥.

(٣) سورة الحديد : الآية ٧.

(٤) سورة النور : الآية ٣٣.

وكلائي على عيالي ؛ أخذت مالي ولا أبالي»[١].

وفي هذه السورة إشارة إلى هذه الحقيقة من بُعد آخر، وذلك عندما يُسند الطعام ـ لا الإطعام ـ إلى المسكين، فكأنّه يُشعر بأن حقيقة الإطعام إيصال الطعام إلى صاحبه، فكأنّ الشريك أرجع حصة الشريك إلى شريكه، ويؤيده ما في آية أُخرى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٢].. فأي فخر في ذلك؟!

٦ ـ إن ما يلفت في هذه السورة أن بعض ما ذُكر في سياق الذمّ الشديد بالتعبير بـ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ تارة والتعبير بـ ﴿فَوَيْلٌ﴾ تارة أُخرى، لا يُعدّ حراما بالمعنى الفقهي؛ وذلك كعدم الحضّ على طعام المسكين، ومنع إعانة الغير.

ولحلّ الغرابة في هذا الأمر من الممكن أن يُقال :

- إن العُمدة في مِلاك الذمّ هو التكذيب بيوم الدين المستتبع لهذه الأمور، والتي عبّر عنها بفاء السببية في ﴿فَذَلِكَ﴾ .
- إن هذا الفعل كاشف عن دناءة في النفس، توجّه الذمّ إليها بسببها، فقد يُعذر الإنسان في عدم إطعام الطعام، ولا يُعذر في عدم حضّ غيره عليه .

٧ ـ إن (الويل) وهو التعبير عن شدة العذاب يوم القيامة، تكرر أكثر

---

(١) جامع الاخبار : ص٨٠.

(٢) سورة الذاريات : الآية ١٩.

من عشر مرات متوجّها إلى المكذّب بيوم الدين، وقد فُسِّر المكذّب في هذه السورة بـ(الساهي عن صلاته) والذي هو معنى يغاير التارك لها، وحينئذ لنا أن نقول: كيف يمكن تصوّر عذاب من ترك الصلاة في كل حالاته؟!

٨ ـ إن التعبير بـ(الويل) للمصلي في هذه السورة متوجّه إلى من يسهو عن صلاته ـ لا في صلاته لأنه لا يخلو منه حتى المؤمن ـ وذلك بمعنى الاستهتار بها وتضييعها إما: بأدائها مقطّعة، أو تأخيرها من دون عذر، أو أدائها رياء، ومن لوازم هذه الصفة عدم المبالاة بحاجة الغير ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ إذ إن مَن لم يُعن نفسه على مصالحه، كيف يعين غيره على حوائجه؟!.. وبهذا يتبيّن الربط بين الآيتين.

٩ ـ إن من الطبيعي أن يطلب المنكر للمعاد جزاءه من المخلوقين، إذ إن طبيعة النفس تهفو إلى الجزاء والمدح، ومن هنا فإنهم يلجأون إلى الرياء طلبا للزلفى من أهل الدنيا، وهذه صفة مستمرة لهم حيث يقول تعالى ﴿يُرَاؤُونَ﴾ بالفعل المضارع.

وفي المقابل فإن الخوف من تبعات المعاد، يجعل همّة العبد مقصورة على طلب رضا مولاه، الذي يجازي بأحسن الجزاء وهو ما ذكره القرآن الكريم عن أهل البيت عليهم السلام حيث قالوا ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1].

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٩-١٠.

وعليه، فمَن تذكّر هذا العود إلى الله تعالى وعاشها بكل وجوده، فإنه لا يحتاج إلى مجاهدة لتحقيق الإخلاص في كل مورد، بل مع الاستحضار الدائم لهذه الحقيقة، لا يحتاج إلى كثير مجاهدة في مجال تحقيق الإخلاص.

١٠ ـ إن الإسلام دين الجامعية بين ألوان التكليف فمنها:

- ما يتعلق بالخالق وعلى رأسها الصلاة، والدعوة إلى عدم الرياء فيها ﴿الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ﴾.
- ما يتعلق بالمخلوقين، والتي فصّلتها السورة في آيات عديدة فمنها: ترك دفع اليتيم ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ والحضّ على طعام المسكين ﴿وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾ ومنع إعانة الغير ﴿وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ﴾.

وعليه، فإن مَن يتذرّع بالعبادة لترك خدمة العباد لهو بعيد عن روح الإسلام الجامع.

١١ ـ إن البعض يتساهل في الانحراف العقائدي لدى الغير ويراه أمرا شخصيا في دائرة حريته، وقد لا يرى في مثل هذا المنحرف قبحا إذا اشتغل ببعض الأمور الإنسانية!.. والحال أن هذا الانحراف منشأ للانحرافات السلوكية القبيحة التي ذكرتها الآية بعد التكذيب بالدين: كردِّ اليتيم بجفاء بل إلى درجة يخرج بها الإنسان عن الذوق العرفي العام، وذلك فيما لو فسّرنا الماعون بغير الزكاة أي ما هو جامع لمنافع البيت مثل: القِدْر، والفأس، والقصعة، ونحو ذلك ممّا تعوّد النَّاسُ إعارتَه.. وقد فسّره الإمام

الصادق عليه السلام بقوله: «**هو القرض يقرضه، والمتاع يعيره، والمعروف يصنعه**»[١].

١٢ ـ إن هذه السورة ـ عند بيان الجانب التكافلي ـ لم تذكر أمرا وجوديا يعود إلى المكلّف نفسه، بل هي داعية إلى عدم دفع اليتيم وعدم منع الماعون وكلاهما أمران عدميان، كما هي داعية إلى الحضّ على طعام المسكين وهو لا يستلزم إنفاقا من مال المكلّف نفسه.. ومن مجموع ذلك نفهم أن الشريعة سمحة تريد منا كفّ الشر في موارد، وتشجيع الغير على الخير في موارد أُخرى.

١٣ ـ قد تمر فترة على الإنسان يُبتلى فيها بتبلّد المشاعر تجاه المعوزين حوله من الأيتام والمساكين، والعلاج لهذه الحالة يكمن في فيما ذُكر في هذه السورة من: تفقّد الأيتام، والمسح على رؤوسهم لإثارة تلك المشاعر، وإطعام المساكين والحث عليه، ولكن المشكلة في استمرار هذه الحالة من قسوة القلب.

وعليه، فإن لسان الذمّ في هذه السورة توجّه إلى تلك الحالة المستمرة الكاشفة عن موت المشاعر لا عن تبلّدها، ولهذا جاء التعبير بـ﴿يَدُعُّ﴾ و﴿لا يَحُضُّ﴾ و﴿يَمْنَعُونَ﴾ وكلها دالة على الاستمرار بدلالة فعل المضارع.

---

(١) الكافي: ج٣ ص٤٩٨.

١٤ ـ إنّ طلبَ العبد من غيره شيئا ممّا يعينه ـ أي الماعون الذي فُسِّر بما يشمل الملح والماء والنار، وهي أمور صغار من المتاع ـ مستلزم لإراقة شيء من ماء وجهه، ولا يخفى ما في أي سؤال من ذلّ حتى لإراءة الطريق، ومن هنا كان هذا المنع ـ وخاصة فيما لو كان الأمر حقيرا ـ من صفات اللئيم!.. ولهذا جعله الله تعالى في سياق الويل الذي لا يذكره القرآن الكريم إلا في عظائم الأمور.. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: **«من منع الماعون جاره: منعه الله خيره يوم القيامة، ووكله إلى نفسه؛ ومن وكله إلى نفسه فما أسوأ حاله»**[١].

١٥ ـ إن القرآن الكريم طالما ربط بين الصلاة والزكاة، فإنهما يشتركان في ترك الانشغال بالغير: ففي الصلاة يترك الإنسان الأغيار في الباطن متمثلة بمتفرقات الأفكار ليتوجّه إلى الخالق، وفي الزكاة يترك الأغيار في الخارج متمثلة بالأموال ليتوجّه إلى المخلوق.

وفي هذه السورة أيضا إشارة إلى القرينين من الصلاة والزكاة بقوله تعالى ﴿صَلاتِهِمْ﴾ و﴿الْمَاعُونَ﴾ ولكنها تتناول أوضح المصاديق وأكثرها إثارة للرقة، ففيها: الحديث عن الطعام وهو من ضرورات الحياة، وعن المسكين وهو من أضعف طبقات الفقراء، وعن الحض وهو من أسهل التكاليف!

١٦ ـ إن سِمة أهل النفاق هو التقاعس في كل أبعاد الشخصية

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤ص١٤.

الإنسانية فهم في :

- مجال العقائد : لا حجة لهم في مقابل أهل الحجة ، فيلجأون إلى التكذيب وهو أمر سهل لا يحتاج إلى مؤونة ﴿يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ .
- مجال العبادات : ساهون عنها غير مكترثين بها ، فتفوتهم كثيرا أو دائما ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ﴾ وإذا قاموا بها كانوا من أهل الرياء وطلب الثناء والجزاء ﴿يُراؤُنَ﴾ .
- مجال التعامل : مع المخلوقين لا يشعرون بآلامهم ولا يحضون على طعامهم ﴿وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾ ويمنعون الماعون منهم رغم حقارته ﴿وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ﴾ بل يدعون اليتيم منهم ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ .

فأية صفة من صفات الإنسانية بقيت فيهم؟!.. وعليه ، فمَن كانت فيه هذه الصفات فهو ملحق بهم وإن كان في عداد المسلمين!

١٧ ـ إن المحصلة النهائية من هذه السورة المباركة هي أن طريق فلاح المجتمع متقوّم بأمرين ، لا بُد أن يهتم بهما أولياء الأمر في كل عصر :

- الاهتمام بالأمور التربوية : وعلى رأسها الصلاة من حيث إنها ناهية عن الفحشاء والمنكر ، ومن هنا أكدت آية أُخرى على أن من أولى مهام الذين يمكّن الله تعالى في الأرض ، هي إقامة الصلاة لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا

الصَّلَاةَ﴾[١].

- الاهتمام بالأمور المعاشية : وعلى رأسها تكفل الأيتام والطبقات المستضعفة في المجتمع وهم المساكين، وخصوصا فيما يتعلق بالمأكل الذي هو القدر المتيقن من حاجة الإنسان في هذه الحياة.

---

(١) سورة الحج : الآية ٤١.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

١ ـ إن هذه السورة القرآنية ـ وهي من أصغر سور القرآن الكريم ـ لا تختلف في سبكها وسياقها عن باقي السور الطوال، فيشملها التحدّي المذكور في القرآن ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] وهذه صورة من صور الإعجاز في القرآن الكريم، حيث إنه تحدّى أفصح فصحاء العرب، للإتيان بثلاث آيات كما في هذه السورة.

٢ ـ تميّزت هذه السورة في إنها استعملت مفردات لم يتكرر مثلها في القرآن الكريم من: الكوثر، والنحر، والشانئ، والأبتر.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ يستحق أن يخاطبه الله تعالى بسورة متميزة من حيث المفردات المستعملة فيها، وعلى رأسها مفردة ﴿الْكَوْثَرَ﴾ الدالة على كل خيرٍ كثير.

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٨.

٣ ـ إن القرآن الكريم في منتهى الدقة والحكمة في كل استعمالات الألفاظ في مواردها، ومنه استعمال ضمير المتكلم العائد إلى ذات الجلالة فتارة يأتي بصيغة:

- المفرد كقوله تعالى ﴿أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1] وكقوله ﴿فَإِنِّي قَرِيب﴾[2] المُشعر بالقرب من العبد، وفيه مقتضى المؤانسة والدلال كما هو واضح في خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿إِنَّني أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْني وأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾[3].
- وتارة يأتي بصيغة الجمع وهي في مفتتح أربع سور من القرآن الكريم وهي ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾[4] و﴿إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً﴾[5] و﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[6] و﴿إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ﴾[7] ويجمعها عظمة الفعل المسند إلى الله تعالى من: الفتح المبين، وإرسال أول نبي من أولي العزم الذي هو بمثابة الأب الثاني للبشر، وإنزال خاتم الكتب السماوية، والامتنان

---

(١) سورة الحجر: الآية ٤٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٣) سورة طه: الآية ١٤.

(٤) سورة الفتح: الآية ١.

(٥) سورة نوح: الآية ١.

(٦) سورة القدر: الآية ١.

(٧) سورة الكوثر: الآية ١.

بالكثير من الخير، وبين هذه الموارد ما لا يخفى من الترابط، فالحديث فيها عن: رسالة أولي العزم، والكتاب الإلهي، والعترة المعادلة له، والظفر الخارجي الضامن لنجاح الدعوة.

٤ ـ إن الإكرام قد يتم من دون تمليك في البين، كما لو سلّط المكِرم أحدهم على المنفعة دون العين، ولكن الإعطاء هنا ظاهر في التمليك وفيه تمام الإكرام، أضف إلى إن إضافته إلى المخاطب ﴿أَعْطَيْناكَ﴾ وهو النبي الأكرم ﷺ يُشعر بأن لوجوده الشريف خصوصية في هذا العطاء، فاستحقاقه للكوثر دخيل أيضا في هذا العطاء؛ لأن قابلية القابل موجب لفاعلية الفاعل أيضا.

٥ ـ تعدّدت الآراء في تفسير ﴿الْكَوْثَرَ﴾ إلى درجة عجيبة أنهاه بعضهم إلى ستة وعشرين معنى[١]، والذي يجمعها جميعا جامع الخير الكثير؛ ولكن الأوفق لسياق السورة هي (الذرّية الكثيرة) لمقابلته بـ﴿الْأَبْتَرُ﴾ كجزاء لمن اتهم النبي ﷺ بأنه عديم العقب أولاً، وللأمر بنحر الناقة ـ على تفسير ـ وهو المناسب لتقديم الأضحية عند رزق الذرية ثانياً.

ولا يخفى أن هذه السورة من موارد الإخبار بالغيب، وهو ما يُعبّر عنه بملاحم القرآن الكريم؛ لأن هذه البشارة جاءت في مكة والنبي ﷺ قليل العدد والعدة، والحال أن شانئه كان صاحب شأن وجاه، والواقع

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠ ص٣٧٠.

الخارجي شاهد على صدق هذه النبوءة القرآنية ـ شأن باقي النبوءات ـ فلم يُحفظ نسل أحد في التاريخ كما حفظ نسل النبي الخاتم ﷺ.

٦ ـ إن الإبهام في كلمة ﴿الْكَوْثَرَ﴾ ـ الذي أوقع المفسّرين في هذا الاختلاف ـ قد يُراد منه بيان سعة دائرة هذا الخير الكثير، فقد ذهبت الأقوال إلى مدى بعيد، بدءً من التفسير بـ(علماء الأمة) إلى القول بأنه (نهر في الجنة) إلى القول بأنه (الحكمة) والتي عبّر عنها في آية أُخرى بالخير الكثير.

وهذه هي عادة القرآن الكريم في إبهام بعض الكلمات لتحريك العقول من ناحية، وإرجاعها أخيرا إلى متمّم القرآن والمتمثل بالعترة الطاهرة من ناحية أُخرى.

٧ ـ شاءت الإرادة الإلهية أن يجعل الخير الكثير متحقّقا في ذرية النبي الأكرم ﷺ من خلال ابنته فاطمة عليها السلام وذلك في زمان كانت الأنثى مظهرا للشؤم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1] كما شاء أن يجعل كلمته وروحه المسيح عليه السلام من خلال أنثى كمريم البتول عليها السلام. وفي هذا درس بليغ يتمثل في أن البركات متوجّهة لعالم الأرواح، لأن الأنوثة والذكورة من سِمات عالم الأبدان، والتي لا خصوصية لها في تلقّي الفيض الإلهي.

---

(١) سورة النحل: الآية ٥٨.

٨ ـ إنه من الممكن جعل هذه السورة استجابة للوعد الإلهي في سورة الضحى ﴿وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾[١] لأن الإتيان بسورة كاملة للوعد بإعطاء ﴿الْكَوْثَرَ﴾ يُفهم منه أن هناك أمرا مهمّا ينتظر النبي الأكرم ﷺ وبه يكون تمام سروره ورضاه.

ولا شك أن العطية الإلهية المتمثلة بفاطمة عليها السلام فيها رضا رسول الله تعالى، وذلك لتجلّي آثارها في الدنيا والمتمثلة بالذرية الكثيرة، وفي الآخرة المتمثلة بالشفاعة لهذه الأمة.

٩ ـ إن الله تعالى عندما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة أمره بالتسبيح والاستغفار ﴿ورَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً فَسَبِّحْ﴾[٢] كنوع من أنواع الشكر للمنعِم الفاتح، ولكن عندما أنعم عليه بنعمة ﴿الْكَوْثَرَ﴾ فقد أمره بالصلاة بما فيها من التسبيح والاستغفار، قائلا له ﴿فَصَلِّ﴾.

وبهذا يُعلم ما لهذا ﴿الْكَوْثَرَ﴾ من أثر في دخول الناس في دين الله أفواجا، وذلك في كل العصور لا في زمان فتح مكة فحسب!

١٠ ـ إن صلاة النبي ﷺ لا يعقل أن تكون لغير الرب ومع ذلك فإن الآية أكدّت على جهة هذه الصلاة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ وأنها مختصة بالله تعالى، لوضوح أن كل عمل إذا لم يكن لوجه العظيم ـ وإن كان عظيما صادرا من عظيم ـ فهو حقير لا وزن له.

---

(١) سورة الضحى: الآية ٥.

(٢) سورة النصر: الآية ٢.

١١ ـ إن هناك مقابلة ـ تتضح لدى التأمل ـ بين سورة الكوثر وسورة التكاثر رغم أنهما من اشتقاق واحد :

- ففي الأولى نرى الكثرة فيها توجب العبادة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ وفي الثانية فإنها توجب الالتهاء عن ذِكر الله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[1] .
- وفي الأولى بشارة واضحة بإعطاء الكوثر ، وفي الثانية تهديد صريح بـ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[2] .
- وفي الأولى فإن الدعوة إلى الصلاة فيها تسوق العباد إلى المحاريب ، وفي الثانية فإن الكثرة عندهم تسوقهم إلى المقابر لتعداد الموتى من العشيرة ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[3] .
- إن الكوثر المتمثل بالخير الكثير والذي وهبه الله تعالى لحبيبه المصطفى ﷺ لهو خير واقعي مستمر عبر الأجيال ، والحال أن التكاثر المذموم ليس إلا أمراً وهمياً اعتبارياً ، فإن كثرة النسل في حد نفسه لا يعدُّ مزية ، أضف إلى زوال هذا الاعتبار بموت من تكاثر بهم في دار الدنيا قبل الآخرة .
- إن الكوثر الممنوح هنا رشحة من رشحات الفيض الإلهي ،

---

(١) سورة التكاثر : الآية ١.

(٢) سورة التكاثر : الآية ٣-٤.

(٣) سورة التكاثر : الآية ٢.

ومن المعلوم أن ما كان من الله ولله تعالى ينمو ، والحال أن منشأ التكاثر الباطل هو حب الدنيا والاغترار بها والفخر أمام الأقران ، وما كان لغيره تعالى فانه يزول ويمحو .

١٢ ـ إن هناك ارتباطا واضحا بين ﴿أَعْطَيْناكَ﴾ و﴿فَصَلِّ﴾ فاستذكار العطية الإلهية موجب للصلاة بين يديه وهو ممّا يورث الخشية والخشوع ، وهذا سبيل من سبل الإثارة الباطنية للعباد ﴿فَصَلِّ﴾ كلما رأوا في أنفسهم إدبارا ، كما إنه سبيل من سبل دعوة العباد إلى الله تعالى بتذكيرهم بالنعم مقدمة للدعوة إلى الطاعة ، فقد ورد في الحديث القدسي : «**أوحى الله تعالى إلى موسى** عليه السلام **حببني إلى خلقي ، وحبب خلقي إلي. قال : يا رب ، كيف أفعل؟.. قال : ذكرهم آلائي ونعمائي ليحبوني**»[1] .

١٣ ـ إن إسناد الرب إلى النبي صلى الله عليه وآله في ﴿لِرَبِّكَ﴾ فيه إشعار بأن التفضّل الإلهي الذي ذُكر في هذه السورة وغيرها ، إنما هو من رشحات مقام الربوبية ؛ فلولا تعهّد رب العالمين برفع ذكر حبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله لما وقعت هذه الكرامة الممتدة طوال العصور.

فقد ذَكر الرازي في تفسير ﴿الْكَوْثَرَ﴾ أن المراد بذلك أولاده ، ثم عقّب قائلا : «لأن هذه السورة إنما نزلت ردّا على من عابه صلى الله عليه وآله بعدم الأولاد ، فالمعنى : أنه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان ، فانظر كم قُتل من أهل

---

(١) الجواهر السنية في الأحاديث القدسية : ص٥٢٥ .

البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يُعبأ به!.. ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء: كالباقر، والصادق، والكاظم، والرضا ﴿عليهم السلام﴾، والنفس الزكية، وأمثالهم»[١].

١٤ ـ إن هذه السورة على اختصارها في ثلاث آيات، خاطبت النبي ﷺ خمس مرات بضمير الخطاب الظاهر ﴿لِرَبِّكَ﴾ والمستتر ﴿وَانْحَرْ﴾ فكأنّ محور السورة هو النبي ﷺ وإن كان المراد بيان نعمة ﴿الْكَوْثَرَ﴾ مقابل ما ذَكره شانئُه، منتقصا أشرف الخلق وأكرمهم على الله تعالى.

١٥ ـ إن تفسير ﴿انْحَرْ﴾ بنحر الناقة ـعلى تفسير أن المراد هي الأضحية في العيدين أو مطلقا[٢] ـ يأتي في سياق ما في مجمل القرآن الكريم من ذكر التلازم بين أداء حق الخالق وأداء حق المخلوق، كما هو الملاحظ في الأمر بالصلاة والزكاة، وفي النهي عن السهو عن الصلاة ومنع الماعون. وعليه، فإن شكر نعمة ﴿الْكَوْثَرَ﴾ تكون تارة بالصلاة، وتارة بإطعام المساكين، فلا يغني أحدهما عن الآخر.

١٦ ـ إن الأمر بالنحر ـعلى تفسير أنه رفعُ اليدين إلى النحر عند تكبيرة الإحرامـ بعد الأمر بالصلاة، يُشعر بأهمية هذا الجزء الركني من

---

(١) مفاتيح الغيب: ج٣٢ ص٣١٣.

(٢) مجمع البيان في تفسير القران: ج ١٠ ص٨٣٧.

الصلاة فهذا التكبير :

- يقارن بدء الدخول في الحرم الإلهي عند العروج بالصلاة .
- يشتمل على ذِكرٍ هو من أهم الأذكار ، إذ إن غاية مدح مقام الربوبية تتمثل في العجز عن الوصف والمدح ، وهو معنى التكبير.

١٧ ـ إنه من الممكن القول ـ بناء على ما يستفاد من مضامين هذه السورة ـ بأن من أفضل العطايا الإلهية لعبده هي الذرية الصالحة ، ومن أفضل صور الشكر هي :

- الصلاة بين يديه متصلا بتلك النعمة ؛ لِما يدل عليه حرف الفاء ﴿فَصَلِّ﴾ .
- تقديم الأضحية متقربا إليه ؛ تأسيا بما أمر الله تعالى نبيه ﷺ ﴿وَ انْحَرْ﴾ .

١٨ ـ إن الله تعالى ما ترك مناسبة إلا ودافع فيها عن نبيه الأكرم ﷺ إذ هو المدافع عموما عن المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١] فكيف بحبيبه المصطفى؟!

فقد اتهموه بالجنون فدافع عنه ربه قائلا ﴿ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[٢]

---

(١) سورة الحج : الآية ٣٨.

(٢) سورة القلم : الآية ٢.

ونفوا عنه الرسالة ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾[١] فدافع عنه قائلا ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢] ونسبوا إليه الشعر ﴿لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[٣] فدافع عنه قائلا ﴿وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وما يَنْبَغِي لَهُ﴾[٤] ومنه ما في هذه السورة إذ نسبوا إليه عدم العقب فدافع عنه قائلا ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

ولم يتوقف الأمر إلى حد القول المجرد، بل إن الله تعالى أبان للجميع في مقام العمل صدق هذا الوصف، فكان ما كان منه من الذرية الكثيرة؛ بما فيهم أئمة أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾.

١٩ ـ إن الجزاء الإلهي متناسب مع فعل العبد دائما سواء في الدنيا أو في الآخرة، فمن اتهم النبي الأكرم ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بأنه أبتر لا عقب له ـ وخاصة بعد موت ولده القاسم وعبد الله ـ لا بُد وأن يكون جزاؤه من سنخ استهزائه ألا وهو (البتر) المُفسَّر بمَن لا دين له ولا نسب وهو المتحقق خارجا، إذ لم يُرفع لشانئ النبي ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ذِكرٌ ولم تبق لهم باقية؛ بخلاف مَن رفع الله ذِكره وأعطاه نسلا مباركا إلى يوم القيامة.

٢٠ ـ إن كل عمل ذي بال لا ينتسب إلى الله تعالى فهو أبتر ـ سواء كان في علاقة العبد مع ربه كالصلاة أو مع غيره كنحر الأضاحي ـ فتوسطت

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٢.

(٣) سورة الصافات: الآية ٣٦.

(٤) سورة يس: الآية ٦٩.

كلمة ﴿لِرَبِّكَ﴾ بين ﴿فَصَلِّ﴾ و﴿انْحَرْ﴾ في بيان الجانب الإثباتي، كما توسّطت كلمة ﴿يُرَاؤُونَ﴾[1] بين ﴿صَلاتِهِمْ﴾[2] و﴿يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[3] عند بيان الجانب السلبي.

وبناء على ما ذُكر فإنه يمكن القول بأن الرياء يمحق كل عمل، كما إن الإخلاص يُربِي كل طاعة .

٢١ ـ إن التهديد ببتر الشانئ ـ وكأنه هو الوحيد الذي لا عقب له باستعمال ضمير الفصل الدال على التأكيد أو الاختصاص ـ لا يختص بشانئ بعينه، فإن مورد النزول لا يخصص الوارد، فكل مبغض للنبي ﷺ مصيره إلى البتر والانقطاع في كل العصور، وخاصة أنه وقع التعبير باسم الفاعل لا الفعل؛ والدال على ثبوت الجزاء لصاحب تلك الصفة في كل الأحوال.

---

(١) سورة الماعون: الآية ٦.

(٢) سورة الماعون: الآية ٥.

(٣) سورة الماعون: الآية ٧.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

١ ـ إن الخطاب للكافرين في هذه السورة ـ وإن كان مطلقا ـ إلا أنه ناظر إلى صنف خاص كان على زمان النبي ﷺ وهذا النوع من أعتى جماعة الكفار على مر العصور، لاجتماع جهالتهم مع عنادهم!.. فسيقت الآيات لليأس من إيمانهم، وإلا فلطالما انسلخ الكفار من غيرهم عن كفرهم كالذين آمنوا بعد فتح مكة وحسن إسلامهم، وكالسحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام بعد طول جحود.

٢ ـ إن هذه السورة أكدت في أربع آيات ـ متشابهة في أصل المضامين ـ على حقيقة جوهرية ألا وهو عدم المشاركة في العبادة بين الخصمين، اعني خط الإيمان وخط الكفر، لأهمية الجانب الاعتقادي في بنية المؤمن وخصوصا فيما يتعلق بالتوحيد؛ لأن كل سلوكياته تتأثر بهذا الأصل الأصيل.

ومن المعلوم أن عدم المهادنة في هذا الأصل الثابت، لا ينافي المصالحة فيما لا

يمس أصل العقيدة، ومن هنا صالح النبي ﷺ الكفار كما في صلح الحديبية، بل أمره الله تعالى بالصلح في موارده لقوله تعالى ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾(١).

٣ ـ إن استعمال النفي بـ﴿لا﴾ الدال على النفي في الاستقبال وذلك في بيان موقف النبي ﷺ لعبادة آلهتهم وموقف الكفار لعبادة الله تعالى؛ يدل على أنه لا التقاء بين النبي ﷺ وبين خصومه إلى الأبد.

ومن هنا انتفت المداهنة في مجال العقائد وان أمكنت الهدنة في مجال القتال، وقد حسم القرآن الكريم ذلك بقوله ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(٢) بمعنى أن التنازل عن المبدأ، هو السبيل الوحيد لإرضاء الغير، وهيهات أن يكون ذلك!

٤ ـ إن استعمال ﴿ما﴾ المسوقة لغير ذوي العقول؛ واقع في محله بالنسبة إلى آلهة الكفار في ﴿لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ﴾ لكونها أصناما لا تعقل وأما بالنسبة إلى الاستعمال نفسه في المعبود الحق في ﴿وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ﴾ فلا بُد من توجيه الأمر، وذلك بالقول أن ذلك إما من باب: المشاكلة في التعبير، أو إطلاقه على طريقة العبادة، وإما بمعنى المصدر أي ولا أنتم عابدون عبادتي.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

٥ ـ إن الخلاف بين النبي ﷺ وكفار زمانه لم يكن في الخالقية، فهم لم ينكروا الخالق كما يقول القرآن الكريمُ ﴿وَ الَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلى اللَّهِ زُلْفى﴾[1] وإنما الخلاف في طريقة العبادة وممارسة الشرك فيها أي التوحيد في العبادة، ومن هنا كان محور هذه الآيات في مادة اشتقاق العبادة وما يتعلق بها.

وليُعلم أن كثيرا ممّا يفعله المراؤون في العبادة ممّن يؤمن بالله تعالى؛ يعود إلى الخلل في هذا الجانب الذي وقع فيه الكافرون، فما الفائدة في العبادة التي لا توحيد فيها ؟!

٦ ـ إن من أهداف الآيات الظاهرة في التكرار هو تثبيت هذه الحقيقة وهو عدم إمكان عدول المتخاصمَين عن عبادة من يعبده، وإن اختلف التعبير في جانب النبي ﷺ بـ﴿لا أَعْبُدُ﴾ الدالة على الفعل تارة و﴿وَ لا أَنا عابِدٌ﴾ الدالة على صفة الفاعل تارة أُخرى، فكان مجموع التعبيرين أبلغ في النفي!

٧ ـ إنه من الممكن القول ـ دفعا للتكرار المخالف للأصل ـ بأن:

- التكرار في الآيتين ناظر إلى دعوة الكفار للنبي ﷺ لأن يعبد آلهتهم في سنة وليعبدوا هم إلهه في سنة أُخرى، فكان النفي باعتبار تعدد سنوات التبادل في العبادة.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٣.

- ﴿ما﴾ في الأوليتين هي موصولة ناظرة إلى المعبود، بمعنى نفي عبادة معبود كل منهما و﴿ما﴾ في الأخيرتين هي مصدرية ناظرة إلى طريقة العبادة، فمحصل الآيات ـ على هذا التقدير ـ أن الاختلاف واقع في أصل المعبود وفي طريقة العبادة أيضا.
- قوله تعالى ﴿لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ﴾ ناظر إلى الحال بلحاظ الفعل المضارع فيها ﴿وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ﴾ بلحاظ الفعل الماضي، فكانت الآيتان في المجموع، دالتين على انتفاء العبادة في كل الأزمنة.

٨ ـ إن تقديم الجار والمجرور على المبتدأ في قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ ولِيَ دِينِ﴾ دال على حصر الدين الحق والباطل بأصحابها؛ فإن دين الكافرين لا يتعدى منهم إلى النبي ﷺ وكذا العكس!
ولا يخفى ما في هذا البيان أيضا من التأكيد على عدم الاشتراك في الدين وأنه لا مجال للمهادنة في أصل من الأصول.

٩ ـ لا مجال للتوهّم بأن الآيات الدالة على سماح كل فريق بالتمسك بدينه، دالة أيضا على حرية الاعتقاد بأي معتقد، حقا كان أو باطلا ـ وهو ما يروّج له أهل الضلال في كل عصر للانفلات من تقيّد الشريعة ـ فإن مجمل القرآن الكريم هي الدعوة إلى التوحيد وبطلان أي دين غير الإسلام، فكانت هذه الآيات مستبطنة للتهديد بمعنى القول: كونوا على دينكم فسترون عاقبة أمركم!.. ويجري ما قلناه أيضا في قوله تعالى ﴿لَنَا أَعْمالُنَا

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[١]!

١٠ ـ إن المؤمن له مواقف مختلفة بحسب الجهة التي يواجهها :

- فمع المؤمن الغافل له موقف التذكير ﴿وَذَكِّرْ فإن الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].
- ومع المؤمن الفاسق له موقف الأمر بالمعروف ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٣].
- ومع المؤمن الباغي له موقف الإصلاح ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فإن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأخرى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ اللَّهِ﴾[٤].
- ومع المهاجم الكافر له موقف القتال ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[٥].
- ومع الكافر المسالم له موقف المهادنة ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

---

(١) القصص سورة ص : الآية ٥٥.

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٥.

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٤.

(٤) سورة الحجرات : الآية ٩.

(٥) سورة البقرة : الآية ١٩٠.

﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[١] .

١١ ـ إن التكرار في القرآن الكريم أسلوب معهود لتركيز معنى يراد تركيزه بهذا التكرار ـ وهو أعلم بمراده وما يفيد عباده ـ ومن ذلك تكرار قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢] أكثر من ثلاثين مرة في سورة الرحمن لترسيخ معنى الشكر، وآية ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[٣] عشر مرات في سورة المرسلات لترسيخ التهديد المتوجّه للمكذّبين، وآية ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[٤] في سورة المدثر لترسيخ معنى الدعاء عليهم، وآية ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٥] في سورة التكاثر لترسيخ معنى التخويف بيوم المعاد، ومنه ما في هذه السورة من نفي أن يترك النبي ﷺ دينه مجاراة للكافرين حيث تكرر المضمون ـ ولو بتعبيرين ـ حيث قال تعالى: ﴿لا أَعْبُدُ﴾ و﴿ولا أنا عابِدٌ﴾.

١٢ ـ إن القرآن الكريم يدعو المؤمنين إلى تولّي أولياء الله تعالى والتبرّي من أعدائه، ومن أوضح ما دعا إليه هو ما ذُكر في أول سورة براءة حيث قال تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦] .

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٨.

(٢) سورة الرحمن: الآية ١٣.

(٣) سورة الطور: الآية ١١.

(٤) سورة المدثر: الآية ١٩.

(٥) سورة التكاثر: الآية ٣.

(٦) سورة التوبة: الآية ١.

وفي هذه السورة أيضا هناك صورة من صور الدعوة إلى البراءة من الكافرين، وذلك بعدم مداهنتهم على دينهم، ومن المعلوم أن الخطاب متوجّه بالخصوص إلى قادة الأمة وعلى رأسهم النبي الأكرم ﷺ فإن المداهنة تبدأ ممّن هم على رأس القيادة، إذا لم يتسموا بالتقوى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

١ ـ جرت العادة على أن يتقدم المشتاق نحو مَن يشتاق إليه، ولكن عند غاية الإكرام تُقدم الغاية إلى الطالب لها، كما تُزّف العروس إلى زوجها رغم شوقه الشديد إليها، ومثاله في القرآن الكريم هي الجنة الموعودة لأهلها فإنها تتقدّم إليهم لقوله تعالى ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] ومثاله الآخر ما في هذه السورة: فإن المجاهدين يسعون عادةً إلى ساحة النصر والفتح، ولكن النصر هنا جاء لساحة النبي الأكرم ﷺ فقال تعالى ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ﴾.

٢ ـ إن النصر ـ وإن كان منتسبا إلى الله تعالى كانتساب كل خير إليه ـ إلا أن منشأه بيد العبد، وقد أشير إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[2].

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٩٠.

(٢) سورة محمد: الآية ٧.

ومن المعلوم أن نصرته ـ بقول مطلق ـ يلزم منه :

- أولا : النصرة في كل الميادين أعني الأصغر والأكبر .
- ثانيا : قصر النظر على المنصور ـ وهو الله تعالى ـ من دون شائبة في البين ، وإلا لما عادت نصرة له .

٣ ـ إن تخصيص فتح مكة بالذِكر بعد ذِكر النصر العام ، يدل على أن استئصال بؤرة الفساد ومراكز الإفساد ، ضروري في إنجاح مسيرة الدعوة إلى الله تعالى ، فإن المناوشات لم تنقطع بين النبي ﷺ وأعدائه في بدر وأُحد والأحزاب إلا بفتح مكة إذ لم تبق لهم باقية بعدها!

ومن هنا فإن وظيفة المؤمنين طوال التاريخ ، اجتثاث جذور الفتنة في كل عصر بما أوتوا من قوة ؛ لئلا تتعثر مسيرتهم نحو الفتح المظفر .

٤ ـ تعدّد ذكر النعم الإلهية في السور الأخيرة من هذا الجزء :

- فتارة يذكر المولى نعمته على نبيه بشرح الصدر في سورة الانشراح[١] .
- وتارة يعده بالعطاء الذي يرضى معه ، متمثلا بالشفاعة كصورة من صور العطاء في سورة الضحى .
- وتارة بإعطاء الخير الكثير في سورة الكوثر[٢] .
- وتارة بإنزال القرآن الكريم على نبيه الأكرم ﷺ في سورة

---

(١) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ سورة الشرح : الآية ١ .

(٢) ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ سورة الكوثر : الآية ١ .

القدر[١].

- وفي هذه السورة يذكر نصره لحبيبه المصطفى ﷺ وما تبعه من الفتح العظيم.

٥ ـ إن هناك فرقا بين (النصر) و(الفتح) وذلك أن الله تعالى قد ينصر عبده من خلال تأييده في مواجهة الأعداء: فيُبطل كيدهم ويدفع مكرهم من دون أن يحسم المعركة معهم ويزيل وجودهم؛ ففي معركة بدر كان هناك نصر للمؤمنين[٢] ولكن لم يكن ما حدث فتحا، ومن هنا لحقتهم هزيمة أُحد، ولكن الله تعالى جمع لنبيه النصر والفتح بدخول مكة حيث سُمي (فتح الفتوح) لأن بهذا الفتح حُسمت المعركة مع الكفر وأهله.
وهذا الفرق في عالم الآفاق يأتي في عالم الأنفس أيضا: فقد ينصر عبده في جهاده الأكبر في بعض مراحل حياته من دون أن يستقر له فتح، والمتمثل في الاستقرار في عالم النفس المطمئنة والدخول في مملكة ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٣].

٦ ـ إن الآية عبّرت عن الداخلين في دين الله تعالى بـ ﴿النَّاسَ﴾ ومن الممكن أن يقال: بأن غير الداخلين في الدين الخاتم، كأنهم ليسوا من الناس!.. فإن القرآن الكريم عبّر عن المنحرفين عن الطاعة بأنهم ﴿كَالأَنْعَامِ

---

(١) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ سورة القدر: الآية ١.

(٢) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ سورة آل عمران: الآية ١٢٣.

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٩-٣٠.

بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[١] ويؤيّده ما روي عن الحسن بن علي عليه السلام عن الناس، فقال عليه السلام: «**نحن الناس، وأشياعنا أشباه الناس، وأعداؤنا النسناس**»[٢].

٧ ـ إن هناك فرقا بين دخول الناس في الدين أحادى وفرادى، وبين دخولهم في الدين جماعة وأفواجا؛ فهذا أقرب إلى مقصد الشريعة وأرضى للرب، ومن هنا خصت هذه الحالة بالذِكر.. وعليه، فإن من قام بما يوجب دخول الناس في الدين كذلك، كان أقرب إلى النصرة الإلهية والفتح الإلهي. وبقرينة المقابلة: فإن مَن يوجب خروج الناس من الدين؛ فإن عليه من الوزر ما لا يخفى، وهو ما سيتحقق في مرحلة من مراحل حياة الأمة، حيث روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا، وسيخرجون منه أفواجا**»[٣].

٨ ـ إن مقتضى الفطرة السليمة التي فُطر الناس عليها، هو إقبالهم على دين الله تعالى والتي هي منسجمة تمام الانسجام مع هذه الفطرة.. ومن هنا سُميّت الشريعة بالحنيفية أي المائلة عن جادة الباطل، ولكن هيمنة قوى الأعداء تحوْل دون ذلك، كما فعل الفراعنة وأمثالهم طوال التاريخ، فقد قال تعالى ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[٤] ولكن عند زوال دولة الباطل فإن

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

(٢) الكافي: ج ١٥ ص٥٥٦.

(٣) جوامع الجامع: ص ٥٥٥.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٥٤.

هذا المانع يرتفع ليعمل المقتضي أثره، ومن هنا كان فتح مكة نصرا عظيما، لارتفاع أهم مانع من موانع نجاح الدعوة في ذلك العصر.

٩ ـ إن النصر والفتح إنما يكتسبان القيمة والشرافة إذا كانا في سبيل دخول الناس أفواجا في دين الله تعالى، بل قد يُقال عموما: بأن أية مزية من مزايا الدنيا ينبغي أن يُنظر إليها في سياق ارتباطها بمزايا عالم الغيب، فما كان سببا للقرب من الله تعالى صار محمودا، وإلا كانت وبالا على صاحبها. وعليه، لو حكّم أهل الدنيا هذا المقياس في حياتهم لما فرحوا بكثير من إقبال الدنيا عليهم، نصرا كان على الأعداء، أو زبدا من عاجل المتاع.

١٠ ـ إن الله تعالى ذكر اسمه الدال على ذاته عند ذِكر النصر ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ وكذلك الدين ﴿دِينِ اللَّهِ﴾ لأن المقام مقام بيان العظمة وهو المناسب لِذكر أشرف أسمائه، ولكن عندما يصل الأمر لذكر حبيبه المصطفى ﷺ فإنه ينسبه إليه بما دل على ربوبيته ﴿رَبِّكَ﴾ ولا يخفى ما في هذا التعبير من اللطف والدلال وذلك:

- بأصل إضافة نبيه ﷺ إليه إضافة تشريفية.
- والتعبير بالرب للإشارة إلى جهة الربوبية الباعثة للنصر، بعد ذكر تلك الإضافة التشريفية لنبيه الكريم.
- أضف إلى صيغة الخطاب الدال على الالتفات والمؤانسة.

١١ ـ تتأكد الحاجة إلى الذكر عند وجود ما يشغل الإنسان عن ذِكر ربه ومنها ساحة القتال؛ فإن طبيعة الكرّ والفرّ على الأعداء قد توجب

الذهول عن الذِكر الكثير، ومن هنا جاء الأمر الإلهي بذلك قائلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

ومن موارد الغفلة أيضا الانشغال بلوازم النصر من الغنائم الخارجية والاستعلاء الباطني؛ لذا جاء الأمر أيضا بالذكر المتمثّل بالتسبيح والاستغفار في هذه السورة بعد النصر والفتح.

١٢ ـ إنه من الممكن تفسير التسبيح بالحمد بوجوه، فمنها:

- الأمر بالجمع بينهما، كما تأمر بالجمع بين التهليل والتكبير من دون علاقة بينهما.
- إن التسبيح وهو التنزيه من النقص، يكون بالحمد والثناء إذ لا يستحق المحمود الثناء، إلا إذا كان خاليا من العيب في الذات والصفة.
- أن يكون الغرض الأولي هو التسبيح، ولكن مستعينا بحمد الله وفضله، كما تسند كل أفعال الخير إلى نفسك حامدا لله تعالى فتقول: صليت بحمد الله تعالى.

١٣ ـ تكرر ذكر التسبيح في القرآن الكريم أكثر من التهليل والتكبير والتحميد، ولعل السر في ذلك أن مخالفة الإنسان لربه في كثير من أوامره ونواهيه، توجب له الوقوع في كثير من الكبوات والعثرات، ومن هنا

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٥.

ناسب أن ينزّه العبد ربه من أن يسند إليه نقص ومنه (الظلم) وذلك عندما يرى في نفسه ما لا يسرّه من العقوبة الإلهية على فعله، بل ينسب التقصير إلى نفسه وهو ما ناجى به يونس عليه السلام قائلا ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] وهذا التسبيح هو الذي صار سببا لنجاته كما كان سببا لقبول اعتذار الملائكة كما قال تعالى ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[2].

١٤ ـ إن من لوازم التنزيه والتسبيح المطلق، هو أن الله تعالى منزّه من خذلان أوليائه في الحياة الدنيا والآخرة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[3] ومن الواضح أن مقتضى مقابلة الجميل بالجميل، أن ينصر الله تعالى من ينصره، لقوله تعالى في آية فيها صور متعددة من التأكيد ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[4] وقد دلّت حوادث التاريخ على هذه الحقيقة، أعني نصر أوليائه وخذلان أعدائه ولو بعد حين!

١٥ ـ إن استغفار النبي صلى الله عليه وآله والأمر به كما في هذه السورة، وكما في قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ولِلْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِناتِ﴾[5] قد يكون لوجوه؛

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٢.

(٣) سورة غافر: الآية ٥١.

(٤) سورة الحج: الآية ٤٠.

(٥) سورة محمد: الآية ١٩.

منها :

- لاقتداء الغير تأسيا به ﷺ ، وهذا المعنى يتفق في تربية الآخرين، فقد يعنّف المعلم مجتهدا من تلاميذه لتنبيه غير المجتهد على تقصيره وأنه هو الأولى بذلك العتاب .
- لترك الأولى وما هو الأفضل ، وهذا الترك لا ينافي العصمة ، ومع ذلك يوجب حالة من الاستحياء بين يدي الله تعالى عند شدة المراقبة ، بما يستدعي الاستغفار الحقيقي .
- أنه قد يكون من لوازم طي المنازل في السير إلى الله تعالى ، فإن المرتحل من منزل عال إلى منزل أعلى ، يرى وكأنّه كان في نقص وتقصير باعتبار المنزل السابق ، بما يستحق معه الاعتذار ممن يُقصد إليه.

١٦ ـ إن الاستغفار سنخ من الدعاء يتوجه به العبد إلى ربه.. وعليه ، فلا بُد من مراعاة كل آداب الطلب ، ومنه تقديم المحمدة والثناء قبله وهو ما تحقق في هذه السورة ، فإن الله تعالى طلب من نبيه ﷺ التسبيح والتحميد ثم أمره بالاستغفار ؛ وهو أدب ينبغي مراعاته في جميع صور الدعاء وحالاته .

١٧ ـ إن طبيعة النصر والفتح تقتضي حالة من الغرور والعجب المعروفَين عند الفاتحين ، ولكن السورة جاءت لتُذكّر بالاستغفار بعد الذكر ، على خلاف ما هو المتوقع من طبيعة الموقف.

ولعل السر في ذلك هو دفع مثل هذا الغرور أولا ، ودفع توهّم الانتساب الحقيقي للنصر إليهم ثانيا ، فإن الله تعالى ينسب ذلك إلى نفسه مباشرة قائلا ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنِدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١] .

١٨ ـ إن الله تعالى لم يقيّد الاستغفار في هذه السورة بكثير قيد كما في باقي آيات التوبة من : الجهالة ، وقرب وقوعها ، وعدم الإصرار على الذنب قبلها ، فإن الاستغفار هنا جاء في سياق نصر الله تعالى المترتّب على نصرة العبيد له ، فلم يحتج إلى كثير قيد ، بل إن الآية ذكرت التوبة مترتبة على الاستغفار مباشرة بصيغ من التأكيد : فمنه التعبير بـ﴿إِنَّهُ﴾ المؤكدة ، والمبالغة في وصف التوبة ﴿تَوَّاباً﴾ والتعبير بثبوت هذه التوبة ﴿كانَ﴾ .

١٩ ـ لا يخفى ما في التعبير بـ(التواب) بدلا من (الغفار) من لطف في سياق ذِكر النصر ؛ فإن فيه معنى رجوع الرب إلى العبد بالتفاتة لطف ورحمة ، ممّا يُلهم العبد نية الرجوع إليه لقوله تعالى ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ﴾[٢] وهذا معنى يغاير مجرد المغفرة ، فإن الله تعالى قد يعفو عن عبده ؛ بمعنى محو السيئة عنه من دون أن يُقبل عليه.

---

(١) سورة الأنفال : الآية ١٠.

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٨.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾.

١ ـ إن التعبير بـ﴿تَبَّتْ﴾ و﴿تَبَّ﴾ وهما: إما إخبار بالهلاك والخسران أو دعاء بالهلاك، استعمل تارة مسندا إلى اليد وهي أداة من أدوات التنفيذ التي ينفّذ بها المرء مراده، وتارة إلى الذات وهو صاحب اليد.

وعليه، فإن اللعنة الإلهية الملازمة لهذا التعبير، مبطلة لأفعال الكافرين كما هي مُهلكة لذواتهم!.. وبعد هذا الوعيد الإلهي ـ الذي يشمل كل الظالمين أمثال أبي لهب طوال التاريخ ـ فأي خوف يبقى في نفوس المؤمنين؟!

٢ ـ إن أقرب القرابات لأشرف الخلق كانت متمثلة بأبي لهب؛ فالعم في طبيعة المجتمع يمثّل الأب الثاني بل هو الأب بعد فقده، كما أُطلق الأب على آزر عمّ إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ﴾[1] وحينئذ هل من السائغ أن يعوّل أحد على قرابته من النبي صلى الله عليه وآله ليفعل ما يشاء؟!.. والحال

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٤.

أن ما ذُكر من الذمّ والوعيد لعمّ النبي ﷺ قلّ نظيره في القرآن الكريم، حيث أُفردت له سورة كاملة في القرآن لذمّه، وذمّ زوجته أم جميل.

٣ ـ إن البعض يتأبّى عن اللعن والدعاء بالطرد من الرحمة الإلهية، والحال أن القرآن ذَكر اللعن في أكثر من أربعين مورد بمختلف مشتقاته، ومنه ما في هذه السورة كصيغة أُخرى من صيغ الدعاء بالهلاك والطرد من الرحمة، وهي مختصّة بأبي لهب لأنه كان متميزا في إيذاء النبي ﷺ إلى درجة لا تُصدّق، إذ كان يتتبّع النبيّ ﷺ كالظلّ، وكلما جاء وفد إلى النبي ﷺ يسألون عن عمّه أبي لهب اعتبارًا بكبره وقرابته وأهميته كان يقول لهم: إنه ساحر، فيرجعون ولا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتبًا له وتعسًا.

وقال عنه أحدهم: «**بينما أنا بسوق ذي المجاز إذا بشاب يقول: «يا أيها الناس!.. قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا» وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيّها النّاس!.. إنه كذّاب فلا تصدقوه**»[1].

٤ ـ إن الدعاء على الكافرين يتمثّل باللعن والطرد من الرحمة، فيتجلّى أثره في القيامة غالبا، ولكن الآيات تشير إلى لوازم وآثار هذا اللعن في الدنيا أيضا، فمنها:

- خسران السعي في مقابلة الدعوة كقوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي

---

(١) تفسير الميزان: ج ٢٠ ص٣٨٦.

لَهَبٍ وتَبَّ﴾.

- إن الله تعالى هو الذي يتصدّى لمقاتلتهم، ومَن يطيق مقابلة قهار السماوات والأرض ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1].

- الطمس على الأموال وإفنائها كما حلّ بآل فرعون ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾[2].

- هدم قواعدهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[3].

٥ ـ إن تالي القرآن يعيش مع ما أنزله الله تعالى وكأنه نزل لحينه، فيتشوّق لنعيم الجنة عند ذكرها، ويتعوّذ من عذاب النار وكأن شهيق جهنم في أصول أذنيه، ويشكر آلاءه كلما ذكّره الله تعالى بنعمة من نعمه، ويتبرأ من أعداء الله تعالى عندما يمرّ ذكرهم بسوء.

ومن مصاديق هذه المعايشة ما في هذه السورة، فيرجح أن يدعو على من ذمّه الله تعالى بأشد الذمّ، وهذا أيضا من مصاديق البراءة من الظالمين في القرآن الكريم، وهو ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إذا قرأتم ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وتَبَّ﴾ فادعوا على أبي لهب، فإنه كان من المكذّبين**

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٨.

(٣) سورة النحل: الآية ٢٦.

الذين يكذبون بالنبي ﷺ وبما جاء به من عند الله عز وجل»[(١)] .

٦ ـ إن كل مظاهر النعم والقوة في الدنيا لا تُغني العبد إذا لم تكن بمباركة من الله تعالى؛ فهو الواهب لأصل النعم، كما أنه هو الذي يبارك فيها.

ومن هنا تعدّدت الآيات في بيان صور عدم إغناء ما كان يعوّل عليه أهل الغنى في الدنيا، ومنها:

- الأموال والأولاد؛ فأبطلها الله تعالى بقوله ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[(٢)] .
- الأصدقاء ومن يعتضد به الإنسان في تحقيق مآربه؛ فأبطلها الله تعالى بقوله ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾[(٣)] .
- الكيد وإخفاء المكر؛ فأبطلها الله تعالى بقوله ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[(٤)] .
- شفاعة الكافرين؛ فأبطلها الله تعالى بقوله ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ﴾[(٥)] .

---

(١) وسائل الشيعة: ج ٦ ص ٧٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠.

(٣) سورة الدخان: الآية ٤١.

(٤) سورة الطور: الآية ٤٦.

(٥) سورة يس: الآية ٢٣.

- الاعتداد بالفئة الكثيرة والعدة والعدد؛ فأبطلها الله تعالى بقوله ﴿لَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾[1].

٧ ـ إنه من الممكن القول: بأن الفرق بين ﴿مالُهُ﴾ و﴿ما كَسَبَ﴾ أن الأول: إشارة إلى ما تملّكه العبد ولو من دون كسب كالمال الموروث، وأما الثاني: فإشارة إلى سعيه بناء على جعل ﴿ما﴾ مصدرية.

وعليه، فإن الغضب الإلهي حلّ على مجموع هذا الكيان المتمثّل بجهده ﴿يَدا﴾ وبذاته ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وبماله ﴿مالُهُ﴾ وبسعيه في الحياة ﴿وَ ما كَسَبَ﴾ فما حال مَنْ أدركته اللعنة الإلهية في كل أبعاد وجوده؟!

٨ ـ إن القرآن الكريم يشير في آيات عديدة إلى كيد الكفار ومكرهم ولكنه يذكره بتحقير وازدراء؛ تقوية لقلوب المؤمنين عندما يرون من الكيد ما تزول منه الجبال، ومنها قوله ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾[2] و﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[3] ومنها ما في هذه السورة من بيان هلاك رأس من رؤوس العناد وهو (أبو لهب) فيذكر أن ما سخّره من الثروة لإيذاء النبي ﷺ لم ينفعه، بل أوجب أن يكون لهبا في نار جهنم.

٩ ـ إن العذاب الإلهي في الآخرة يتسانخ مع ما عليه المرء في الدنيا: فجزاء أبي لهب في الآخرة من سنخ كنيته، وعذاب زوجته من سنخ عملها؛

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٩.

(٢) سورة غافر: الآية ٢٥.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١٨.

فهي تحمل الحطب والشوك وترميه في طريق النبي ﷺ فكان حقا أن يتحوّل ذلك إلى حطب مشتعل بلهب لا يُعلم شدته، باعتبار الإتيان بكلمة ﴿ناراً﴾ نكرة دالة على التهويل، وإلا فإن كل نار متسمة بأنها ذات لهب.

١٠ ـ إن التعبير بالزوجة يُشعر بنوع من الألفة والمودة التي جعلها الله تعالى في الزوجين، ومن هنا فإن القرآن لم يستعمل هذا التعبير ـ أي الزوجية ـ لمن كانت عاقبة أمرها إلى الجحيم كما ورد في هذه السورة ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ومنه ما وصف به تعالى امرأة نوح ولوط ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾[1] ومنه ما وصف الله تعالى به زوجة فرعون حيث قال ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾[2].

- فالأُولى: مثال المرأة الفاسدة بجوار الرجل الفاسد.
- والثانية: مثال المرأة الفاسدة بجوار الرجل الصالح.
- والثالثة: مثال المرأة الصالحة بجوار الرجل الفاسد.
- وأما الرابعة: مثال الزوجة الصالحة في كنف الزوج الصالح فهو أفضل كفئي الزوجين في الوجود والمتمثّل بعلي وفاطمة عليهما السلام حيث ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ *

---

(١) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٢) سورة التحريم: الآية ١١.

﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[١].

١١ ـ إن السنخية بين الزوجين من الحقائق التي لا تخفى في مسيرة المجتمعات، فلم تكن المناسبة بين حمّالة الحطب وأبي لهب اعتباطية؛ فإن الزوجين عموما متعاونان في الخير والشر بمقتضى التسانخ الزوجي، ولو كان في زوجة أبي لهب شيء من بذور الخير لعلها ردعت زوجها، أو خفّفت من عتوه.

ومن هنا لزمت الدقة في الاختيار، ليرى الرجل أين يضع نفسه؟!

١٢ ـ إن من صور العذاب في النار هو تحقير أهلها بصور من التحقير، ومنها ما ورد في هذه السورة بالنسبة إلى حمّالة الحطب زوجة أبي لهب، فقد صورت في النار بأبشع الصور، إذ إن المرأة تتزين عادة بقلادة من الذهب، ولكن هذه البائسة متقلّدة في رقبتها حبلا من مسد، خشن الملمس، مفتولا من الليف، وتحمل معها حطبا وهي مادة عذابها في النار.

وهذا كله تجسيد لما كانت عليه في دار الدنيا، إذ لا يُستبعد أنها كانت تحمل في رقبتها وعاء مشدودا بحبل من الليف، وتضع فيه الشوك لترميه في طريق النبي ﷺ.

١٣ ـ إن هذه السورة من ملاحم القرآن المخبرة عن الغيب، فإنها نزلت زمان كفر أبي لهب، وكان بإمكانه أن يتحدّى القرآن الكريم ويؤمن

---

(١) سورة الرحمن: الآية ١٩-٢٢.

إبطالا لهذا الإخبار!

ولكن لعلْم الله تعالى بأنه لا يكون ذلك نزلت هذه السورة، وفيها بيان قاعدة عامة مفادها: إن الإخبار الغيبي بأفعال العباد لا يسلب منهم الاختيار، فما يذكر من أفعالهم إنما هو في فرض الاختيار أيضا، وإلا فلو كان موجبا للجبر لانتفت العقوبة معه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

١ ـ إن هذه السورة شأنها شأن آية الكرسي، في أنها تصف الرب وتشير إليه بأعظم صفاته وهي أحدية الذات، وعدم وجود نظير له لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال، ويتفرّع عليه أنه هو الذي يستحق الرجوع إليه في كل شيء، وأنه منزّه عن التركيب المحوج إلى الغير والمستلزم للتجسّم.

ومن هنا اكتسبت هذه السورة شرافة خاصة، لأنها مبيّنة لأعظم حقائق الوجود بآيات قصيرة، كما يُفهم من رواية الصادق عليه السلام في حديث المعراج: **«أن الله قال له أي للنبي صلى الله عليه وآله: اقرأ قل هو الله أحد كما أنزلت فإنها نسبتي ونعتي»**[1] ومن هنا ناسب التصديق بها للصلاة قائلين بعدها: كذلك الله ربي!

٢ ـ صرّحت الروايات[2] بأن هذه السورة تعادل ثلث القرآن الكريم،

---

(١) علل الشرائع: ج ٢ ص٣١٥.

(٢) الكافي: ج٤ ص٦٤٤، وسائل الشيعة: ج ٦ص ٢٢٥.

وقيل في توجيه ذلك :

- إنه قد يكون من جهة أن المعارف العقائدية في القرآن متمثّلة في : التوحيد والنبوة والمعاد؛ فكانت هذه السورة متكفّلة لبيان الثلث الأول منها.
- من جهة أن أساس الشريعة معرفة الله تعالى في الأبعاد الثلاثة أي من جهة : الذات والصفات والأفعال؛ فكانت هذه السورة متكفّلة أيضا لبيان الثلث الأول منها .
- من جهة أن مجموع ما في القرآن الكريم يدور حول : العقائد والأحكام وسير الغابرين؛ فكانت هذه السورة متكفّلة لبيان الثلث الأول منه .

٣ ـ إن هناك مناسبة وترابط بين ما يعبّر عنها بالقلاقل الأربعة وهي : المعوذتان والإخلاص والكافرون :

- ففي الإخلاص : يغلب جانب الإثبات؛ وهو الالتفات إلى جانب الربوبية بكل لوازمها من الانقطاع والرجوع إليه في طلب الحوائج.
- وفي الكافرون : يغلب جانب النفي ؛ أي نفي الالتفات إلى غيره من كل معبود سواه، وكلا السورتين متعلقتان بأفعال القلوب .
- وأما المعوذتان : ففيهما بيان سبيل النجاة من شر كل موسوس

يصدّ عن الطاعة، ومن شر كل حاسد يحسد على النعم، ومن شر كل ذي شر سواء كان ظلاما أو سحر ساحر؛ وكلها متعلقة بأفعال الجوارح.

٤ ـ تعدّد ذِكر لفظ الجلالة في أكثر من ألفين وخمسمائة مورد في القرآن الكريم، وهو العلَم الذي يُطلق عليه تعالى للدلالة على جميع صفات جلاله وكماله، بخلاف ما دلّ على صفة من صفاته: كالكريم والعالم وغيره.
وقد ورد في القرآن كل أجزاء هذه اللفظة المباركة: بدءاً من ﴿الله﴾ و﴿لله﴾ و﴿له﴾ وانتهاء بالضمير العائد إليه ﴿هُوَ﴾.

٥ ـ إن الإشارة إليه تعالى بـ﴿هُوَ﴾ كناية عنه ـ لا بمعنى ضمير الشأن على قول آخر ـ ثم بلفظ الجلالة الدالة عليه فيها معان عميقة: إذ كانت الإشارة أولا:

- إلى تلك الجهة بما لها من الكمال والإبهام وبما يفوق كل تعين ووصف قائلا ﴿هُوَ﴾.
- ثم الإشارة إليها بالاسم الدال على صفاته قائلا ﴿الله﴾.
- ثم الإشارة إليه بوصف من صفاته بذِكر ﴿أَحَدٌ﴾ ثم ﴿الصَّمَدُ﴾.

ومما يبيّن عظمة الإشارة إلى تلك الجهة من دون تعيين باسم أو بوصف، ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدر بليلة، فقلت له: علمني شيئا أُنصر به على الأعداء، فقال: قل: يا هو!.. يا**

من لا هو إلا هو ، فلما أصبحت قصصتها على رسول الله ﷺ فقال لي : يا علي ، عُلمت الاسم الأعظم ، فكان على لساني يوم بدر» [١].

٦ ـ إن الثمرة العملية للاعتقاد بتوحيد الذات والصفات والأفعال هو التوحيد في العبادة، فمن كان بهذه المثابة كيف يتعقل عبادة غيره؟!.. ومن هنا عُلم أيضا أن تعميق المعرفة النظرية من موجبات حصر العبادة العملية به تعالى، فإن طبيعة البشر قائمة على الالتفات إلى من يسدّ حاجته، فإذا لم ير مؤثرا في الوجود إلا هو ـ وهذا من لوازم النظرة التوحيدية ـ كان من الطبيعي أن ينحصر التجاؤه إليه ولو كان طمعا لتحقيق مآربه، لا لكونه أهلا للعبادة!

٧ ـ إن مادة الاشتقاق في هذا الاسم الكريم أعني لفظ الجلالة، تدلّ على التحيّر فيه والفزع إليه، إذ تقول العرب: (أله الرجل) إذا تحيّر في الشيء فلم يحط به علما، و(وله) إذا فزع إلى شيء ممّا يحذره ويخافه.
ويمكن أن نجعل في هذا السياق ما روي عن أمير المؤمنين ؑ : « **(الله) معناه : المعبود الذي يأله فيه الخلق ، ويؤله إليه ، و(الله) هو المستور عن درك الأبصار ، المحجوب عن الأوهام والخطرات»** [٢].. وكذلك ما روي عن الإمام الباقر ؑ : « **(الله) معناه : المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيته ،**

---

(١) توحيد الصدوق : ص ٨٩.

(٢) توحيد الصدوق : ص ٨٩.

والإحاطة بكيفيته»[1].

٨ ـ إن هناك بونا شاسعا بين الواحد والأحد، والأليق بمقام الجلالة هو الثاني؛ لأن نفي الواحد لا ينافي ثبوت المعدود من الاثنين فصاعدا، فتقول: ما جاءني واحد لتثبت مجيئ الاثنين، ولكن نفي الأحد يستلزم نفي كل معدود سواه، سواء كان في الذهن أو في الخارج، ويؤول هذا النفي إلى نفي الكثرة بكل صورها، ومن هنا لم يُطلق هذا الوصف إلا على ذاته المقدسة.

وهذه الدقة في التعبير جعلت هذه السورة متوجّهة لأهل التعمّق في المعاني، كما ورد عن الإمام السجاد عليه السلام حيث قال: «**إنّ اللهّ عز وجل علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون، فأنزل اللهّ عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ والآيات من سورة الحديد... إلى قوله ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فمن رام وراء ما هنالك هلك**»[2].

٩ ـ إن الطريقة القرآنية قائمة على إثارة الألباب، فيأتي بكلمات ذات دلالات محتملة الانطباق على معان متعددة كـ﴿الْكَوْثَرَ﴾[3] مثلا.

ومنها ما في هذه السورة من الإشارة إلى جهة غائبة، حاكية عن مفهوم مبهم ﴿قُلْ هُوَ﴾ ثم يزيده بيانا ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيكون خبرا بعد خبر، لذلك الذي

---

(١) توحيد الصدوق: ص ٨٩.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٩١.

(٣) سورة الكوثر: الآية ١.

هو في غاية الخفاء من جهة الذات، وإن كان في غاية الظهور من جهة الآثار.

١٠ ـ إن كلمة ﴿الصَّمَدُ﴾ تُطلق على ذلك الذي يُقصد إليه في قضاء الحوائج مع الاعتماد عليه، وهو ما روي عن الإمام الجواد عليه السلام عندما سُئل: ما الصمد؟.. فقال: «**السيد المصمود إليه في القليل والكثير**»[1] وهو لا يُطلق إطلاقا حقيقيا إلا لمن اتصف بصفة الأحدية، حيث لا نظير له في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال.

وقد أطلق ﴿الصَّمَدُ﴾ عليه تعالى في هذه الآية مبتدأً بلفظ الجلالة، كما أطلق عليه صفة ﴿أَحَدٌ﴾ مستندا إلى لفظ الجلالة أيضا، فكانت كل آية مبيّنة لجهة من الجهات على وزن واحد، إذ كان الأول ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ في بيان ما يتعلق بالفعل، وكان الثاني ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في بيان ما يتعلق بالذات، ومن المعلوم أن التوحيد الكامل هو ما كان متسريا إلى الجهتين.

١١ ـ إن الآيات في هذه السورة مترابطة بأفضل صور الترابط:

- فإن لازمة الأحدية: أن يكون (صمدا) يُفزع إليه لتفردّه في كل صفات الجلال والكمال.
- ولازمة الصمدية: نفي (الجزئية) من والد أو مولود لاحتياج كل مركب إلى جزئه، ونفي (المثلية) له لأنه لا يتحقق مثل هذا

---

(١) الكافي: ج ١ ص ١٢٣.

النفي إلا عند الاستغناء عن أي نظير مفروض له، من جهة الذات أو الفعل أو الصفة.

١٢ ـ فُسِّر لفظ ﴿الصَّمَدُ﴾ في هذه السورة بالذي لا جوف له، كما روي عن الإمام الحسين عليه السلام حيث قال: «**الصمد الذي لا جوف له**»(١).. فـ﴿الصَّمَدُ﴾ هنا بمعنى (المصمت) فكان التعبير بذلك مجازيا إما:

- لعدم التأثر بالغير: فإن الأجسام القابلة للانضغاط تنضغط لما في جوفها من الفراغ.
- أو لعدم وجود محل للتوالد كما هي في المخلوقين: فكان قوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ﴾ بيانا لهذه الجهة.

١٣ ـ إن الافتراء على الله تعالى بفرية الوالدية كانت هي السائدة في الأمم السابقة: كادّعاء بنوة عيسى وعزير كما ذكره تعالى ﴿وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وقالَتِ النَّصارى الْمَسيحُ ابْنُ اللَّه﴾(٢) وكبنوة الملائكة له كقوله تعالى ﴿وَ خَرَقُوا لَهُ بَنينَ وبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ وأَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنينَ واتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً﴾(٣).

ومن هنا تقدم نفي الوالدية على المولودية، إذ ندر من نسب إليه التولد من إله آخر كما عليه بعض الوثنيين.

---

(١) توحيد الصدوق: ص ٩٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٠.

١٤ ـ إن تقديم ما حقّه التأخير يفيد الحصر، فتقديم ﴿لَهُ﴾ على ﴿كُفُواً أَحَدٌ﴾ يدل على حصر عدم الكفؤية به تعالى، وإلا فإن كل ما سواه يمكن أن يفترض له نظير، فإن الممكنات متساوية في الحدوث والقابلية.. وهذا هو الحصر المستفاد أيضا من قوله تعالى ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] فتدل على حصر اطمئنان القلب بذكره تعالى شأنه، فمن لا كفؤ له في الذات لا كفؤ له في الآثار، ومن الآثار اطمئنان القلب بذكره!

١٥ ـ إن (الكفوية في الذات) لم يقل بها أحد بمعنى وجود واجبي وجود، ولكن (الكفؤية في الفعل) لها أمثلة كثيرة في التاريخ، فأعطى البعض صفة التدبير مستقلا لغير الله تعالى، مثلما كان عليه عبّاد الأوثان أو عبّاد البشر، كمن آمن بربوبية فرعون مثلا!

ومن الممكن أن يكون من صور الشرك الخفي بهذا المعنى ـ أي الكفؤية في التدبير ـ مَن اعتمد على غير الله تعالى في تدبير شؤونه في قبال تدبير الله تعالى له، وإن لم يقرّ بذلك اعتقادا.

١٦ ـ إن من آثار التوحيد الراسخ ـ سوى التوحيد في العبودية ـ هو التوحيد في الحاكمية والتشريع أيضا، وهذا هو البُعد الاجتماعي للتوحيد إضافة إلى البُعد الفردي الذي يرِد ذِكره عادة، فإن من اعتقد بالإله الأحد الصمد الذي لا كفؤ له، كيف يعطي الحق لغيره أن يكون حاكما (بنفسه)

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

من غير تفويض من الحاكم الأحد، أو (بتشريعه) من غير تعليم من الملهم الصمد؟!

ومن هنا جعل القرآن الكريم من لم يحكم بما أنزل الله تعالى في عداد الكافرين لقوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُون﴾[1].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

١ ـ إن كل استعاذة ـ وهي الاعتصام من كل ذي شر بالالتجاء إلى الغير ـ فيها أركان ثلاثة وهي :

- أولا المعتصِم : ولازمته تحقق الخوف ممّا يحذره وإلا لما كان معتصما .
- وثانيا المُعتَصم به أو الملتجأ إليه : ولازمته الثقة بقدرته على الإعانة والإعاذة .
- وثالثا المُعتصم منه : وهو ذلك الشر الذي يستعيذ منه الإنسان لخوفه من ضرره .

ومن المعلوم انه لدى اجتماع الأركان الثلاثة، يُتوقع فعلية الاستعاذة والالتجاء ، وذلك فيما لو كان المعتصِم جادا في استعاذته .

وقد جاءت السورة لتثبيت هذه الأركان الثلاثة : فالمأمور بـ﴿قُلْ﴾ هو المستعِيذ ، والرب المتعال هو المستعَاذ ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ والمخوف المستعاذ منه

ما ذِكر من الشرور في السورة الكريمة.

٢ ـ ورد الأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن الكريم اعتمادا على الاسم الدال على الذات ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[١] وهنا ورد الأمر بالاستعاذة اعتمادا على الاسم الدال على الوصف ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وقد يكون في ذلك إشارة إلى عظمة وسوسة الشيطان عند قراءة القرآن المستلزم لذكر المولى بأعظم أسمائه؛ لأن المقام إنما هو مقام دفع الشر في عالم القرب إلى الله تعالى، خلافا لمقام الاستعاذة من شر الظلام والساحر والحسود، فقد يكون الضرر دنيويا محضا.

٣ ـ إن الاستعاذة راجحة قبل وقوع الواقعة بل هي الدافعة لها، ومن المعلوم أن الدفع أيسر من الرفع!

ولقد كان النبي ﷺ يُعيذ نفسه هو بهذه السورة، وكان كثيرا ما يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام بهاتين السورتين[٢] أي (الفلق والناس) وخاصة على القول بأن النبي ﷺ لا يكون في معرض التأثر بالسحر، وإلا صار وهْن فيه ينافي مقام الرسالة، فإن الاستعاذة من شر غير واقع لا ضير فيه.

٤ ـ إن الاستعاذة تلازم الخوف، والخوف يستدعي العمل للنجاة ممّا يُخاف منه، وهو ما نراه فيما نقله القرآن الكريم عن أهل البيت عليهم السلام عند

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٨.

(٢) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٦٨٦.

التصدق بالطعام حينما قالوا ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[١] فهم جمعوا بين ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾[٢] وبين ذلك الخوف الموجب للاستعاذة.

وعليه فإن المستعيذ الصادق هو الذي يلتجأ بصدق، وصدق الالتجاء يكون بالعمل على ما يوجب النجاة.

٥ ـ إن المناسبة واضحة بين التعبير ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ والاستعاذة من مختلف الشرور المذكورة في هذه السورة؛ فما المانع أن يُزيل الله تعالى ظلمة الشرور بنور الفرج عند الاستعاذة به، وهو الذي يشقّ ظلمة الليل بعمود الصبح، ويرينا ذلك في كل يوم؟!

وقد تكون المناسبة هي النفحات المقارنة لساعة الفلق فعندها نشهد ﴿الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ﴾[٣] وعندها تقترن ملائكة الليل بالنهار، وعندها يتحقق قرآن الفجر المشهود لدى ملائكة الليل والنهار ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٤] فكانت الاستعاذة بالرب والمستندة لهذا الوقت المبارك أدعى للاستجابة!

---

(١) سورة الإنسان: الآية ١٠.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

٦ ـ إن كلمة ﴿الْفَلَقِ﴾ هنا كـ﴿الْكَوْثَرَ﴾[١] و﴿الْفَجْرِ﴾[٢] وغيرها من المفردات التي اختلف في معناها المفسرون، وذلك لإمكان انطباقها على محتملات كثيرة، وهو بدوره كاشف عن عمق هذا الكتاب، وتبين الحاجة إلى مَن يُعيّن المراد من بين المحتملات، فقيل:

- إنه الصبح الذي يشق الظلام[٣].
- إنه إخراج كل موجود إلى الوجود بفلْق وعائه أي بشقه[٤]، سواء في الحيوان أو النبات فهو القائل ﴿إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ والنَّوى﴾[٥].
- إنه إخراج كل شيء من ظلمة العدم إلى نور الوجود؛ فهو شق لستار العدم أيضا.

٧ ـ تعجب البعض من أنه كيف نستعيذ بالله تعالى من شر كل ذي شر ﴿مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ﴾ وهو الخالق له فكأنه استعاذة به منه!

والجواب: إن الشر يأتي تارة من قاصد للشر كشر بني آدم، وتارة يأتي من غير عاقل كشر الهوام المؤذية؛ وفي الموردين فإن الله تعالى خلق أصل ذلك الموجود مزودا بما يصدر منه الخير والشر.

---

(١) سورة الكوثر: الآية ١.

(٢) سورة الفجر: الآية ١.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ج٤ ص٤٥٢.

(٤) التحقيق في كلمات القران: ج٩ ص١٣٦.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٩٥.

وحينئذ نقول: إن ما يقع منه خارجا، إما: لانحراف في مزاجه كشرور البشر، أو لمقتضى في طبعه كشرور البهائم، فصار من الراجح أن يستعيذ العبد بربه المدبّر لهذا الوجود بخيره وشره، ليصرف عنه الانحراف في المزاج أو لازمة الطبع.

٨ ـ إن ﴿غاسِقٍ إِذا وَقَبَ﴾ وهو الليل المظلم إذا وقب ودخل[١]، كأنّه يُعين على الشر بنشر ظلمته، فيعصي فيه العاصي من دون فاضح، ويهجم فيه المعتدي مباغتا لعدوّه فلا يقدر على صرفه، أضف إلى ما يعيشه البعض من خوفٍ لأصل هول الليل وخاصة إذا اجتمع مع ظلمة البحر، وهذا هو السرّ في تخصيصه بالذِكر بعد ذِكر أصل الشر، ولعل سهولة ارتكاب بعض المعاصي في الليل من أهم موجبات الشر فيه.

وكم هو الفرق بين ليل يقع فيه ما يقع من الشرور، وبين ليل يصفه القرآن الكريم ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ﴾[٢] ؟!

٩ ـ إن هذا الكون مزيج بين الغيب والشهادة، فكما أن هناك شرا محسوسا يُرى بالعيان كالسباع المفترسة، أو بالآلة كالجراثيم الصغيرة، فإن هناك أيضا شرا غير محسوس، يتمثل بما لا يرتبط بالحواس كتأثير السحر ﴿النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ والعين ﴿وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ﴾ وقد أقرّ القرآن بأصل هذا التأثير في آيات أُخرى، فذكر السحر قائلاً ﴿وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ

---

(١) تهذيب اللغة: ج ٨ ص ٣١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٣.

كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[١] وذكر العين قائلا ﴿وإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾[٢] وذكر الجن ﴿وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً﴾[٣].

وعليه، فلا معنى للمسارعة إلى إنكار ما لم يخضع للحواس ما دام العقل لا ينكره، والشواهد الخارجية مصدّقة له.

١٠ ـ إن نسبة السحر إلى النساء النفاثات في العقد ـ إن لم نجعلها إشارة إلى ساحرات بعينهن في زمان النبي ﷺ ـ قد تكون إشارة إلى بعض النساء في كل زمان:

- إما من جهة ضعفهن في مواجهة الخصوم؛ فيلجأن إلى كيد ليست فيه مواجهة الرجال للرجال، بما فيها من قوة المواجهة.
- أو من جهة عاطفتهن في جلب قلوب الرجل؛ فيلجأن إلى جلب أسباب المحبة ولو كان بطريق منهي عنه، لما فيه الإضرار بالغير.

١١ ـ إنه من الممكن القول: إن الحديث في الآية ليس عن سحر النساء بالنفث في عقد الخيط وما شابه، وإنما عن سعيهن البشري لاجتذاب قلوب الرجال، فهن ـ بما أعطاهن الله تعالى من خاصية الجذب في الوجوه

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

(٢) سورة القلم: الآية ٥١.

(٣) سورة الجن: الآية ٦.

والنفوس ـ يستملن قلوب الرجال، وكأنهن ينفثن في قلوبهم ما يسلبهم العزم والهمة!

وهذا المعنى جليٌّ في الخلوة المريبة، فيعمل الرجل فيها خلاف عقله وشرعه وكأنه مسحور حقيقة، فناسب التحذير منهن كم يُحذّر من الساحر، فالعداوة فيهما مشتركة، ويؤيده قوله تعالى في حديثه عن النساء ولو كانت عن الزوجة ﴿إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم﴾[1] .

١٢ ـ إن التنكير في ﴿غاسِقٍ﴾ و﴿ حاسِدٍ﴾ قد يكون :

- لتعظيم شرهما قياسا إلى النفاثات، وذلك أن الشر في النفاثات أمر اتفاقي لا يقع إلا نادرا، بخلاف الليل الذي يُقبل علينا في كل يوم، ومعاشرة البشر الذين نحن مبتلون بهم في كل ناد .
- لتقليل شرهما قياسا إلى النفاثات، من جهة أن الشر لا يلازم الليل والحاسد؛ فكم من ليل خال من الشر!.. وكم من حاسد لا يصدر منه شر!.. فناسب التنكير فيهما بخلاف النفاثات فإن الشر لازم لها.

١٣ ـ إن الحاسد إذا كتم حسده ولم يُظهره ـ بل تأذّى ممّا هو فيه ـ قد يجعله في معرض الرحمة الإلهية، فيقلّب المولى حاله كما يقلب الليل والنهار، إلا أن الشر ينقدح عندما يعمل الحاسد حسده، ومن هنا استُعيذ من شره

---

(١) سورة التغابن : الآية ١٤.

عنه بقيد إعمال الحسد ﴿ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ﴾ وذلك إما : بعينه فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «**كاد الحسد أن يسبق القدر**»[1] ، أو بفعله عندما يكيد للمحسود فيفعل ما يسخط الرب ليكون مصداقا لقول النبي ﷺ حيث قال : «**إياكم والحسد!.. فإن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب**»[2] .

١٤ ـ إن تخصيص ذِكر الحاسد بعد الساحر من بين كل شرور الوجود، يدل على قبح ما هو فيه لأنه :

- في منتهى اللؤم : حيث لا يسأل الخير لنفسه؛ بل يتمنى زوال الخير من غيره .
- في منتهى الجهل : فلا يسأل الخير ممن بيده خزائن السماوات والأرض، وهو الذي يطلب من عباده أن يسألوا من فضله قائلا ﴿وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[3] .
- في منتهى التحدي وإن لم يشعر به، إذ كأنّه يعارض الله تعالى فيما يفعل وهو القائل ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِه﴾[4] .

---

(١) وسائل الشيعة : ج ١٥ ص٣٦٥.
(٢) الكافي : ج ٢ ص ٣٠٦.
(٣) سورة الإنسان : الآية ٣٢.
(٤) سورة الإنسان : الآية ٥٤.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

١ ـ إن الله تعالى قرَن بين سورتين لدعوة العباد إلى الالتجاء إليه ، فإن الإنسان لا يخلو ممّا يخيفه طوال مسيرته في الحياة ، وقد تميّزت سورة الفلق بذكر الآفات المحسوسة من : الليل ، والحاسد ، والساحر.

وأما هذه السورة فقد تميّزت بذكر الآفات غير المحسوسة من : الوسوسة في الصدور ـ سواء كانت من الإنس أو الجن ـ ولا يتم التحصين من مجموع الشرور إلا بالتخلص من آفات الجوارح والجوانح معا .

٢ ـ إن البعض يكتفي بالاستعاذة اللفظية قبل قراءة القرآن عملا بقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[1] لأن تكالب الشياطين تشتد عند عمل الخير!

ولكن هذا العمل اللفظي لا يغنيه عن الاستعاذة الحقيقية ؛ فإن المأمور به في

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٨.

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ ليس مجرد التلفظ بل لا بُد من (الإحساس) القلبي بالالتجاء أولا، ثم (العمل) الخارجي بما تستلزمه الاستعاذة كترك التعرّب بعد الهجرة عند الاستعاذة من فساد الدين مثلاً، بل (عدم العمل) بما هو خلاف الاستعاذة، وذلك كمن يستعيذ بالله تعالى من السباع الضارية، وأمامه قلعة حصينة لا يدخل فيها!

٣ ـ إن المُستعاذ في هذه السورة مذكور من جهات مختلفة، فمن جهة كانت الاستعاذة:

- ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وهذا سبب مستقل لأن يكون الله تعالى ملجأ لكل مستعيذ؛ فهو الرب المدبّر الذي بيده تصريف شؤون العباد.
- وتارة بـ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ وهذا سبب مستقل آخر؛ فهو الملك النافذ سلطانه على العباد، والقاهر لهم بما يريد وعلى ما يريد وكيف يريد.
- وأُخرى بـ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ وهذا سبب مستقل آخر؛ فهو المعبود الذي يُرجع إليه في كل الأمور، والمصمود إليه في قضاء جميع الحوائج.

ومن مجموع ما ذُكر، فإنه يتعيّن على العبد أن يستعيذ بمن جمع بين جميع هذه الأسباب.

٤ ـ إن الجمع بين خصائص الربوبية والألوهية والمِلكية، مما نطق به

القرآن الكريم في آيات كثيرة ، فمما يشير إلى جهة الربوبية والألوهية قوله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[١] ومما يشير إلى جهة المُلكية قوله تعالى ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ والْأَرْضِ وإلى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[٢].

وهناك ما يشير إلى الجهات الثلاث في آية واحدة ، وهو قوله تعالى ﴿ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[٣] حيث تمت الإشارة إلى جهة الربوبية ، والملكية ، والألوهية.

وحينئذ نقول : إن مَن يعتقد باستجماع مَن يستعيذ به لهذه الجهات الثلاث ، كيف يبقى عنده خوف عند مواجهة شرور هذه الحياة؟!

٥ ـ إن الآيات الثلاث الأولى فيها تدرّج عند الإشارة إلى المُستعاذ به وهو الله تعالى ، وذلك بذِكر الرب ، ثم الملك ، ثم الإله ، ويمكن أن نفهم أن ما فيها من المعاني هو الذي يوجب مثل هذا الترتب :

- فمقام الربوبية أقرب إلى معايشة العبد ، وذلك لما يراه من آثار التدبير الربوبي في أدقّ جزئيات حياته .
- ثم يليه إحساسه بالمُلكية المستوعبة لكل الوجود ، ومن المعلوم أن الالتفات لهذا المقام يختصّ بمن يعيش حقيقة أنه لا كافي له

(١) سورة المزمل : الآية ٩.

(٢) سورة الحديد : الآية ٥.

(٣) سورة الزمر : الآية ٦.

سواه، مصداقا لقوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[١].

- ثم يليه الإحساس بمقام القرب المعنوي، المتمثّل بعلاقة العبودية الخالصة بينه وبين الإله الذي لا معبود سواه.

وعليه، فإن التدرّج فيها تدرج في مقامات الارتباط بالمبدأ وهو الذي يناسب التحصّن به من الشرور الأنفسية، وأما في سورة الفلق فالتحصّن كان ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[٢] فحسب، وهو المناسب للشرور الآفاقية التي هي اقل خطرا من سابقتها.

٦ ـ إن هذه السورة أمرت بالتحصّن بالله تعالى من خلال تجلياته الثلاثة، أعني الربوبية والملكية والألوهية من دون عطف بأداة العطف، مع تكرار كلمة ﴿النَّاسِ﴾ مع كل ذكر له تعالى ممّا يُفهم من المجموع: إن كل آية تفيد سببا من أسباب الاستعاذة به.

ومن الملاحظ أن البشر فيما بينهم يجعلون هذه الجهات أيضا من أسباب التجاء بعضهم إلى بعض؛ فمَن وقع عليه ظلم يلجأ أولا إلى من يتولى شؤونه كالأب مثلا، ثم إلى من بيده القوة والمنع كالحاكم مثلا، وإذا يئس منهما توجّه إلى من هو وراء البشر من معبود يعبده!

٧ ـ إن شدة تأثير الوساوس البشرية والشيطانية على النفس الإنسانية، تُفهم من خلال الأمر بالاستعاذات الثلاث على شر واحد،

---

(١) سورة الزمر: الآية ٣٦.

(٢) سورة الفلق: الآية ١.

خلافا لسورة الفلق التي فيها استعاذة واحدة على شرور أربعة، وقد يكون السبب في ذلك:

- أن الوسوسة كيد خفي لا يشعر به الإنسان؛ فإنه من عالم الإلقاء في النفوس ﴿فِي صُدُورِ﴾.
- أنها تأتي من مصدرين مختلفين ﴿مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ﴾.
- أن الموسوس مستمر في وسوسته بمقتضى الفعل المضارع ﴿يُوَسْوِسُ﴾.
- أنه لا ييأس من المحاولة مرة بعد أُخرى فهو ﴿الْخَنَّاسِ﴾.

ومن هنا لزمت الاستعاذة العظمى، بربٍ عظيم لهذا الشر العظيم!

٨ ـ إن تنقية البواطن من التأثير الشيطاني لمن سبل تنقية الجوارح، فإن **الإنسان في معرض التأثر بالإلقاءات التي تشتد إلى درجة تُسلب معها الإرادة ـ ما دام هناك موسوس في الصدور ـ فإن ما يدفع الإنسان باطنا، قد يصل إلى مستوى ما يدفعه خارجا كاليد الدافعة.**

ومن المعلوم: إنه كما أطلق الله تعالى يد موسوس الشر في النفوس؛ فإنه يحفظ لنفسه الحق ـ بطريق أولى ـ لأن يُلهم أولياءه ما فيه الخير، وهو الواقع كثيرا كما يذكره القرآن الكريم في موارد، منها قوله تعالى ﴿إِذْ أَوْحَيْنا إلى أُمِّكَ ما يُوحى﴾(١) ومنها ما وقع لأهل الكهف حيث قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ

---

(١) سورة طه: الآية ٣٨.

آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدْناهُمْ هُدى﴾[١] .

٩ ـ إن تصوّر : هيمنة الشيطان على القلب، وأنه يحوم حوله، وأنه يجري في ابن آدم مجرى الدم في العروق، وأنه كلما ذُكر الله تعالى خنس كما تذكره هذه السورة؛ كل هذه التصوّرات يجعل العبد حريصا على الذكر الدائم، فإن دفع الوسوسة المستمرة بالفعل المضارع ﴿يُوَسْوِسُ﴾ لا يكون إلا بالاستعاذة المستمرة ﴿أَعُوذُ﴾.

ومن هنا علينا أن نعلم أن الأصل في بني آدم هو أن يكون في معرض التقام الشياطين لقلبه، ولا يخرج من ذلك إلا إذا تحقق له ما يوجب انصراف الشيطان عنه .

وخير ما يصوّر لنا هذه الحالة ما روي عن النبي ﷺ حيث قال: «**إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه؛ فذلك الوسواس الخناس**»[٢] .

١٠ ـ إذا جعلنا وصف ﴿الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ﴾ مشتركا بين ﴿الْجِنَّةِ والنَّاسِ﴾ ـ كما هو ظاهر الآية ـ فإنها تدل على قوة بعض البشر في التأثير الباطني على بني جنسه؛ لأن تأثير الشياطين الخفية التي تعمل على القلوب أساسا هو أمر متوقع؛ ولكن سلطة البشر على الغير تنحصر بها لا يتعدى جوارحه عادة، ومن هنا فإن نفوذ البعض إلى مملكة الجوانح يحتاج إلى قدرة

---

(١) سورة الكهف : الآية ١٣ .

(٢) علل الشرائع : ج٢ ص٥٦٦.

شيطانية خاصة؛ ومن هنا لزم الحذر منهم كالحذر من الشياطين!
وليُعلم أن صفة ﴿الْخَنَّاسِ﴾ منطبقة عليهم أيضا؛ فلا يرفعون أيديهم عن الغريم من أول مقاومة، شأنهم في ذلك شأن الأبالسة في إصرارهم على الإيقاع بالضحية في الرذيلة.

١١ ـ إن اقتران التعبير بـ﴿الْوَسْواسِ﴾ مع ﴿الْخَنَّاسِ﴾ يُفهم منه: إن هناك حالة من الكرّ والفرّ بين النفس وشياطين الجن والإنس، ومن هنا جاء التعبير بما يُفهم منه الاختفاء بعد الظهور (الخنس) ولكن مع استمرار هذه المعركة وغلبة ﴿الْوَسْواسِ﴾ أخيرا، فإن الأمر يتعدّى من الخنس إلى مرحلة الطبع على القلوب ﴿أُولئِكَ الَّذينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وسَمْعِهِمْ وأَبْصارِهِم﴾[1] والختم عليها ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وعَلى سَمْعِهِمْ وعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَة﴾[2] وهي المرحلة التي عبّر عنها أمير المؤمنين ﷺ بقوله: **«فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه»**[3].

١٢ ـ ما دامت الوسوسة مرتبطة بعالم القلوب، وليس لكل إنسان سيطرة على ما هو غائب عن عالم الحواس، فإنه تتأكد الحاجة والاضطرار للالتجاء إلى من بيده مفاتيح القلوب، إذ **«إن قلوب العباد بين أصبعين من**

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧.

(٣) الكافي: ج٨ ص١٥٩.

أصابع الرحمن» [١] وهو الذي ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[٢] وهو الذي ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[٣].

وقد جاءت هذه السورة في سياق دفع الإنسان إلى هذه الجهة، والتي بيدها لا بيد غيرها جعْل المُستعيذ في درعه الحصينه.

١٣ ـ إن هناك فرقا بين الوسوسة المتوجهة إلى صدور عامة الناس ﴿صُدُورِ النَّاسِ﴾ والتي منها تنشأ الخواطر الباطلة ثم الميل إلى الحرام ثم استجابة الجوارح لها، وبين الوسوسة التي تعرض على الخواص وهم الأنبياء عليهم السلام كما حصل لأبينا آدم عليه السلام ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾[٤] وما يحصل للمتقين من عباده ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[٥] فإنها وسوسة عابرة غير مستقرة في القلب، ولا يُخشى على أصحابها منها من جهة الوقوع في الحرام.

١٤ ـ إن عطف الناس على الشياطين يدل على السنخية فيما بينهما؛ فكما نجد رسولا باطنيا يتمثل بالعقل يعضد الرسول الخارجي، فإن هناك ممثلا خارجيا من الناس للشيطان الباطني، ممّا جعل القرآن الكريم يقرنهم

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣٥٣.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٤.
(٣) سورة غافر: الآية ١٩.
(٤) سورة طه: الآية ١٢٠.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

في آية واحدة ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[١].

والملفت هنا: أن هناك قسْماً من البشر يتعلم في سنوات قصيرة ما تعلمته الشياطين في سنوات طويلة، بل يصل الأمر إلى درجة يتبادلون الإيحاء فيما بينهم لصد طريق الأنبياء (عليهم السلام) لقوله تعالى ﴿وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ والْجِنِّ يُوحي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورا﴾[٢].

١٥ ـ إن المحصلة النهائية لهذه السورة الخاتمة للقران الكريم، هي دعوة العبد لتحصين مركز القرار في وجوده، ألا وهو القلب المعبَّر عنه بالصدر هنا، لئلا يقع في أيدي الأعداء المتربصين، وهم الموسوسون من شياطين الجن والإنس، ومن المعلوم انه من دون تحصين هذه القلعة التي فيها أمير البدن ـ أي القلب ـ فإن العبادات البدنية لا تجدي نفعا في دفع من يحوم حول هذا الحصن.

وخير ما يجسد لنا هذه الصورة من الحرب الدائرة بين النفس وأعدائها، ما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال «**القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله**»[٣] وهذه الجملة على قصرها تلخص نظرة أهل البيت (عليهم السلام) إلى تنقية القلوب وتهذيبها.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٧ص٢٥.

وختاماً نحمد الله تعالى الذي يسَّر لنا فهم ما ذكرناه في تفسير هذا الجزء المبارك من القرآن الكريم، سائلين المولى القدير أن يعيننا على إكمال باقي الأجزاء بمّنه وكرمه، وبفضل عناية أوليائه الكرام محمد ﷺ وآله الطيبين الطاهرين.

فهرس المصادر

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ نهج البلاغة.

٣ ـ الكافي : محمد بن يعقوب الكليني.

٤ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر الأخبار: محمد باقر المجلسي.

٥ ـ مسند أحمد : أحمد بن حنبل.

٦ ـ مناقب آل أبي طالب : محمد بن علي (ابن شهر آشوب) المازندراني.

٧ ـ تحف العقول : الحسن بن شعبة الحراني الحلبي .

٨ ـ جامع أحاديث الشيعة في أحكام الشريعة: البروجردي .

٩ ـ وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة : محمد بن الحسن الحر العاملي.

١٠ ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية : محمد بن الحسن الحر العاملي.

١١ ـ الأمالي : محمد بن علي (ابن بابويه) الصدوق.

١٢ ـ التوحيد: محمد بن علي (ابن بابويه) الصدوق.

١٣ ـ علل الشرائع : محمد بن علي (ابن بابويه) الصدوق .

١٤ ـ معاني الأخبار: محمد بن علي (ابن بابويه) الصدوق.

١٥ ـ الخصال : محمد بن علي (ابن بابويه) الصدوق .

١٦ ـ ثواب الأعمال و عقاب الأعمال : محمد بن علي (ابن بابويه) الصدوق.

١٧ ـ من لا يحضره الفقيه : محمد بن علي (بن بابويه) الصدوق .

١٨ ـ الاحتجاج على أهل اللجاج : أحمد بن علي الطبرسي.

١٩ ـ مشكاة الأنوار في غرر الأخبار : علي بن الحسن الطبرسي.

٢٠ ـ جوامع الجامع : فضل بن الحسن الطبرسي.

٢١ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن : فضل بن الحسن الطبرسي.

٢٢ ـ التبيان في تفسير القرآن : محمد بن الحسن الطوسي.

٢٣ ـ الأمالى : محمد بن الحسن الطوسي.

٢٤ ـ تهذيب الأحكام : محمد بن الحسن الطوسي.

٢٥ ـ الميزان في تفسير القرآن : السيد محمد حسين الطباطبائي.

٢٦ ـ تفسير نور الثقلين : عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي.

٢٧ ـ تفسير القرآن العظيم : اسماعيل بن عمرو (ابن كثير) الدمشقي .

٢٨ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم : السيد محمود الآلوسي.

٢٩ ـ لئالىء الأخبار : محمد نبي التويسركاني .

٣٠ ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل : عبيد الله بن احمد الحسكاني.

٣١ ـ الدر المنثور في تفسير المأثور : جلال الدين السيوطي.

٣٢ ـ جامع الأخبار : محمد بن محمد الشعيري.

٣٣ ـ مفاتيح الغيب : ابو عبد الله محمد بن عمر الرازي.

٣٤ ـ تفسير الكشاف : جار الله الزمخشري.

٣٥ ـ معالم التنزيل في تفسير القرآن : حسين بن مسعود البغوي الشافعي.

٣٦ ـ تفسير العيّاشي : محمد بن مسعود العياشي.

٣٧ ـ التحقيق في كلمات القرآن الكريم : حسن المصطفوي.

٣٨ ـ مفردات ألفاظ القرآن ، حسين بن محمد الراغب الأصفهاني.

٣٩ ـ معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس (ابن فارس).

٤٠ ـ تهذيب اللغة ، محمد بن أحمد الأزهري.

٤١ ـ مجمع البحرين ، فخر الدين بن محمد الطريحي.

فهرس المحتويات

***